رباط الدم

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب: رباط الدم
التأليف: منى غيضان
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 360 صفحة
عدد الملازم: 22.5 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/28581
الترقيم الدولي: 5 - 672 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

رباط الدم

رواية بقلم:

منى غيضان

"أميرة أندلسية"

دار البشير للثقافة والعلوم

إهـداء

إلى كل من أعانوني ليخرج هذا العمل بهذه الصورة.. إلى الجندي المجهول..

علا صوت أحد الصيادين بصياح أيقظ معظم سكان الأكواخ المتاخمة للشاطئ، فخرج بعضهم مهرولا متعثرا ببقايا نومه إلى حيث مصدر الصياح ليجدوا زميلا لهم يجلس على رمال الشاطئ، ويحاول إسعاف شخص ما ألقته الأمواج المتلاطمة على الشاطئ في وقت مبكر من الفجر.. لكن يبدو أن الرجل كان قد انتهى أمره قبل أن يجده ذلك الصياد..

وبينما هو يحاول محاولة أخيرة لإسعافه لمح على صدره الذي ظهر من فتحة قميصه وشما دائري الشكل له جناحان وتعلوه عين محدقة..

ارتد الرجل بعيدا عن الجسد الممدد على الرمال وقد اضطرب قلبه فزعا.. ولم يكن الوحيد الذي رأى ذلك الوشم؛ فقد بدأت الهمهمات القلقة تسري بين الواقفين.. همهمات ترددت فيها كلمة لها وقعها في قلوبهم جميعا..

عسَّاس!

ووصل الخبر بسرعة البرق إلى عائلة الرجل الذين هرعوا إلى المكان.. كانوا رجالا مسوّدين ومعممين بالسواد أيضا.. وجوههم مكفهرة كعادتهم، وأعينهم تنطق بالشر.. فانحسر الجمع عن الجسد المسجى على طاولة خشبية عتيقة قاموا بنقله إليها بعد أن فشل إسعافه..

تقدم أحد المسودين وأزاح الغطاء عن وجه الرجل لتظهر الصدمة جلية على قسمات وجهه:

- إنه هزيم!

قالها وأدار رأسه لينظر لأحد زملائه بتوتر، فتقدم ذلك الزميل والذي فور أن سمع الاسم سقط قلبه في قدميه.. وقف أمام الجثمان ليشعر أن قلبه قد توقف عن العمل للحظات.. كان يخشى أن يكون هو فور أن سمع الخبر ينتشر في المدينة..

- يبدو أنه ما من أحد قد نجا غيره

قالها الأخير بصوت متحشرج فقال الأول:

- خذوه إلى وحدة الإسعاف حالا..

وقبل أن يغادر نظر إلى الصيادين الصامتين كالصخور الصماء وقال بنبرة أرعبتهم:

- أنتم محظوظون هذه المرة.. فما من تهمة يمكن إلصاقها بكم

وغادر يتبعه طرف ردائه الأسود ومن خلفه بقية زملائه يحمل بعضهم جثة الغريق متوجهين لوحدة الإسعاف..

وهناك ساد هرج ومرج وصياح بين المسودين وبين موظفي الوحدة وهم يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم فعلوا كل ما أمكنهم فعله لإنقاذ الغريق، والذي جاءهم ميتا بالفعل..

- يا سيدي كيف تلوموننا وأنتم أحضرتموه لنا وقد فارق الحياة؟

جملة خرجت من بين شفتي فتاة شابة تلقت على إثرها لطمة من أحد المسودين، فاختل توازنها قليلا.. ثم وضعت يدها موضع اللطمة وهي تنظر للرجل بكراهية شديدة..

قامت فتاة أخرى بجذبها وقلبها يتقافز في مكانه فزعا بعد ما رأت ما حل بصديقتها، وحاولت إبعادها عن مجال بصر الرجل الذي لطمها والذي كان يبادلها نظرات الكره بدوره..

انتحت بها في غرفة جانبية ثم رفعت كفها من على وجهها لترى أثر اللطمة..

- دائما نحن الملامون حتى لو لم نفعل شيئا

قالتها الفتاة الأولى بينما الأخرى تدور في الغرفة تفتح الخزائن والأدراج لإخراج بعض الضماد والأدوية، ثم تعود لرفيقتها وتقول بحزم:

- أطبقي فمك أمام أولئك الأبالسة ولا تثيري غضبهم مرة أخرى

صاحت الأولى فيها بغضب:

- أثير غضبهم؟ ألم تري ما حدث بعينيك يا هند؟

قالت هند وهي تسكب سائلا لزجا في صحن صغير وتمزج معه أعشاب مسحوقة لها رائحة نفاذة:

- بلى رأيت.. وأعلم أن ذلك الأمر سيتكرر مرارا وتكرارا سواء منهم أو من غيرهم من العائلات الأخرى..

وتابعت وهي تضع الدهان الناتج عن ذلك المزيج على وجه صديقتها الذي بدأ لونه بالاحمرار:

- والأفضل لك أن لا تجادليهم في أي أمر

قالت صديقتها بقهر:

- إلى متى سنظل صامتين؟

لم ترد هند واكتفت بالصمت وتغطية مكان الإصابة بضمادة لفت طرفيها حول وجه الفتاة لتثبتها..

- إن كان الرجال قد خرست ألسنتهم فنحن لدينا ألسنة

توقفت هند عن عملها وحدجت صديقتها بنظرة مخيفة وهي تقول بصوت كالفحيح:

– إياك يا زهرة أن تقدمي على أي عمل متهور

– إن كان ذلك سيعود علينا بفائدة فمرحبا به

أمسكتها هند من كتفيها بقسوة وهي تنظر لعينيها مباشرة وتقول وهي تضغط على كل حرف من حروف كلماتها:

– لن يعود تهورك بشيء إلا أن تصبحي جارية في قصر الحاكم ينال منك هذا وذاك

وتركت كتفيها ثم نهضت لإعادة الأدوية لمكانها، بينما ابتلعت زهرة غصة توقفت في حلقها مع جملة هند الأخيرة.. وكأنما جرّت تلك الجملة ذكرى بغيضة إلى رأسها فقالت بصوت خفيض:

– هل تظنين أن سارة بخير؟

تسمرت هند في مكانها وسرت في جسدها رعدة قوية، ثم راح قلبها يخفق بعنف.. فرغم مرور عام كامل على أسر سارة إلا أنها لم تنسها يوما..

فجأة قطع حبل أفكار الفتاتين صوت زميلة لهما بعد أن اندفعت للحجرة، وقالت وهي تلهث انفعالا:

– هل تعرفين من ذاك الغريق يا زهرة؟

التفتت زهرة إليها وقالت وقد فاجأها انفعالها:

– كلا..

وتابعت متسائلة في دهشة:

- هل تعرفينه يا مريم؟

أومأت مريم برأسها قبل أن تنتبه لوجود هند في الغرفة فتوترت ولزمت الصمت حتى استحثتها زهرة على الحديث فقالت بتردد:

- إنه..

وابتلعت ريقها بصعوبة وتابعت متجنبة النظر إلى هند:

- إنه أحد العشرة الذين ذهبوا إلى الجزيرة قبل أيام!

شهقت هند ووضعت يدها على فمها وقد عاد قلبها يخفق بعنف..

تساؤلات

وقفت هند تطالع البدر الذي يتوسط السماء، تخفيه السحب تارة وتنحسر عنه تارة أخرى.. وكعادة سكان المدينة في إقامة أعراسهم يوم اكتمال البدر.. فقد كان هذا هو البدر الأول الذي يقام مع قدومه عرس لأحد من شباب العائلة بعد اكتمال أشهر الحداد الخمسة..

أخذت نفسا عميقا ثم أغلقت المصراع الخشبي للنافذة لتدخل إلى الغرفة حيث الدفء.. كان الشتاء على الأبواب، لذا فقد كانت البرودة تتسلل من حين لآخر إلى الجو..

- هل أنت جاهزة؟

انتبهت هند على صوت زهرة التي تابعت وهي تلف على رأسها عمامتها الحريرية:

- لماذا لم تضعي بعض الزينة؟

هزت هند رأسها وقالت:

- تعلمين أنني لا أهتم بهذا الهراء

توقفت زهرة عما تفعل وقالت:

- هذا ليس هراءً.. إنه أنوثة فلا تقتليها..

وعقبت وهي تقترب منها ممسكة بالمُكحُلة:

– كما أننا لن نخرج من مجلس النساء، فلا تقلقي من أن يراك أحد

ابتسمت هند لتخرج زهرة المِروَد مغموسا في الكحل لتكحل به عيني صديقتها وبعده تضع على وجهها بعض الزينة.. ومن ثم نزلتا معا إلى مجلس النساء حيث كن يغنين ويصفقن فرحا وابتهاجا بالعروس التي ارتدت ثوبا حريريا مفعما بالألوان الزاهية ومطرزا بخيوط ذهبية اللون..

– إنها مسكينة.. مرغمة ككل نساء العائلة

همست بها هند في أذن زهرة لتلتفت إليها تلك الأخيرة بسرعة وبعينيها نظرة محذرة وتقول همسا هي الأخرى:

– لا داعي لهذا الكلام الآن يا هند

لوت هند شفتيها وقالت:

– ألم أقل الحقيقة؟!

تغير وجه زهرة فجذبت صديقتها إلى أحد الأركان وقالت:

– كلنا نعلم أنها قوانين جائرة، لكن ما عسانا نفعل؟

– الرفض

قالت زهرة مستنكرة:

– ألست أنت من تقول لي دوما أن أؤثر السلامة وأبتعد عن المشكلات؟

قالت هند وهي تومئ برأسها:

– بلى، ولكن تغيير تلك القوانين لن يؤثر على المدينة في شيء، أنا لا أطالب إلا بترك حرية الاختيار لنا بدلا من التقيد بترتيب عائلي للزواج كما لو كنا أنعاما..

وواصلت وهي تشير إلى صديقتها بسبابتها:

– أنت التالية في تلك السلسلة المقيتة، أخبريني ما هو شعورك وأنت مرغمة على الزواج من مهند وأنت لا تطيقين النظر في وجهه؟

زفرت زهرة بضيق شديد وقالت:

– ماذا تريدينني أن أفعل؟ أن أتحدى العائلة وأتزوج ممن أريد رغما عنهم فيقومون بسجننا أو نفينا إلى الصحراء فنهلك؟

ساد صمت ثقيل عليهما يتخلله صخب النسوة حتى انتبهت هند لشيء ما..

– هل قلت تتزوجين ممن تريدين؟

احمر وجه زهرة وتلعثمت فقالت هند:

– إنه مروان أليس كذلك؟

توترت زهرة بشدة وقالت:

– لا طائل من الحديث فالأمر محسوم في النهاية

اتسعت عينا هند دهشة ثم أمسكت صديقتها من كتفيها وهي تقول بجدية:

- كلا.. لم يحسم بعد.. بإمكاننا تغيير الـ..

قاطعتها زهرة بمرارة:

- لا يمكننا تغيير شيء يا هند.. لا يمكن.. قد تتعجبين إن دافعتُ باستماتة عن حقوقنا كمعالجين واعترضتُ على الأذى الذي يطالنا من العائلات الأعلى رتبة، لكني لا أستطيع فعل شيء حيال أمر زواجي.. ستطاردنا الفضائح عدة أعوام وقد يتعرض بعض أفراد العائلة لأبويّ

وتوقفت عن الكلام لغصة في حلقها، ورأت هند في عينيها سحابة دمع تأبى الهطول، فربتت على كتفها وقالت وقد أشفقت عليها:

- هوني عليك.. سيأتي الوقت الذي يتغير فيه كل شيء.. أنا واثقة

أخذت زهرة نفسا عميقا ثم قالت مغيرة دفة الحديث:

- تعالي لنبارك للعروس بدلا من الثرثرة

تقدمت الفتاتان إليها وباركتا لها مبتسمتين، لترد الأخيرة بابتسامة هي الأخرى وإيماءة من رأسها.. لكن عيني هند لم تفتهما تلك النظرة الكسيرة في عيني الفتاة.. ها هي فتاة أخرى تعيسة ستنضم لقائمة طويلة من ضحايا القوانين الجائرة..

اتخذت هند مجلسا بجوار أمها التي مالت على أذنها هامسة:

– لماذا تأخرت؟

قالت هند ببساطة:

– أصرت زهرة على وضع بعض الزينة لي

ابتسمت الأم بعد أن ألقت نظرة سريعة على وجه ابنتها وقالت:

– خيرا فعَلَت

واستمرت الأغاني المبهجة والتصفيق حتى أن صخبهما قد وصل لمسامع المرأة التي كانت على بعد أمتار من البيت المقام فيه العرس.. كانت تمشي بثقة وقد رفعت رأسها بتعالٍ وكبر..

– لماذا علينا حضور أعراس العامة يا أمي؟

التفتت المرأة إلى ابنتها المراهقة ثم قالت:

– لأن هؤلاء القوم لو لم يكونوا تحت أعيننا على الدوام لانقضوا علينا على حين غرة.. كما أن تلك هي ابنة أحد أكبر المعالجين في الوحدة المركزية للتمريض، وأبوها رجل خبيث علينا الحذر منه

زفرت الفتاة بضجر؛ فهي لم تحب العامة ولا احتفالاتهم التي تراها دون المستوى، لكنها لم تكن تستطيع رفض أوامر أمها بالتجهز والذهاب معها..

دخلت المرأة وابنتها لتتجه أنظار بعض النسوة إليهما وقد تعرفن على زوجة رئيس العساسين، وقامت والدة العروس لترحب بها فمدت يدها لتسلم عليها المرأة بأطراف أصابعها المزينة بالخواتم ذات الأحجار الكريمة، والتي لفتت أنظار النساء إضافة إلى الحلي التي تزين جيدها وأذنيها، ولم تكن جميعها بأقل قيمة من تلك الخواتم..

سرت بعض الهمسات بين الحاضرات عما يرين من زينة مبهرة، بينما تقدمت المرأة تبارك للعروس التي وقفت رهبة وهي تشكرها على حضورها لعرسها..

ثم التفتت المرأة إلى الطاولة الصغيرة الموضوعة بجوار العروس وعليها سلة من الخوص الملون وقد زُينت بالورود، ثم وضعت فيها هديتها والتي كانت بعض الحلي الذهبية كما تقتضي أعرافهم.. ولكنها زادت على الأعراف بوضع صرة حريرية منتفخة ومغلقة بإحكام، وتوقع الجميع أنها تحوي نقودا؛ فكادت عينا والدة العروس تخرجان من محجريهما لهفة لمعرفة كمّ المال الذي وضعته..

تبادلت زهرة وهند نظرات ذات مغزى وعلى شفتي كل منهما ابتسامة ساخرة..

- إنها تشتري ولاءهم بالمال

همست بها هند لزهرة التي أومأت برأسها موافقة، ولحسن حظهما لم تسمعها أمها التي كانت تجلس ملاصقة لها..

- هل تذكرين ذلك الغريق الذي أتى ميتا إلى الوحدة قبل خمسة أشهر؟

همست زهرة لهند بدورها فتبدلت ملامح الأخيرة ليكسو وجهها الضيق، فكيف لها أن تنسى؟!

- إنه ابن عم زوجها..

وتابعت مفسرة:

- عرفت ذلك من ثرثرة المتدربين عندنا في قسم الجراحات

زفرت هند مفرغة جزءا من شحنة الضيق تلك وقالت:

- ليته كان زوجها

كتمت زهرة ضحكة ثم أشارت لها بعينيها كي لا ينتبه أحد إلى حديثهما..

في الصباح كانت هند تتثاءب معظم الوقت؛ فقد سهرت لوقت متأخر بسبب ذلك العرس..

- هل كنت في العرس أنت أيضا؟

نطق الجملة شاب طويل بعد أن دخل الحجرة وحيا الشابين المنشغلين في بعض الأعمال، فقالت هند بملل:

- وهل يمكنني الاعتراض!

وتابعت عملها بترتيب بعض العلب في أحد الأرفف الخشبية التي تملأ المكان، فاقترب منها الشاب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة وقال بصوت خافت كي لا يسمعه بقية زملائهما في المكان:

- ماذا أعطت جميلة للعروس؟

رفعت هند رأسها إليه وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مماثلة وقالت بهمس:

- وماذا تتوقع من امرأة مثلها لابنة رجل مثل شاهر؟ لقد أطعمت بطونهم بالذهب والمال

عدل الشاب وضع عمامته البيضاء فوق رأسه وقال:

- أطعمهم الله بدلا منها نارا

ضحكت هند بصوت خافت ثم تابعت عملها بينما اتجه هو لإحدى الخزانات وأخرج منها علبا عليها عناوين مختلفة..

- تيم.. هل رأيت صندوق الزعتر الذي أتى بالأمس؟

قالها أحد زملائه فرفع تيم رأسه لأحد الأرفف العلوية ثم أشار إليه وهو يقول:

- هل تقصد هذا؟

وأحضر السلم الخشبي ليصعد عليه ويحضر الصندوق قبل أن يقول:

- طلبنا منهم أربعة صناديق فلم يحضروا لنا إلا هذا، كما طلبنا شحنة من النعناع البري وزيت الزيتون ولم يحضروا أيا منهما أيضا

هزت هند رأسها بضيق وعقبت:

- ويتعجبون للمشكلات التي يحدثها المرضى معنا

ولم يمض الكثير من الوقت حتى دخل أحد المرضى إلى الحجرة ليعطي هند ورقة صغيرة عليها ختم الوحدة وقد كُتب عليها اسم أحد العقاقير..

- المعذرة يا سيدي فهذا العقار غير متوفر

قال الرجل بضيق:

- لقد كتبه لي أحد معالجي الوحدة ولن يصف عقارا غير موجود

تنفست هند بعمق لعلمها بالمشادة التي ستحدث بعد لحظات ثم قالت:

- معالجو الوحدة لا علاقة لهم بقسم العقاقير، ولا يعرفون إن كان العقار متوفرا أو لا.

ضرب الرجل الطاولة العريضة التي تفصله عن هند بقوة، لتنتفض الأخيرة فزعا بينما هو يقول:

- أنت تكذبين.. لا بد أنك تسرقين العقاقير لبيعها بضعف ثمنها للمحتكرين الذين سيبيعونه لنا بأسعار مضاعفة

تحفز الشابان بينما تحرك تيم من خلف الطاولة واقترب من الرجل وهند تقول بغضب:

- لن أسمح لك باتهامي بالسرقة دون بينة.. العقار غير موجود بالقسم وبإمكانك العودة لمعالجك ليصف لك شيئا آخر

وقبل أن يتخذ الرجل أي ردة فعل أمسك تيم بمعصمه ونظر له بغضب لإخافته مستغلا فارق الحجم بينه وبين الرجل وقال:

- إياك أن تفعل ما ستندم عليه بالتأكيد.. لقد أخبرتك أن العقار غير موجود فعد إلى معالجك أو اذهب لأي دكان عقاقير خارج الوحدة

تمتم الرجل بكلمات غاضبة بعد أن انتزع معصمه من قبضة تيم وقال وهو يتجه للباب:

- سأشكوكم أيها المحتالون

زفر تيم بضيق ثم عاد لمكانه بينما جلست هند على مقعدها وهي تزفر بدورها.. لا يمكن أن يمر يوم دون مشكلة من المرضى أو المعالجين..

– تبا لهم جميعا

قالتها هند ثم قامت لتكمل ما كانت تفعل قبل قدوم الرجل..

لقد ظنت أنها ستِرتاح من عناء العمل في قسم الجراحات، فأرسلت طلبا لرئيس الوحدة لينقلها إلى قسم العقاقير، وهو ما وبختها عليه زهرة عندما علمت بما فعلت رغم تحذيراتها لها؛ فالعمل مع الجمهور والاحتكاك المباشر بهم ليس أفضل من نوبات المبيت في الوحدة..

تنهدت بأسى ثم قالت وقد تذكرت شيئا:

– شكرا لك يا تيم

– على الرحب والسعة

قالها تيم وهو ينظر إليها نظرات إعجاب لم ترها لأنها كانت توليه ظهرها.. ولن يجعلها تراها أو تشعر بإعجابه ذاك فلا جدوى من محاولة استمالتها فالقانون يطبق على الكل.. هند ليست له، بل لرجل آخر حسب الترتيب في شجرة العائلة، وهو أيضا سيتزوج من امرأة أخرى طبقا لذات الترتيب المجحف..

غزا الضيق والهم قلبه.. يريد أن يصرخ ليعلم الجميع كمّ الآلام التي يشعر بها لوأده مشاعر نبتت دون إرادته..

– تبا لهم جميعا!

قالها هو الآخر لكنها لم تتجاوز شفتيه..

في ديوان الحكمة كانت الحركة رتيبة كالعادة.. وفي مكتب الجنائيات بالطابق الثاني حيث قسم القانون كان الكَتَبة يتحدثون ويمزحون حتى دخل ذلك الشاب فتهامست بعض الفتيات الجالسات وهن ينظرن إليه بإعجاب..

- لم نرك بالأمس في عرس ابنة شاهر يا هارون.

قالها أحد الشباب الجالسين خلف المكاتب الخشبية التي تملأ القسم، فرد عليه هارون بلا مبالاة:

- لا أهتم لاحتفالات العامة..

وتابع وهو يفتح أحد أدراج مكتبه ويخرج ملفا ضخما:

- هل حدث شيء ما؟

قال الشاب بطريقته المثيرة للفضول كعادته:

- خمن من الذي أتى إلى العرس

نظر إليه هارون بضجر وقال:

- لا بد أنه أحد العساسين؛ فهم لن يتركوا تجمعا يخص شخصا في مكانة شاهر إلا ويذهبون إليه لشراء ولائه

ظهرت الخيبة على وجه الشاب مما أثار ضحك بقية من في المكان، ثم قالت إحداهن:

- لا تحاول التذاكي على هارون يا حمزة

زفر حمزة ثم دفن رأسه في الأوراق التي أمامه.. وعاد بعض الشباب للحديث.. ولما تأكدت الفتاة الجالسة بجوار هارون من انشغال كل منهم في أمر ما، مالت على هارون وقالت بصوت هامس:

- إنهم يحضرون لصياغة بضعة قوانين جديدة..

التفت هارون إليها لتواصل بذات الهمس:

- لا بد أن تلك القوانين تخص عائلة التجار؛ فقد رأيت أحد المسؤولين من ديوان الحسبة هنا قبل أيام

أثارت كلماتها انتباهه فقال باهتمام:

- وهل عرفت شيئا عنها؟

- الأخبار غير مؤكدة، لكن ما سمعته أنهم سيفرضون ضرائب جديدة على بعض المنتجات الزراعية

ارتفع حاجبا هارون دهشة وقال:

- هذا جنون، ستزيد أسعار تلك المنتجات وقد يثير هذا غضب البعض

نظرت إليه الفتاة بتعجب وقالت:

- وما شأننا؟ فليغضبوا ويفعلوا ما يشاؤون.. فذلك سيصب في مصلحتنا نحن.. ستزداد أجورنا.. كما أننا لا نشتري بضاعتنا بذات الأسعار التي يدفعها العامة من الصيادين والمعالجين

وأنهت جملتها لترتسم ابتسامة ماكرة على وجه هارون وهو يقول:

– إن كان ذلك في مصلحتنا فلا بأس.. وليعجلوا بالقرار فقد قارب راتبي على النفاد

ضحكت الفتاة بصوت مكتوم ثم قالت:

– وسمعت أيضا أنهم سيمنعون إنجاب أكثر من طفلين بدلا من ثلاثة في القانون القديم..

تبدلت ملامح هارون لكن الفتاة استطردت بابتسامة ماكرة بدورها:

– هذا لا ينطبق علينا نحن أو العساسين أو المحاربين بالطبع

عادت الابتسامة إلى وجهه ثم أشار لها لتتابع عملها كي لا ينتبه أحد لتهامسهما..

بعد الظهيرة عاد هارون إلى بيته ليجد أحد أصدقائه في انتظاره خارج البيت.. فابتسم بحبور وقال:

– مريد.. أين كنت يا رجل؟

واحتضنه وهو يرحب به ثم يدخله إلى البيت بينما مريد يقول:

– وصلت لتوي بعد زيارة عمل لوحدة تمريض على أطراف المدينة..

وتابع وهو يجلس على إحدى الأرائك المغطاة بقماش أحمر مزخرف:

– وفور أن عدت أتيت إليك لرؤيتك

جلس هارون بدوره ليغوص في مقعده الوثير ويقول وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:

– ما المصلحة التي تريد مني أن أقضيها لك أيها المخادع

ضحك مريد ثم قال بصدق:

– هذه المرة لا توجد مصلحة.. بل شيئا هاما يخصنا نحن

وتلفت حوله ليقول هارون:

– لا تقلق.. أمي في السوق في هذا الوقت

اعتدل مريد في جلسته وقال:

– هناك اجتماع سيتم مساء الغد في بيتي، وسيضم أبناء العشرة الذين ذهبوا للجزيرة قبل أشهر

سرت قشعريرة باردة على طول العمود الفقري لهارون الذي قال متسائلا:

– لماذا؟

– لأنهم مفقودون حتى الآن ولا ندري إن كانوا أحياء أم أمواتا..

واستطرد قائلا:

– كما أننا لا نعرف إلام وصلوا في بحثهم عن سبب تلك الغارات.

عقد هارون حاجبيه وقال:

– لم أفهم!

اقترب منه مريد حتى أنه جلس على طرف الأريكة وقال:

– سنذهب إلى هناك بأنفسنا لنعرف حقيقة ما جرى

بدت الصدمة على وجه هارون وخيم الصمت عليهما قبل أن يقطعه وهو يقول ببطء:

– لكن ديوان الوزراء يصدر الكثير من التحذيرات لكل سكان المدينة بخطورة الإبحار لمسافة أكبر من المسموح بها للصيادين.. فما بالك بمن يجازف ويتخطى تلك المسافة ويذهب للخطر بإرادته؟ وما فعله آباؤنا..

قاطعه مريد بحنق:

– ولماذا يصدرون تلك القرارات بدلا من التعامل مع الغارات السنوية التي تصيبنا من تلك الجزيرة اللعينة؟ لماذا لم يفكروا في تأمين المدينة؟ لماذا لم يفكروا حل؟ ألهذا الحد شلّهم الخوف؟ إن كانوا يخافون فقد ذهب الذين لا يخافون واختفوا ولم يكلف أحدهم نفسه عناء البحث عنهم.. بل أصدروا أمرا بعدم الحديث عن الأمر برمته وتهديد من يفتح فمه بكلمة عنه أن يلقى به في السجن

قال هارون محاولا تهدئة غضب صديقه:

– أنا لا أدافع عن ديوان الوزراء لكن تلك الغارات القادمة من المجهول لا يدري أحد حتى الآن كيف تقتل ضحاياها كل عام.. فكيف تريد من المسؤولين أن يؤمنوا المدينة؟ كيف سيتعاملون مع عدو مجهول خاصة وأن من رأوها يعدون على أصابع اليدين؟

أخذ مريد نفسا عميقا ثم تراجع في جلسته وقال:

– لهذا سيقام ذلك الاجتماع غدا

خيم عليهما الصمت وهارون يفكر في الأمر.. عودة العساس هزيم دون البقية أصاب أمه في مقتل.. ورغم مرور خمسة أشهر إلا أنها لا زال لديها بعض الأمل في عودة زوجها..

شعر بغصة تخنقه وصوت أمه الباكي الذي سمعه عدة مرات من خلف باب غرفتها كان يتردد في عقله.. فرجحت كفة موافقته على الرحلة لعله إن عاد بأبيه أن يعيد معه السرور إلى بيتهم.. لكنه خائف.. فما من أحد يدري ما الذي ينتظرهم هناك..

– كما تريد يا صديقي..

قطع حبل أفكاره صوت مريد ليتابع وهو ينهض من مكانه بعد أن ملّ من صمت صديقه:

– على كلٍ سيكون أبناء أولئك الرجال عندي في الغد..

كاد هارون أن يخبره بموافقته إلا أن مريد استطرد قائلا:

- نسيت أن أخبرك.. هناك فتاتان ستحضران الاجتماع.. حقا أنا أحسدهما على شجاعتهما

وغادر.. لكنه قبل أن يغلق باب البيت صاح فيه هارون قائلا:

- مهلا..

ارتسمت على وجه مريد ابتسامة فقد نجح في استفزاز صديقه.. فالتفت إليه ليتابع هارون محاولا إخفاء غيظه من أسلوب مريد في إقناعه:

- في أي وقت سيكون الاجتماع؟!

بعد العصر خرجت هند من قسم العقاقير بعد أن استلم زملاء آخرون النوبة المسائية.. وقبل أن تخرج من باب الوحدة سمعت من تناديها فالتفتت لترتسم على وجهها ابتسامة..

- مريم.. كيف حالك؟

عانقتها مريم في حرارة وقالت:

- بخير.. نفتقدك كثيرا في قسم الجراحات

بدا الأسى على وجه هند وهي تقول:

– ليتني استمعت لزهرة

ضحكت مريم ثم قالت:

– لن يفيد الندم في شيء؛ ففي النهاية كل قسم له مساوئه..

أومأت هند برأسها توافقها لتتابع الفتاة وهما تخرجان معا إلى الشارع:

– سأذهب إلى السوق لأبتاع بعض الحاجيات لأمي، هل تأتين معي؟

– لا بأس، فأنا أيضا أريد شراء زيت للقناديل كنت قد أجلته ليومين

مشت الفتاتان معا وهما تثرثران حتى وصلتا إلى السوق، وبعد مجادلات مع البائعين بسبب غلاء بعض البضاعة، خرجتا من السوق وقد اشترتا ما تحتاجان إليه..

– هند.. هناك أمر هام أريد أن أخبرك به

نظرت هند لرفيقتها وقالت:

– خيرا؟

تلفتت مريم حولها للتأكد من أنهما بعيدتان عن أسماع الناس كفاية ثم قالت:

– هناك اجتماع في الغد لأبناء العشرة الذي ذهبوا للجزيرة قبل أشهر

توقفت هند عن السير وقد أصابتها رجفة قوية ثم قالت:

- لماذا؟

دفعتها مريم بلطف لتعاودا السير وهي تقول:

- آباؤكم في عداد المفقودين منذ خمسة أشهر.. والسلطات منعت الحديث عنهم بأي شكل كان.. كما أن حقيقة تلك الغارات لم تكتشف بعد..

فكرت هند في أن كلام صديقتها صحيح.. ونبت بداخلها أمل أن يعود أبوها مجددا بعد أن ظنت أنها فقدته للأبد..

- لهذا فكر مريد في هذا الاجتماع، وعليه قد يتم الاتفاق على الذهاب إلى هناك لمعرفة الحقيقة

انتبهت هند من شرودها على صوت مريم ثم قالت:

- مريد هو صاحب الفكرة؟

تساءلت هند وقد عرفت ذلك الشاب الذي يعمل في قسم الشؤون القانونية في الوحدة، فاستدركت بسرعة:

- كيف تثقين بواحد من الحكماء يا مريم؟

احمرت وجنتا مريم وهي تقول بخفوت:

- أنت تعلمين أن مريد ليس مثلهم

تنهدت هند ثم ساد الصمت بينهما حتى اقتربتا من بيت تلك الأخيرة فقالت مريم:

– هند.. أنا لست ساذجة لأسلم قلبي لأي أحد.. والد مريد لم يكن محبوبا بين الحكماء لأنه رجل نظيف اليد وكذلك ابنه

لم ترد هند بل طالعت صديقتها بنظرات أسى.. فرغم أنها تعاملت مع مريد ولمست بنفسها حسن أخلاقه.. إلا أنه لن يشفع لمريم في العائلة إن هي أبدت رغبتها في الزواج منه..

تنهيدة أخرى تحمل الكثير من الألم قالت بعدها هند:

– لا بأس.. سأذهب..

ثم عقبت:

– لكني لا أعرف المكان ولا أعرف كيف سأبرر غيابي في المساء لأمي

قالت مريم:

– أنا أعرف المكان وسأنتظرك عند بيتي في الموعد.. أما أمك فأخبريها أن هناك صديقة مريضة تحتاج لدواء عاجل

رفعت هند أحد حاجبيها استنكارا وهي تقول:

– ومن هي تلك المريضة؟

– إنها أنا

قالتها مريم بابتسامة عريضة، أتبعتها بغمزة من عينها لتبتسم هند رغم كل شيء..

الاجتماع

في الصباح كانت زهرة تخرج من الوحدة فالتقت هند قرب البوابة.. سلمت عليها وهي تتثاءب ثم قالت:

– لا تسألي عني حتى الغد.. سأنام لمدة شهر

ضحكت هند وقالت:

– لا بأس.. اذهبي وارتاحي..

وترددت قليلا قبل أن تقول:

– لكني أريد إخبارك بشيء

وجذبت صديقتها بعيدا عن الزحام ثم أخبرتها بما دار بينها وبين مريم بالأمس، ليطير النعاس من عيني زهرة اللتين اتسعتا على آخرهما، ثم قالت بغضب مكتوم:

– هل جننتِ؟ حتى لو كان مريد رجلا صالحا فنحن لن نأمن لمن سيحضرون.. ولو أمنا جانبهم فلن أدعك تلقين نفسك في المهالك لأجل لا شيء

نظرت لها هند مليا ثم قالت:

- اللا شيء هذا يهدد حياة مئات الآلاف من سكان المدينة كل حين.. كما أن أبي مفقود في سبيل وقف تلك الغارات فلم لا أبحث عنه وأكمل ما بدأ؟

أمسكت زهرة بذراع هند وهي تقول:

- وما الذي بدأه؟ ماذا فعل؟ لم يخبرك أنت ولا أمك أي شيء.. فقط ترك رسالة خط عليها بضع كلمات لا تسمن ولا تغني من جوع عن إنقاذ المدينة، وترك القلق يأكلكم لأيام حتى ظهر ذلك العساس الغريق ليتضاعف قلقكم لعدم معرفة مصيره ..

وتابعت وهي تعتصر ذراع صديقتها بقسوة:

- لن أتركك تفعلين ذلك

أبعدت هند كف صديقتها التي آلمتها عن ذراعها وقالت:

- أنا لم أذهب للاجتماع بعد، ولا أعرف ما الذي ستنتهي إليه الأمور..

كادت زهرة أن ترد إلا أن هند ربتت على كتفها قائلة:

- اذهبي الآن لترتاحي وغدا نتحدث

وقطعت عليها السبيل للجدال بأن تركتها ملوحة لها بكفها واتجهت إلى قسم العقاقير، بينما ظلت زهرة في مكانها لبعض الوقت لكنها غادرت في النهاية وقد تملكها الحنق من صديقتها المتهورة..

وفي المساء نفذت هند خطة مريم.. فحملت حقيبة عقاقيرها وخرجت بعد أن أخبرت أمها بمرض مريم، ثم اتجهت لبيت تلك الأخيرة والتي كانت تنتظرها في مكان خفي بعد أن تسللت من بيتها..

وعندما وصلت هند لم تجد مريم وحدها، بل كانت هناك زهرة أيضا؛ فقد توقعت تلك الأخيرة أنها ستلتقي بمريم أولا فاتجهت بدورها إلى هناك لتلتقي الفتيات الثلاث في أحد الأزقة المظلمة..

- ما الذي أتى بك يا زهرة؟ ألم تقولي أنك ستنامين لشهر كامل؟!

سألتها هند بسخرية لعلمها أنها ستحاول عرقلتها فقالت زهرة:

- جئت لأعيد إليك صوابك..

وأشارت إلى مريم معقبة:

- ولألقن هذه الحمقاء درسا

كادت مريم ترد لولا أن هند قالت بحسم:

- سأذهب إلى الاجتماع يا زهرة وسأخبرك بنتيجته في الغد..

وتابعت وهي تشير لمريم:

– هيا بنا

تخصرت زهرة لكنها لم تقل شيئا.. بل راحت تتابع الفتاتين بعينين قلقتين.. ولولا خوفها من انكشاف اختفائها من بيتها للحقت بهما؛ فعادت أدراجها والقلق يأكلها..

– هل يعلم أهلك أنك خارج البيت؟

تساءلت هند فهزت مريم رأسها نفيا وهي تقول:

– تسللت خفية وسأعود فور أن أوصلك

أومأت هند برأسها وقلبها يتقافز وجلا.. تلوم نفسها على موافقتها للذهاب، لكنها في حاجة لمعرفة الكثير.. فهل أبوها لا زال على قيد الحياة أم أنه لقي نفس مصير العساس؟ وما الرابط الذي جمع أولئك العشرة؟ ومن صاحب فكرة ذهابهم؟ أوقفت سيل تفكيرها مطمئنة نفسها أن هذا الاجتماع سيجيب عن بعض أسئلتها..

طوال الطريق لم تتبادل مع مريم كلمة واحدة؛ فقد كانتا تمشيان بحذر رغم خلو الشوارع من المارة في هذا الوقت من الليل، لكن أي همس قد يُسمع وينكشف أمرهما..

– هذا هو المكان

همست بها مريم مخرجة هند من شرودها، فودعتها الأخيرة ثم اقتربت من البيت..

كان بيتا من طابقين كمعظم بيوت سكان المدينة.. لكنه كان بسيطا بلا نقوش أو زخارف على واجهته كبيوت الحكماء أو حتى لافتة معدنية مصقولة باسم صاحبه ويسبقها العديد من الكُنى والألقاب.. بل لوح خشبي صغير لكنه أنيق تم حفر اسم والد مريد عليه بالخط الديواني رأته على ضوء المصباح الزيتي الصغير المعلق فوق اللوح..

وبعدما رأت اسم والده تذكرت أنه واحد ممن يريدون البحث عنه فتسارعت ضربات قلبها.. ماذا لو كان هناك فخ ما؟ ماذا لو كانت زهرة محقة فيما قالته في الصباح عن أنهم ليسوا مأمونين؟ ماذا لو..

هزت رأسها نافضة عنها تلك المخاوف ثم حسمت أمرها وطرقت الباب..

التفتت خلفها لترى مريم تمشي مبتعدة عن المكان وهي تتلفت حولها كل حين، فعادت لتنظر للباب الذي لم يفتحه أحد ليزداد قلقها أكثر فأكثر.. لكن الباب فتح فجأة لتنتفض في مكانها، ثم رأت وجها ما يبرز من فتحة الباب لتعرف فيه مريد الذي ابتسم بود وقال هامسا:

- أهلا يا هند..

وأفسح لها المكان لتدخل وهي تقدم قدما وتؤخر الأخرى..

- لم نبدأ الاجتماع بعد فهناك اثنان لم يحضرا حتى الآن

التفتت إليه وردت بابتسامة متوترة فأشار إليها لتصعد خلفه على الدرج الداخلي للبيت.. ورغم الإضاءة الخافتة التي لا تدري من أين تأتي، إلا أنها استطاعت أن ترى بعض تفاصيل البيت والتي خالفت توقعاتها تماما؛ فقد كان بيته بسيطا جدا لا تبدو عليه الأبهة أو البهرجة التي تعج بها بيوت غيره من عائلة الحكماء..

وصلا إلى الطابق العلوي ثم اتجها إلى إحدى الغرف وفتح بابها فأغمضت عينيها بسرعة عندما غمر الضوء المفاجئ وجهها، ثم فتحتهما ليقول مريد:

- تفضلي..

دخلت للغرفة لتجد خمسة شباب وفتاة وقد اتجهت رؤوسهم إليها..

- هذه هند.. زميلتي في وحدة التمريض..

قدمها مريد إليهم ثم قال موجها حديثه لها:

- ادخلي وسأعود بعد قليل

أومأت برأسها ثم دخلت ليخرج هو ويغلق الباب خلفه..

جالت ببصرها في المكان لتجد اثنين من الشباب وقد عادا للانخراط في حديث ما، بينما ينظر إليها البقية فازداد توترها.. لكنها تقدمت وجلست على

أحد المقاعد لتجده قاسيا بعض الشيء وليس مريحا كما كانت تظن.. ولتهرب من الأعين التي تدقق فيها قامت من مكانها محاولة الانشغال بتأمل محتويات الغرفة..

كان الأثاث مشابها بعض الشيء لأثاث بيتها في قلة جودته.. لكن الحجرة كانت أنيقة ونظيفة وتنبعث من مكان ما رائحة لبخور العود.. فأخذت نفسا عميقا تملأ رئتيها من ذلك الطيب الذي تعشقه.. ثم التفتت لتتأمل الجالسين والذين كانوا قد صرفوا أبصارهم عنها أخيرا..

تعرفت على عائلاتهم على الفور من ألوان عمائمهم.. فذو العمامة البنية من عائلة التجار، والشاب الذي يجلس قُبالته ويتحدث معه هو ابن أحد العساسين بعمامته السوداء وملابسه السوداء أيضا..

أما الشابان اللذان يجلسان بالقرب من النافذة فأحدهما من التجار أيضا والآخر له عمامة كعمامة مريد عسلية اللون.. وفي أحد أركان الغرفة كان يجلس شاب يتصفح كتابا وجده على المنضدة المجاورة، عرفت أنه من الصيادين للون عمامته الزرقاء.. وأخيرا الفتاة الوحيدة غيرها التي تجلس معهم، وشت عمامتها الخضراء أنها من المزارعين..

- أرجو أن يكون عمي قد لقنكم درسا قاسيا على إهمالكم وتسببكم بموت أبي

انتبهت هند لصاحب العمامة السوداء والذي استنتجت أنه ابن ذلك الغريق.. فردت بضيق وقد اتجهت الأنظار إليهما:

– أبوك جاء للوحدة وقد فارق الحياة؛ فلا تلقِ التهم جزافا

نهض الشاب من على كرسيه لكنه دخول مريد قطع شجارهما المتوقع.. كان معه شابان آخران، أحدهما مثله من الحكماء والآخر من المزارعين، والذي أشار للفتاة الأخرى مبتسما عندما رآها..

– الآن وقد اكتمل عددنا سأقوم بتعريف بعضكم لبعض وإن كان هناك من يعرفون بعضهم بالفعل

عاد العساس للجلوس وهو يرمق هند بنظرات احتقار، بينما مريد يتحدث مبتدئا بأصحاب العمامات ذات اللون العسلي معرفا نفسه ثم هارون الذي قدم معه وثالثهما الذي يدعى تمّام وهو من كان يجلس مع التاجر بالقرب من النافذة.. أما العساس فكان اسمه رعد، والتاجران زيد وملّاح، ثم المزارعان سراج وفجر، وأخيرا غسان الصياد وهند..

ثم دعا الجميع للجلوس بعد أن جذب مقعدا وجعله في مواجهتهم ليجلس بدوره ويقول:

– لا بد أنكم تعرفون سبب اجتماعنا الليلة.. فقبل أشهر خرج آباؤنا لمحاولة إيجاد حل للغارات التي تهاجمنا كل حين.. لكنهم للأسف لم يعودوا

حتى الآن ما عدا هزيم والد رعد.. لكن قدر الله أن يتوفى قبل أن يخبرنا بأي شيء..

وسكت قليلا ثم تابع:

- لهذا سنذهب للبحث عنهم وسنتعاون جميعا لإكمال المهمة التي اجتمعوا لأجلها

قالت هند بعد أن أثارت كلماته انتباهها:

- لكننا حتى الآن لا نعرف كيف اجتمعوا وهم من عائلات مختلفة وبعضهم لا يكاد يعرف الآخر بسبب اختلاف مهنهم بطبيعة الحال

نظر إليها مريد وقال:

- لكن كان هناك أفراد يعرفون آخرين في المجموعة مثل أبي وأبيك

ارتفع حاجباها دهشة وقالت:

- أبي كان يعرف أباك؟!

قبل أن يرد مريد قال هارون ساخرا:

- ألا تعرفين معارف أبيك يا فتاة؟ لماذا جئت إذن؟

ضحك البعض بصوت منخفض بينما تجهمت هند وهي تقول:

- لنفس السبب الذي جئت أنت من أجله

كان الضيق قد بدا على وجه مريد وهو ينظر إلى هارون نظرة ذات مغزى ففهم ذلك الأخير وسكت على مضض، فتنحنح مريد وقال:

- أبي وأبوك كانا يعرفان بعضهما البعض يا هند، وبالطبع أبي كان يعرف والدي هارون وتمام، ووالدا رعد وزيد كانا يعرفان بعضهما، وهكذا كل منهم يعرف فردا مختلفا فتكونت المجموعة.. وكل منكم بالطبع عرف ما حدث بعد ذلك بعد أن قرأ الرسالة التي تركها كل منهم لأهله

- ومن كان صاحب الفكرة؟

قالتها هند لينظر الجميع إلى بعضهم البعض ثم يقول مريد وهو يهز رأسه:

- حتى الآن لا نعرف..

وأخذ نفسا عميقا وهو يتابع:

- على كلٍ.. من يريد منكم الانضمام للمجموعة فليعلن عن ذلك الآن، ومن لا يريد فلن يجبره أحد لكن عليه ألا يفشي سرنا

- أنا لست موافقا

التفت الجميع إلى زيد الذي وقف وبجواره لماح ليقول الأخير:

- أنا أيضا لن أذهب

نظر إليهما مريد باستفهام فقال زيد:

– لا أحد منا يعلم إن كان آباؤنا أحياء أم أمواتا.. وإن كانوا قد ألقوا بأنفسهم في ذلك المكان فلست مستعدا أن أذهب بلا رجعة لتتضاعف فاجعة أمي

ساد الصمت عليهم قبل أن يقول مريد بهدوء:

– لا بأس.. لكما ما أردتما.. لكن..

قاطعه رعد بحنق:

– إياكما أن يفتح أحدكما فاهُ بكلمة، فكل منكم قد يكون أبوه حيا ولديه أمل بالعثور عليه.. أما أنا فأريد معرفة سبب وفاة أبي، وإن علم أحد بما نخطط له قد يوقفنا ولن أصل لشيء

قال مريد بضيق:

– لا بأس يا رعد.. جميعنا نتفهم موقفك فلا داعي لأسلوب التهديد.. هما لن يتكلما وانتهى الأمر.. أليس كذلك؟

وقال جملته الأخيرة وهو يقلب بصره في الرافضين ليومئا برأسيهما علامة على الموافقة، ثم استأذنا للمغادرة..

وبعد أن أغلقا الباب خلفهما التفت مريد إلى السبعة الباقين وقال:

– هل يريد أي منكم التراجع؟

لم يرد أحدهم فقالت هند:

- ألن يؤثر غيابهما على المهمة؟

قبل أن يرد مريد قال هارون بضيق:

- مهلا.. لماذا علينا اصطحاب فتاة معنا؟ ها قد بدأت بالخوف قبل أن نتحرك.. نحن لن نقضي الوقت في منعها من الصراخ وتهدئة خوفها

شعرت الفتاتان بالغيظ لكن هند كانت أسرعهما في الرد فقالت:

- وما شأنك أنت؟ اهتم لأمورك وأرجو ألا تبدأ أنت بالصراخ خوفا

احمر وجهه لكنه رد عليها بابتسامة مستفزة:

- ومن قال أنني أوجه كلامي إليك؟ أنا أتحدث عن فجر.. أما أنت فالفارق بيني وبينك هو لحية وشارب

انفجر رعد ضاحكا تبعه تمام ليصيح فيهما مريد بحزم:

- اهدؤوا! نحن لم نجتمع للشجار.. ولا نريد إضاعة الوقت في كلام فارغ..

وتابع بعد أن صمت الجميع:

- الخطوة التالية هي تقسيم المهام علينا..

وأشار لسراج وفجر قائلا:

– أنتما الاثنان ستتوليان مسؤولية التجهيز لما سنحتاجه من طعام وأدوات للمبيت.. نحن لا نعلم إن كانت هناك آبار مياه صالحة للشرب أم لا، ولا ما هية الطعام الموجود هناك والذي اقتاته آباؤنا طيلة الأيام التي قضوها هناك..

ثم أشار لهند متابعا:

– وأنت بالطبع عليك مسؤولية كبيرة فأنت المعالجة الوحيدة هنا.. مهمتك هي إحضار كل ما قد نحتاجه من أدوية وأدوات تمريض وإسعاف

قالت هند بدهشة:

– وكيف سأحصل عليها؟ نحن سنحتاج لكميات كبيرة ومواد مختلفة لا تُباع للجمهور

قال مريد بابتسامة ذات مغزى:

– لا تقلقي.. اكتبي لي ما تحتاجينه بالكميات المطلوبة وسأتدبر أمره..

لم تدر هند أتحزن لاستغلاله رتبة عائلته أم تسعد لأن هذه الرتبة ستفيدهم؟! لكنها أخذت نفسا عميقا وطردت عنها تلك الأفكار بينما مريد يتابع:

– اكتبوا لي كل ما تريدون وأرسلوه لي كي أدبره لكم بمساعدة هارون ورعد وتمام.. وعندما نحضره سأخبركم بموعد التحرك..

سكت قليلا ثم أشار لقريبيه من الحكماء ولرعد قائلا:

- أما نحن الأربعة فمهمتنا هي الحماية والتسليح.. وبالنسبة لغسان فـ..

قاطعه غسان فجأة:

- لن أعطيكم القارب الآخر لأبي؛ فوالدتي وأخواي يتكسبان منه الآن..

وتابع وهو يرمق الباقين بحقد:

- ولن أسمح لأحد أن يجبرني على ذلك.. يكفي أن آباءكم قد استغلوا أننا الأقل رتبة في المدينة وأجبروا أبي على تلك المغامرة التي لا ناقة له فيها ولا جمل، لمجرد أنه الوحيد الذي يستطيع خوض البحر

توتر الجو وكاد رعد يرد لكن مريد رفع كفه وقال محاولا احتواء الموقف:

- من أين أتيت بهذا الكلام يا غسان.. لا أظن أن أحدا قد أجبر أباك على شيء..

وتابع بسرعة قبل أن يقاطعه غسان:

- ولن يجبرك أي منا على إحضار قاربكم الآخر.. كما أن لك مطلق الحرية في عدم المجيء معنا كما فعل زيد ولماح.. لكن يمكنك مشكورا إرشادنا لمن يمكن أن يعيرنا قاربه، وهذا ما كنت سأطلبه منك في البداية..

شعر غسان بالحرج فألان له مريد الحديث أكثر قائلا:

– أنت أكثرنا أهمية يا غسان.. فلو أنك غير موجود لن نتمكن من استعارة قارب.. فمن من الصيادين قد يثق بأحد الحكماء أو العساسين؟

نظر له هارون وتمام ورعد بضيق ليقول الأخير:

– ما هذا الهراء؟ يجب أن يثقوا فينا سواء رضوا أو لم يرضوا؛ فنحن الذين نحميهم، ولولانا لقتل بعضهم بعضا بسبب همجيـ..

قاطعه مريد بنظرة حادة:

– انتبه لما تقول يا رعد.. فوجودك ضيفا في بيتي لن يشفع عندي إهانتك لأي شخص فيه.. كما أن ما أقوله واقع فلا تصم أذنيك عن الحقيقة..

سكت رعد على مضض فتابع مريد موجها كلامه لغسان:

– إن كنت تعرف شخصا أمينا فدلنا عليه، وأكرر أنني لن أجبرك على المجيء معنا

قال غسان بسرعة وقد استعاد نبرته العدائية مجددا:

– بل سآتي معكم فحاجتنا لأبي أكبر من حاجتكم لآبائكم..

زفر مريد بقلة حيلة بينما غسان يتابع:

– وأعرف رجلا يمكنه إعارتنا قاربه.. إنه صديق والدي..

وسكت لثانية ثم قال:

- لكنه لن يفعل إلا إن علم السبب أولا

أومأ مريد برأسه وقال:

- لا بأس.. سنخبره طالما أنك تثق به

اعترض رعد ببعض الكلمات الغاضبة لكن مريد أنهى الجدل قائلا:

- بإمكانك التراجع والعدول عن الذهاب معنا يا رعد، أو أن تجد لنا بديلا للقارب الذي سيوصلنا إلى هناك بدلا من الاعتراض..

لزم رعد الصمت بعد أن أُسقط في يده، لكنه توعد غسان سرا بينما مريد يتابع موجها كلامه للجميع:

- جيد.. هكذا عرف كل منا مهمته.. سأنتظر طلباتكم أنتم الثلاثة فلا تنسوا.. هل من أسئلة؟

هز الجميع رؤوسهم نفيا ثم نهضوا من أماكنهم بينما بقي هارون ورعد وتمام.. وخرجت هند أخيرا من البيت لتنطلق بسرعة إلى بيتها كي لا تقلق أمها من طول غيابها..

ولحسن الحظ لم تسألها أمها عن شيء إلا عن صحة مريم، ثم ذهبت للنوم تاركة هند تتناول عشاءها بلا شهية..

كانت هناك حرب ضروس تدور رحاها في رأس هند.. حرب منعتها من النوم طيلة الليل؛ فهي تلوم نفسها على تسرعها بالذهاب لذلك الاجتماع، وعلى تسرعها مجددا للموافقة على خوض رحلة المجهول تلك.. وراحت تسائل نفسها لماذا تثق في مريد هذه الثقة العمياء؟ صحيح أنه مختلف عن بقية عائلته لكن هذا لا يعني أنه فوق الشبهات ولعله يضمر لهم شيئا ما..

زفرت بحنق وتقلبت في الفراش بينما سؤال آخر يطن برأسها.. ماذا سيفعلون في الجزيرة وكيف سيجدون آباءهم؟! لا يوجد واحد منهم لديه أي تصور عما هناك أو ما حل بآبائهم حتى أنهم لا يعرفون إن كانوا سيجدون ماء صالحا للشرب أو لا! حتى ذلك العساس الذي عاد من هناك لم يتمكن من إخبارهم بشيء فقد وصل ميتا..

- لا فائدة منكم أحياء وأمواتا

تمتمت بها هند وزفرت مرة أخرى وكثرة التفكير تكاد تفتك برأسها.. كيف ستترك أمها وأختها فجأة! وماذا ستفعلان عندما تعلمان برحيلها؟! قد تعذرها أمها إن علمت أنها تبحث عن أبيها وتريد إنقاذ المدينة وإنقاذهما من مصير قد يصيبهما دون إنذار..

تقلبت مرة أخرى في الفراش وقررت عدم التفكير في هذه النقطة حتى الاستقرار على موعد الرحيل.. لكن هيهات لعقلها أن يهدأ.. ففي الصباح

ذهبت إلى وحدة التمريض والصداع يكتنف رأسها بسبب كثرة التفكير وقلة النوم.. وزاد من حدته ظهور زهرة أمامها وتوقع هند لما سيحدث..

دخلت معها زهرة إلى قسم العقاقير وانتحت بها جانبا مستغلة خلو المكان من زملائها ثم قالت:

- ماذا فعلت؟

كانت نبرتها اتهامية متحفزة فهزت هند رأسها وقالت:

- لا شيء بعد

اتسعت عينا زهرة الخضراوين حتى بدتا كعيني هرة مستعدة للهجوم ثم قالت:

- لا تمزحي معي.. بسببك لم أستطع النوم جيدا رغم إنهاكي الشديد

ارتسمت ابتسامة مشفقة على وجه هند ثم جذبت كرسيا لزهرة كي تجلس وروت لها ما حدث باختصار غير مخل لتزداد عينا زهرة اتساعا وهي تعقب:

- ووافقت بهذه السهولة؟! هل أنت مجنونة؟

زفرت هند ثم قالت:

- الأمر محسوم بالنسبة لي يا زهرة..

وقبل أن تقاطعها زهرة قالت هند بأسى:

- لا تجعليني أشعر بالندم لإخبارك

حملقت فيها زهرة بعينين تقطران قلقا وقالت:

- أنا خائفة عليك يا هند

ابتسمت هند ابتسامة شاحبة وقالت:

- أعلم.. ولهذا أقدر ثورتك وأتفهمها..

ولم تكمل ما كانت تريد قوله فقد قطع حوارهما دخول تيم إلى القسم، ولما رأى زهرة رحب بها فردت ترحيبه بكلمات شكر ألقتها بسرعة ثم غادرت بعد أن طلبت من هند أن تتحدثا مرة أخرى بعد انتهاء العمل..

وبعد الظهيرة التقت هند مريم وأعطتها خفية ورقة مطوية فيها كل ما تريد إحضاره، وطلبت منها أن توصلها لمريد، لتظهر فجأة زهرة من خلف مريم..

- زهرة قادمة.. لا تخبريها شيئا

دست مريم الورقة في جيبها بسرعة عندما وصلت زهرة إليهما وهي تقول بضيق:

- يجب أن نتحدث..

لمحت مريم مريد وهو يخرج من باب الوحدة فاستأذنت منهما وأسرعت إليه لتعطيه الورقة بينما زهرة تقول:

– تلك الحمقاء ستورد نفسها المهالك.. فلو عرف أحد بما بينها وبين مريد..

– أخفضي صوتك

قاطعتها هند بسرعة وبعينيها نظرات تحذير فصمتت زهرة في الحال لتعود إليهما مريم وقد توردت وجنتاها.. ثم غمزت لهند بعينها علامة على إتمام المهمة..

– تعاليا فلدي الكثير من الكلام لكما

تبعت الفتاتان زهرة دون نقاش حتى وصلن إلى أحد المتنزهات الخالية من الناس في هذا الوقت، ثم جلسن على الحشائش الندية قليلا لتقول زهرة موجهة حديثها إلى مريم:

– ما قمت به حماقة لن أغفرها لك يا مريم

قالت هند بسرعة مدافعة عن صديقتها:

– مريم لا علاقة لها بشيء.. هي فقط أخبرتني بما طلبه منها مريد وحسب؛ لذا فلا تلقي باللوم عليها

ضيقت زهرة عينيها وهي تنظر لهند ثم قالت:

- لا تدافعي عنها فهي ليست قاصرة لتعرف أن ذلك الأمر خطر عليك

شعرت مريم بالضيق فقالت بانفعال:

- أنسيت أن والد هند مفقود ولا يعرف أحد إن كان حيا أم لا؟ كما أننا لا زلنا لا نعيش بأمان؛ فنحن تحت تهديد خارجي من تلك الغارات دائما، وربما أكون أنا أو أنت أو حتى هند الضحية التالية.. وتهديد داخلي أيضا إن فتح أحدهم فمه بكلمة فمصيرنا السجن أو سبي النساء في قصر الحاكم..

وأخذت نفسا عميقا لتتابع:

- ألست أنت من تتحدثين دوما عن ذلك؟ ألا تمقتين الظلم المحيط بنا وتودين تغييره؟ أم أنك تظنين أن التغيير سيحدث من تلقاء نفسه بلا تضحيات؟

صاحت فيها زهرة بعصبية:

- تتكلمين وكأنك أنت من سيذهب.. أراهن أنك لو كنت مكانها لما أقدمت على تلك الخطوة

- كفى!

صاحت هند بغضب لتوقف الشجار الدائر بينهما ثم قالت:

– مريم لم تفقد أباها في تلك الجزيرة، ورغم ذلك فأنا واثقة أنها لو كانت مكاني لذهبت لأنها لم تكن لترضى لي ما لا ترضاه لنفسها، مثلك تماما يا زهرة.. تخافين من خوض تلك المغامرة وتخافين علي منها أيضا..

واستطردت:

– وإن افترضنا أنني وجدت أبي وواصلنا إكمال المهمة التي بدأها.. فإنك تتحدثين عن مقاومة الظلم وتضجرين من معاملة الجميع لنا في الوحدة وكأننا عبيد.. وعندما يجد الجد تكونين أول المتراجعين وترفعين شعار فليذهب غيري

دمعت عينا زهرة ثم قالت بقهر:

– كنت متهورة في تفكيري وكلامي كما كنت تقولين لي دوما.. وعندما شعرت بالخطر يحدق بك أدركت أنني جبانة.. لا أريد أن أفقدك أو أفقد أحدا ممن أحب

وانخرطت في بكاء مرير بينما ظلل ثلاثتهم الصمت إلا من صوت نشيجها.. فرفعت هند كفها لتربت على كتفها وهي تقول بلين:

– لا أحد يريد أن يفقد من يحب.. لهذا أنا ذاهبة لاستعادة ما فقدته.. وحتى أجده فأنا لا أستطيع التهرب من المسؤولية وقد ألقيت على عاتقي

بعد اختفاء أبي.. أليس أحد قوانين المدينة أن الأبناء هم امتداد أعمال آبائهم؟ ألم تقومي بالعمل في قسم الجراحات بعد موت والدك؟

مسحت زهرة دموعها وقالت بصوت ممزق:

- بلى.. ولكن لأنني قد أُعاقب إن لم أفعل ذلك وأنا أكبر أبنائه.. أما ما ذهب إليه أبوك فلم يكن قانونيا ولا ينطبق عليه الحال نفسه، ولو أن ما تقولينه صحيح فإن أباك حي لم يمت

تنهدت هند ثم قالت:

- لا أحد يعلم بعد يا زهرة.. لكن عندما نعود مع آبائنا مكللين بالنجاح ستدركين وقتها أنني كنت على حق

عادت زهرة تجادل:

- وماذا لو لم تجدي أباك؟

صمتت هند لثوان قبل أن تقول:

- عندها سأكمل ما بدأه

بدأ صوت زهرة يهتز مرة أخرى وهي تقول:

- وإن لم تعودوا؟

قالت هند بقوة:

- سنعود إن شاء الله

ساد الصمت مجددا حتى قالت مريم:

- هند لن تتراجع عما قررت وأنا وأنت نعرف ذلك يا زهرة..

نظرت إليها زهرة بعينين دامعتين لتواصل مريم:

- فثقي بها كما تفعلين دوما

خرج هارون من مبنى الديوان متجها إلى بيته صامتا على غير العادة، مما دعا إحدى زميلاته أن تناديه وهي تحاول اللحاق بخطواته الواسعة فتوقف والتفت إليها لتقول فور أن تصل إليه:

- لا تبدو بخير اليوم.. ما بك؟

عاود المشي مجددا قائلا:

- لا شيء.. أشعر بالصداع وحسب

ارتسمت على وجهها ابتسامة ماكرة وقالت:

- صداع أم أنك تفكر فيها؟

أدار رأسه إليه وقال باستنكار:

- أفكر في من؟

ضحكت الفتاة وقالت:

- زوجة المستقبل ومن غيرها.. فرغم قانون الزواج والترتيب الصارم له إلا أنها إحدى المحظوظات لزواجها بك وأنت فارس أحلامها

في وقت آخر ربما وجد هارون دعابتها تستحق الضحك، لكنه ظل على تجهمه وقال بضيق:

- أنا لست في مزاج رائق لهذا الحديث، كما أنني لن أتزوج فطيبي نفسا

رفعت الفتاة حاجبيها دهشة وهي تقول:

- لن تتزوج؟ لا بد أنك تمزح

توقف هارون عن السير واستدار إليها ثم قال:

- ما سر هذا الاهتمام؟

ارتبكت الفتاة ليقول:

- أظن أنك معجبة بي كبقية الفتيات في القسم..

احمر وجهها وراحت تحملق فيه بينما هو يتابع:

- أنصحك بالتفكير في مستقبلك مع حمزة.. أظن أنكما ستتزوجان العام القادم أليس كذلك؟

وغادر تاركا إياها غارقة في خجلها، ليعود إلى بيته وأحداث الأمس تتلاحق في رأسه مرارا وتكرارا.. فبعد أن غادر المجتمعون بقي هو ورعد وتمام وقد فاض بهم لتساهل مريد مع ذلك الصياد.. ولما لم يجدوا حلولا

أخرى سلموا بالأمر في النهاية.. ثم اتفقوا على الأسلحة اللازمة التي سيحتاجونها وقد وعد رعد بإحضارها، ثم رحل هو وتمام ليبقى هارون مع صديقه..

– لا أدري كيف طاوعتك في هذا الجنون

قالها هارون غاضبا ليرد مريد:

– بإمكانك التراجع إن أردت

نظر له هارون بحنق وقال:

– أتراجع كي تشمت بي تلك الحمقاء وتظن أنني جبان؟!

– أي حمقاء؟

– تلك التي لم تتوقف عن الكلام

بدا الفهم على وجه مريد فقال موبخا إياه:

– اسمها هند، وأرجو ألا تسيء إليها فهي زميلتي

زفر هارون بضيق وقال:

– لولا أننا نحتاج إليها بالفعل لما وافقت على انضمامها لنا

رد مريد وهو يطفئ أحد المصابيح الزيتية:

– حتى لو لم توافق أنت فهي ابنة أحد الرجال المفقودين ومن حقها الذهاب

وأطفأ المصباح الثاني لتغرق الغرفة في الظلام قبل أن يتسلل إليها شعاع من ضوء القمر دخل عبر خصاص النافذة..

أفاق هارون من شروده ليجد نفسه قد وصل إلى بيته أخيرا ووجد مريد ينتظره كما فعل قبل يومين فازداد تجهمه ثم قال بعد أن اقترب منه:

– ما الذي جاء بك؟

– قل مرحبا أولا

زفر هارون بضيق وقال:

– منذ الأمس وأنا أفكر في ما ورطت نفسي فيه حتى أصابني الأرق والصداع، ولن أتحمل مزاحا يا مريد

قال مريد بعد أن زفر بحنق:

– قلت لك إن لم ترد ذلك فلتتراجع

نظر له هارون بنفاد صبر لكنه لم يعلق، ثم فتح باب البيت ودعا مريد لإكمال الحديث بالداخل لكن ذلك الأخير قال:

– لا داعي للدخول فلن أطيل عليك.. لقد جئت لأخبرك أن الأسلحة ستكون جاهزة في خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر هي والأدوات التي طلبها البقية، ولو تمت الأمور كما ينبغي قد ننطلق مع بداية الأسبوع القادم

صمت هارون قليلا ثم قال:

- لا بأس

صافحه مريد ثم رحل ليدخل هارون إلى بيته ويغلق الباب خلفه، تاركا أبواب عقله مفتوحة لكل الأفكار والهواجس..

في كوخ الصياد

مرت أربعة أيام على ذلك الاجتماع دون أي خبر.. حتى أن هند سألت مريم عدة مرات عما إذا كان مريد قد أخبرها أي شيء لكن النفي كان الإجابة التي تتلقاها دوما..

وعاد القلق يساورها.. هل كانت تلك خدعة ليعرفوا المتمردين ويلقوا القبض عليهم؟ لكن إن كان كذلك فلم لم يفعلوا وقد مرت عدة أيام على اجتماعهم.. أم أنهم ينتظرون أن تحصل على تلك الكمية الكبيرة من العقاقير ليلفقوا لها تهمة السرقة؟

كان القلق ينتابها من وقت لآخر حتى أن أمها لاحظت شرودها على غير العادة..

- لا شيء يا أمي.. مشاكل العمل المعتادة لا تقلقي

لكن أمها لم تقتنع بتلك الكلمات فقطعت هند عليها سبيل التفكير بأن سألتها عن آخر ثوب قامت بتفصيله، فأخرجت أمها الثوب من الخزانة وهي تقول:

- لم يتبق الكثير لأنهيه.. سأطرز أطرافه بخيوط ذهبية ويصبح جاهزا..

وأردفت وهي تطوي الثوب بعناية وتعيده للخزانة:

- يجب أن يتم العمل على أكمل وجه، فصاحبة الثوب من عائلة العساسين

تجهمت هند وقد أحست بالضيق في كلمات أمها الأخيرة.. فرغم أن الحرف البسيطة كالحياكة والصباغة وغيرها مسموح مزاولتها لكل العائلات بلا استثناء، إلا أن استغلال العائلات الأعلى رتبة لها قد جعل بقية السكان كالعبيد.. فأمها لا تتلقى إلا دراهم معدودة مقابل الأثواب التي تصنعها لتلك العائلات..

كانت هذه مشكلة كبرى تؤرق نوم هند؛ فكيف ستنفق أمها على نفسها وعلى أختها الصغرى التي لم تبلغ الأعوام الأربعة عشرة ولم تتأهل بعد لتبدأ التدريب في الوحدة؟ هل ستكفيهما تلك الدراهم؟ هل ستكون أنانية بتركهما وحيدتين دون حتى أن تخبرهما بوجهتها؟ وهل سيستمر خالها وعمها بإرسال المساعدات المالية التي لا تكاد تكفيهم منذ اختفاء والدها؟

راحت تذكر نفسها مرة بعد مرة أنها ذاهبة لإعادة رب البيت لتستقيم أمورهم ولكي لا يشعروا بمرارة الحاجة بعد الآن.. لكن هاجسا أقلقها.. ماذا لو لم تعد هي الأخرى وتضاعفت خسارة أمها؟!

وطار النوم من عينيها تلك الليلة وازداد قلقها وتوترها أضعافا بعد زيارة زهرة ومريم لها لتخبرها تلك الأخيرة بموعد التحرك هامسة لكي لا تنتبه

لها والدة هند التي لم تشك في أي شيء؛ فزيارة مريم وزهرة لابنتها معتادة في بيتهم منذ سنوات..

– سيتم اللقاء غدا عند منتصف الليل تماما في كوخ شهاب الصياد

– شهاب؟!

قالتها هند في دهشة لترد مريم وهي تدس في كفها خفية ورقة مطوية بها العنوان:

– إنه صاحب القارب الذي ستبحرون به إلى هناك

تقلصت أحشاء هند خوفا.. هل تتراجع الآن؟ هل تخبر صديقتيها بخوفها على أمها وأختها؟ لو فعلت فلن تهدأ زهرة حتى تقنعها بالعدول عن الذهاب أو تخبر أمها كي تمنعها بالقوة..

وأمضت هند أسود ليلة في حياتها بعد أن غادرتها الفتاتان.. فراحت تتقلب على فراشها وكأنه الجمر حتى غفت قبيل الفجر لمدة قصيرة استيقظت بعدها فزعة بسبب الكوابيس..

كان الجو باردا ذلك اليوم حتى أن السماء أرسلت بعض الرذاذ في الصباح الباكر.. وخرجت هند ذاهبة للوحدة لتبتل ثيابها بقطرات الماء التي بللت وجهها أيضا مما أعطاها بعض الهدوء..

لاحظ تيم شرودها والذي ازداد هذا اليوم بعد أن لازمها الفترة الماضية، ولم يدر ما السبب.. حتى أنها أخطأت في صرف عقار لأحد المرضى لولا أن تيم كان منتبها لها وأسرع بإعطاء الرجل الدواء الصحيح..

– ما بك يا هند؟ إن كنت مريضة فبإمكانك الحصول على إجازة اليوم

نظرت هند إلى تيم بعينين ناعستين قد أحيطتا بهالات سوداء، ثم قالت بابتسامة شاحبة:

– لا تقلق أنا بخير.. أصبت ببعض الأرق وحسب

وجلست على مقعدها بينما هو يتابعها بعينين قلقتين، لكن دخول أحد المرضى شغله بعض الوقت، فعقدت ذراعيها على الطاولة التي تجلس خلفها ثم وضعت رأسها عليها وأغلقت عينيها قبل أن تسمع صوت مريم تلقي السلام عليهم فانتفضت جالسة..

اقتربت منها مريم فقالت هند وهي ترمقها بنظرات فزعة:

– ما الأمر؟!

ابتسمت مريم وأمسكت بكفي هند تربت عليهما وهي تقول مطمئنة إياها:

– هدئي من روعك.. لقد أرسلني مريد لتأكيد الموعد..

تنفست هند الصعداء ثم تراجعت في مقعدها بينما مريم تقول:

- أنا أقدر خوفك.. وإن أردت التراجع فلا زال لديك الوقت لذلك

نظرت لها هند بعينين حائرتين ثم هزت رأسها وقالت:

- لن أتراجع عن قراري

أومأت مريم برأسها ثم قالت:

- سننتظرك أنا وزهرة بعد نهاية الدوام

أغمضت هند عينيها وهي تومئ برأسها موافقة، فربتت مريم على كفها مرة أخرى وخرجت من القسم..

كان تيم يتابع الحديث الهامس عن بعد، لكنه لم يقترب ليعرف ما يدور بينهما احتراما للخصوصية.. وبعد تفكير ظن أن الحديث كان يخص زواج هند، لكنه طرح تلك الفكرة جانبا؛ فهند لم تكمل عامها العشرين بعد وأمامها عام وبضعة أشهر كي يأتي دورها في قائمة الزواج..

لم يستطع التوصل لشيء يروي فضوله، واكتفى بمتابعتها من بعيد علّها تحتاج لمساعدته التي لن يبخل بها..

كان هناك شخص آخر لم يستطع النوم، ليس خوفا على مصير أمه وأخيه فهما في رغد من العيش يكفيهما ويزيد.. لكن خوفه كان من أن يفجع أمه باختفائه هو الآخر إن لم يعد كما لم يعد أبوه.. زيد إذن لم يكن جبانا أو أحمقا عندما رفض الذهاب معهم.. فهو سيذهب لمكان مجهول للبحث عن والده الذي لا يدري كيف سيعثر عليه، ولا كيف سيواجه أية أخطار قد تعرض لهم.. حتى أنه أثار ضيق مريد عندما سخر من الأسلحة التي يجهزونها للقتال ضد ما يجهلونه..

زفر هارون زفرة حارة كادت تعصف بالأوراق التي أمامه، فأمسك بها وراح يقرأ نقاط القضية التي يعمل عليها.. كانت قضية بسيطة لأحد المزارعين ضُبِط متلبسا باختلاس بعض القمح من مخزن الغلال.. وكان دفاعه يحاول تخفيف العقوبة من السجن خمسة عشر عاما إلى بضعة أشهر لفقر المزارع وحاجته الماسة التي دفعته لذلك..

لم يكن هارون هو الدفاع بل كان الناقض.. وعمله يقتضي جمع أدلة براءة المتهم ودحضها ليصدر الحكيم قرار إدانته.. ورغم عدم اكتراثه للعائلات الأقل رتبة في حياته اليومية إلا أنه كان يمقت عمله.. فقد نقض الكثير من القضايا وبرأ فيها المتهمين ليأتي أصحاب الدعاوى محاولين إغراءه بالمال ليثبت الجريمة على المتهمين.. ففي نظرهم أن المتهم إن كان من رتبة أدنى منهم فهو مدان حتى ولو ثبتت براءته!

ولم يقبل هارون ذلك المال الملعون على الإطلاق.. لكنه قبله لشيء آخر، ألا وهو تبرئة بعض المتهمين..

كم من قضايا مرت عليه شعر فيها بسياط الضمير تجلده لأحكام البراءة التي حصل عليها المتهمون من العسس أو المحاربين أو الحكماء بسببه وهو يعلم علم اليقين أنهم لصوص مجرمون.. لكنه كان يخدر ضميره بأنه لا يفعل ذلك إلا إذا كان المال المسروق هو ملك لأحد من العائلات العليا وليس من عوام المدينة وفقرائها..

ومع أول كل شهر أصبح يخرس ضميره عندما يثقل جيبه بالدنانير التي يحصل عليها من الديوان كراتب شهري، أو من أصحاب الاتهام كرشاوى له ليتلاعب بأدلة البراءة!

أما قضايا القتل والتحريض عليه فهي ليست تخصصه.. عليه فقط أن يحيل أوراقهم للمحقق الذي يتفق بشكل أو بآخر مع الدفاع لنفي التهمة عن المتهم أو لتخفيف العقوبة عنه إن كان من رتبة عائلية عالية، والتي لا يقضيها أحد منهم كاملة لأنه يخرج بعفو ملكي في النهاية..

ومع مرور خمس سنوات من العمل أصبح تأثر ضميره بالرشاوى أخف وطأة.. لكن هذا لم يمنعه من أن يشعر بالتقزز من نفسه من حين لآخر..

زفرة حارة أخرى أطلقها وقد قرر ألا ينهي القضية التي بين يديه.. شيء ما بداخله دفعه أن يتوقف، فوضع ملف القضية في أحد الأدراج وأغلقه بالمفتاح وراح يتلكأ ويعبث في درج آخر متظاهرا بالبحث عن أي شيء..

كانت أصوات زملائه تتناهى إلى مسامعه وكل منهم يتحدث عن قضية ما.. لكنه لم يكن يعي حرفا مما يقال مما دفع حمزة لسؤاله عن سبب شروده فأجاب باقتضاب:

- أرق!

ولم يزِد.. فعاد حمزة للعمل وهو متعجب من هارون فهو مرح ساخر معظم الوقت، ولم يعتده أحد صامتا بهذا الشكل.. لكن الوقت انقضى سريعا ليخرج هارون دون أن يلقي السلام على أحد..

خرج من الديوان وقد عاد إليه الشعور بالخوف.. وتعجب من نفسه.. إنه يخاف! وتعجب أكثر وهو يسائل نفسه عن شجاعته التي كان يتحلى بها دوما والتي كانت مثار إعجاب أبيه مذ كان طفلا..

ربما لأن الاختبار صعب وواقعي هذه المرة.. واقعي لدرجة أنه تجسد في كوابيسه في السويعات التي نامها الليلة الماضية.. وربما لأنه يشعر أنه سيلقى حتفه هناك قبل أن يجد أباه.. بل إن لديه إيمان يكاد يصل حد اليقين أنه لن يعود حيا..

قرر أن يعرِّج على المتنزه الموجود في وسط المدينة لعله يحصل على بعض الهدوء.. وبالفعل غير طريقه إلى هناك ثم جلس بالقرب من النافورة التي تتوسط الحديقة..

كانت السماء ملبدة بالغيوم وقد عادت ترسل الرذاذ مجددا.. لكن هارون لم يتحرك من مكانه.. راح يجول ببصره هنا وهناك.. لم يأت لهذا المكان منذ أن أتاه خبر وفاة العساس.. منذ ذلك الوقت فقد استمتاعه بأشياء كثيرة، فأمه لم تعد مرحة بشوشة كما السابق، ومن حين لآخر ينتبه لدمعة شاردة من عينها حزنا على زوجها الذي قالت بنفسها أنها تمنت لو كانت جثته هو التي وُجدت على الشاطئ لتطمئن لمصيره..

أسند ظهره للمقعد الخشبي الذي يجلس عليه يراقب المياه المندفعة من النافورة، وهي تتخذ شكل مظلة حريرية رقراقة تنساب للأسفل في الحوض الرخامي الأبيض، والذي اختلط ماؤه ببعض بتلات أزهار القرنفل وأزهار العنبر الكشميري التي تطايرت من الأصص المحيطة بالحوض.. ولحمايتها تم وضع سياج معدني مصقول حول الحوض الرخامي وأزهاره..

مبهجة هي هذه الحديقة.. وهي من الأماكن القليلة في المدينة التي تحظى بعناية كبيرة.. ربما لأن رئيس ديوان الزراعة يُعنى بها لأجل عائلته من المزارعين؛ فهي مزار دائم لهم..

هبت نفحة ريح باردة بعثت بقشعريرة في جسده، فعدل من وضع عمامته على رأسه وضم طرفي ثوبه ليستمد منه الدفء وهو يلوم نفسه على عناده لتركه معطفه الثقيل في البيت..

ومرور الرياح على الحشائش الخضراء بعث بصوت يريح النفس المتعبة، فأرجع هارون رأسه للخلف وأغمض عينيه محاولا الاسترخاء.. ولم يمض وقت طويل حتى تهادت لسمعه أصوات ضحكات أنثوية.. لم يلتفت لها في البداية، لكنها لما تكررت فتح عينيه وبحث عن مصدر تلك الضحكات ليعتدل في جلسته بعد أن اصطدمت عيناه بعينيها ليتجهم وجهه..

وتجهم وجهها هي أيضا لما رأته حتى أنها لفتت نظر زهرة فالتفتت تلك الأخيرة لترى هارون..

- من ذاك الوسيم؟

وعادت تنظر لهند مبتسمة لكن هند قالت بضيق وهي لم ترفع عينيها عنه:

- هارون..

وتابعت وهي تنظر لزهرة:

- إنه أحد العشرة

اختفت ابتسامة زهرة على الفور لتتساءل مريم بهمس:

- ما الذي أتى به؟ هل يراقبك خوفا من تراجعك؟

هزت هند رأسها وقالت:

- لا أظن..

وتابعت:

- حتى عندما أردت تناسي الأمر مؤقتا ظهر كعِفريت من الجن ليذكرني

قالت زهرة مشاكسة:

- عجبا! أتشبهين هذا الوسيم بالعِفريت؟

حدجتها هند بنظرة حانقة لتنفجر زهرة في الضحك ثم تقول:

- أنا أمزح يا فتاة

رفعت مريم كفيها وهي تقول:

- كفى مزاحا.. دعكما منه واسمعا.. لنذهب الآن إلى بيتك يا هند، فأنا لن أتنازل عن فطير العسل الذي تتقنين صنعه

وغمزت بعينها لتبتسم هند مجددا وهي تشعر بالامتنان لهما بأن أحضراها للمتنزه للترويح عنها قليلا، بعد أن اتفقن ألا تذكر إحداهن أي شيء عن رحلة منتصف الليل.. لكن رؤية هارون عكرت مزاجها..

انتبهت من شرودها لتنهض مع الفتاتين استعدادا للمغادرة، وألقت نظرة سريعة على المقعد الخشبي لتجده خاليا.. يبدو أنها قد عكرت مزاجه بدورها فرحل.. ابتسمت للفكرة وقد أعادت إليها بعض المرح..

وصلت الفتيات الثلاث إلى بيت هند بعد أن مرت كل منهما على بيتها لتخبر أهلها بتأخرها.. دخلن البيت وألقين التحية على أم هند التي رحبت بهن.. ثم اتجهن إلى المطبخ لمساعدة هند في إعداد الفطائر..

- ماذا تفعلن؟

التفتت مريم إلى أم هند وقالت:

- اشتهينا فطائر العسل فقررنا غزو مطبخكم لصنعها

ضحكت الأم ثم نادت ابنتها الأخرى لمساعدة الفتيات.. فقضين وقتا ممتعا ومرحا أنسى هند همها الذي أرّقها لأيام..

وبعد أن غربت الشمس بساعة تقريبا رحلت الفتاتان لينقبض قلب هند ويعود إليها خوفها.. رحلتا دون أن تنعم بمعانقتهما عناق وداع ربما هو الأخير.. بل كانت تبذل جهدا جهيدا لمنع دموعها والمحافظة على تصرفاتها وتعبيرات وجهها كي لا تثير قلق أمها التي صارت تعلق على ارتجاف يدي ابنتها الدائم، فتكذب هند وتدعي أنه بسبب إرهاق العمل..

أوت الأم لفراشها وكذلك فعلت ابنتاها لتغط الصغرى في النوم بعد مدة وجيزة من الزمن.. أما الكبرى فظلت عيناها مفتوحتين على آخرهما.. وصوت دقات قلبها المضطرب يكاد يتردد صداه في الغرفة موقظا أختها من نومها..

كانت هند ترهف السمع جيدا كي تتمكن من التقاط صوت الجرس الذي يقرعه حارس برج الساعة الكبير في وسط الحي.. في العادة لا تسمعه خلال النهار بسبب صوت المارة والحركة في الشارع.. أما في الليل فلم تكن تعيره اهتماما رغم سماعها له.. لكن هذه الليلة مختلفة..

انتبهت حواسها عندما سمعت صوت الجرس معلنا أنه لم يعد يفصلها عن منتصف الليل إلا ساعة واحدة.. فنهضت بهدوء شديد وأخرجت حقيبتها التي أعدتها سلفا من تحت فراشها..

بدلت ثيابها ثم تناولت قماش عمامتها الأبيض من على المشجب المجاور لخزانتها، وراحت تلفه حول رأسها بسرعة ودون النظر في المرآة.. وانتهت بأن مررت طرفه تحت ذقنها لتثبته على جانب العمامة من الداخل.. ولم تنس ارتداء معطفها الصوفي تحسبا لبرودة الجو..

ألقت نظرة أخيرة على أختها النائمة.. تمنع نفسها من طبع قبلة على جبينها قبل الرحيل كي لا تستيقظ.. فتحت الباب بهدوء وانسلت خارج الحجرة بعد أن تركت على فراشها رسالة مطوية تخبرهما فيها عن وجهتها.. ثم قطعت الردهة في خطوات سريعة دون المرور على حجرة أمها وفتحت باب البيت ثم خرجت..

اصطدم وجهها بنسمة باردة أصابتها برعدة سرت في أوصالها لتزيد ارتجافها.. لكنها أغلقت الباب خلفها واتجهت إلى حيث مكان اللقاء..

أمضى هارون بقية اليوم خارج البيت ولم يعد إلا مساء، ولم تتعجب أمه فعله فقد كان يتأخر أحيانا في العودة للبيت للقائه بأحد الأصدقاء.. ولم تلحظ أيضا توتره لانشغالها بالحياكة التي امتهنتها منذ سنوات قلائل.. وما حيره هو بيع أمه لتلك الأثواب والمفارش المطرزة للعامة بأسعار زهيدة.. ولما علق على فعلها كانت تجيبه بنظرات لا يفهمها..

لم يكن يحب الاختلاط بأبناء العائلات الأخرى، أو ما كان يسميهم بالعامة.. وهكذا كانت أمه قبل أن تتغير منذ مدة ولا يدري ما السبب.. لكنه كان يشعر أن أباه يدري، وإلا فلماذا لم يقل شيئا عن امتهانها للحياكة وهو أمر مَعيب في عرفهم؟!

ألقى بالمقص من يده بعد أن حاول تهذيب لحيته قليلا.. ثم استند بيديه على الطاولة الخشبية المغطاة بلوح من الرخام الأسود.. وراح ينظر لوجهه في المرآة البيضاوية ذات الإطار المذهب، وهو يسخر من نفسه.. أيظن نفسه ذاهبا إلى عرس كي يعتني بمظهره بهذا الشكل؟

زفر بحنق ثم اتجه لباب غرفته ليتأكد من إحكام قفله قبل أن يخرج من خزانته الحقيبه التي تحوي ما قد يهمه في تلك الرحلة المجهولة.. تأكد من محتوياتها ثم أغلقها واتجه للشمعدانين المذهبين بدورهما والموجودين على جانبي المرآة ليطفئ شموعهما..

استلقى على فراشه وراح يستمع لدقات قلبه التي تسابق بعضها بعضا، بينما عيناه معلقتان بالساعة الشمعية المثبتة على الجدار، تتابعان حركة اللهب المتراقصة وهي تحرق الشمعة السوداء ببطء وأناة وكأنها تستفز أعصابه..

مضى الوقت ثقيلا حتى اقترب لهب الشمعة من الوصول إلى نهايتها تزامنا مع دقات جرس برج الساعة في الحي الذي يسكن فيه.. فقام من فراشه بسرعة.. ارتدى ثيابه وعمامته ثم أخذ حقيبته وخرج بهدوء من البيت بعد أن ترك رسالة لأمه..

اتجه لبيت مريد ليجد شبحه في الظلام ينتظره على رأس الشارع ومعه صندوق خشبي، فتحرك نحوه وحمل معه الصندوق ثم انطلقا لكوخ الصياد دون تبادل كلمة واحدة..

كان المكان بعيدا بعض الشيء فوصلا قبل منتصف الليل بقليل.. طرق مريد الباب وانتظرا.. مضت دقائق من الصمت تخلله صوت الأمواج، حتى فتح شهاب الباب لهما.. فدخلا ليجدا أن غسان قد وصل قبلهما..

رحب بهما شهاب بصوته العميق ثم أشار لهما ليجلسا.. فجلس الشابان في صمت بعد أن وضعا الصندوق على الأرض، وراحا يتأملان المكان بينما اتجه شهاب لأحد أركان كوخه الخشبي ودخل حجرة يغطيها ستار عوضا عن الباب..

لم يتبادلا كلمة ولم يتحدث غسان معهما فقد كان منشغلا بقراءة أحد الكتب.. ولم يمض وقت طويل حتى سمعوا طرقا على الباب، فاتجه غسان لينظر من ثقب في الباب ليقول:

- إنهما فجر وسراج

وفتح الباب ليدخل الاثنان يحملان بدورهما صندوقا خشبيا وضعاه على الأرض، ثم انضما للرفقة الصامتة.. وخرج شهاب من الحجرة وهو يحمل صندوقا صغيرا وضعه على الطاولة المجاورة للباب، ثم دخل للحجرة مجددا..

وعلى بعد خطوات كانت هند تقترب من الكوخ متبعة تعليمات مريد المكتوبة لوصف العنوان.. كانت تلهث من الانفعال وصوت الموج في ذاك الظلام يبعث بالرعب في نفسها.. فقد تخيلت أنه من الممكن لأبي السلاسل(*) أن يظهر لها في أي وقت..

وقفت أمام الباب ثم طرقته بيد مرتجفة كجسدها وانتظرت قليلا حتى فتحه غسان لتدخل ملقية التحية على الجلوس ثم تتخذ مجلسها بجوار فجر التي أفسحت لها المكان مبتسمة.. ولم تمض دقائق حتى اكتمل العدد بحضور تمام ورعد وقد زادا على الصناديق واحدا آخر..

خرج شهاب أخيرا من تلك الحجرة حاملا صندوقا آخر وضعه بجوار سابقه ثم جذب كرسيا له وجلس في مواجهتهم..

كان رجلا ممتلئ الجسم.. اختلط سواد شعره ببياض يشي بأنه شارف الستين من عمره، وله لحية كثيفة..

راح يرمقهم بعينين لامعتين جعلت قشعريرة تسري في أوصالهم.. لكنه لم يطل النظر وقال:

- أخبرني غسان عما تريدون وعن الحمولة التي معكم..

وأشار إلى الصناديق الثلاثة ثم تابع:

- وعليكم أن تقسموها بينكم ليحمل كل واحد منكم جزءا؛ لأنكم لا تملكون دوابا أو حتى عربة خشبية تضعون عليها أشياءكم لسهولة التنقل..

فاجأهم كلامه فأي منهم لم يفكر في كيفية التحرك بتلك الأشياء..

- كما أنني أرى أنكم تحملون حقائب على ظهوركم، وبالتالي يتوجب عليكم أن تنتقوا مما أحضرتم الأغراض المهمة فقط..

لم يعقب أحد على كلامه حتى رعد الذي كان متقززا من المكان.. فقام شهاب وفتح الصندوق الأول الذي أحضره من الحجرة وهو يقول:

- أريد أن أرى ماذا ستأخذون معكم سواء ما في حقائبكم أو ما أحضرتموه في الصناديق

قال رعد معترضا:

- لماذا تريد رؤية حاجياتنا الشخصية؟ نحن أدرى بما نحتاج

رمقه شهاب بنظرة جمدت الدم في عروقه ولم يقل شيئا، لكن رعد ابتلع ريقه وقال وهو يحاول أن يظهر شجاعته:

- افعل ما تريد مع البقية، أما أنا فلن أريك ما لدي

لم يلتفت إليه شهاب وتابع إخراج ما في الصندوق مما أثار ضيقه.. لكن قبل أن يقول شيئا أمسك مريد بذراعه وهمس في أذنه أن يصمت..

- عليكم تبطين حقائبكم بهذه الجلود تحسبا لارتفاع الأمواج وغمرها لكم ولما في حقائبكم

قالها شهاب لتسري في جسد هند رجفة.. لقد صرفت تفكيرها طيلة الفترة الماضية عن وسيلة وصولهم لتلك الجزيرة كي لا يدفعها الذعر للتراجع، ثم يأتي هذا الرجل ويقول تلك الكلمات ببساطة!

أخذت نفسا عميقا وحاولت أن تهدأ بينما بدأ شهاب يوزع عليهم قطعا جلدية لها رائحة لم يستسغها أي منهم حتى غسان.. لكنهم أطاعوه وبدؤوا بإفراغ حقائبهم وتبطينها بالقطعة التي حصل عليها، ثم أعاد كل منهم حساباته واستثنى بعض الأغراض لتخفيف الحمولة وتوفير مكان لما سيأخذه من الصناديق.. حتى رعد فعل مثلهم لكيلا يحمل ما قد يقصم ظهره..

بعدها طلب منهم شهاب فتح الصناديق وتوزيع محتوياتها عليهم كيفما أرادوا.. وبالفعل كانت الحمولة ثقيلة رغم كبر حجم الحقائب، فتخلصوا من بعض الأشياء التي أحضروها في الصناديق أيضا مما قد يزيد عن حاجتهم..

وما إن انتهوا حتى قال رعد بضيق:

– ها قد فعلنا ما أردت.. أين ذلك القارب الذي سنذهب به

تجاهله شهاب وقد اتجه للطاولة وفتح الصندوق الآخر ثم أخرج منه كتابا.. التفت إليهم ودار بعينيه على ألوان عمائمهم حتى توقف عند عمامة هند البيضاء.. فتقدم منها وهو يقول:

– أنت ابنة عدنان أليس كذلك؟

ارتبكت هند قليلا وقالت:

– بلى

مد شهاب يده إليها بالكتاب وهو يقول:

– هذا الكتاب لك

بدت الدهشة على وجهها وعلى وجوه البقية ثم قالت:

– أهو كتاب عقاقير؟

ابتسم لها شهاب ابتسامة غامضة وقال:

– أرجو أن تستفيدي منه

بدت عليها السعادة وهي تقلب الكتاب بين يديها.. كان مهترئا قد تآكلت بعض أطرافه، وتم جمع أوراقه مختلفة الأحجام بخيط من خيوط شباك الصيد لمنعها من التفلت..

- تعالوا سأريكم القارب

أخرجها صوت شهاب من شرودها، فقامت بوضع الكتاب في الحقيبة ثم حملتها على ظهرها كما فعل البقية وخرجت من الكوخ معهم..

خرجوا حاملين حقائبهم التي أصبحت ثقيلة جدا وساروا خلف شهاب وقد لفّهم الصمت وبدوا كأشباح ليلية خاصة مع وصول القمر لطور التربيع الثاني، فكانت الإضاءة ضعيفة.. اتجهوا للميناء لكن شهاب استمر في المشي حتى ابتعدوا عن مجموعة الأكواخ التي يسكنها الصيادون، ووصلوا إلى أكواخ أخرى مهجورة.. وعلى غير مبعدة كان هناك القارب.. يقف وحده شامخا في الظلام.. يرتفع قليلا وينخفض بفعل حركة الموج..

كان أقرب لسفينة صغيرة تتسع لما يقارب عشرين رجلا.. فتقدم شهاب والبقية يتبعونه حتى وقفوا أمامه وهناك سؤال مشترك في عقولهم جميعا.. لماذا وضع شهاب هذا القارب في مكان منعزل؟!

- ها هو ما أتيتم من أجله

اقترب رعد من القارب ليقول باستنكار:

- يبدو أنك تركته هنا منذ مدة.. أخشى أن يصيبه شيء ما ونحن في البحر فنهلك

قال شهاب وهو يحل الحبل الذي يربط القارب برصيف الميناء:

- لن يصيبه شيء فهو لم يخذلني أبدا..

وألقى بالحبل داخل القارب وهو يتابع مشيرا إليهم:

- اركبوا الآن وإلا فلتعودوا من حيث جئتم

استاء الجميع من لهجته لكن مريد دفع هارون ليصعد على درج خشبي متهالك وضع هناك لهذا الغرض.. ثم تبعهما البقية.. وهكذا استقروا على متن القارب فقام شهاب بدفعه بقوة.. وأمسك غسان بأحد المجدافَين وهو يلقي بتعليماته إلى مريد ليبدءا بالتجديف معا..

كان القارب يبتعد شيئا فشيئا عن الميناء ولم يزل الصمت يغشاهم إلا من بضع كلمات من غسان وهو يوجه مريد الذي كان لديه خلفية بسيطة عن التجديف.. أما البقية فقد لزموا الصمت، ولم يقطع صمتهم ذاك إلا صوت حركة المجدافين وهما يمخران البحر.. وقد كان ذلك الصوت يثير الرهبة فيهم..

لكن أكثرهم رهبة ورعبا كانت هند.. وتعاظم رعبها وطغى على تفكيرها عندما اختفى الشعاع الضئيل الذي كان ينبعث من القمر خلف السحب.. فراح صدرها يعلو ويهبط وأنفاسها تتلاحق حتى أن فجر انتبهت لها..

– هند هل أنت بخير؟

همست لها فجر فأومأت هند برأسها قائلة:

– بخير لا تقلقي

وحاولت تهدئة نفسها حتى أحست فجأة بريح باردة تضرب وجهها..

– الآن تجاوزنا الحد المسموح للإبحار..

قالها غسان ولم يتمكن من إكمال جملته.. ففي لحظة صارت الأمواج عاتية وارتجَّ القارب بعنف حتى أن غسان ومريد كادا يسقطان على أرضية القارب.. لكنهما اعتدلا سريعا للتحكم فيه..

بدأ الذعر يدب في قلوبهم فأخذوا يصيحون في غسان كي يرجع بهم إلى المدينة، لكنه أشار بسبباته للأفق وقال رافعا صوته على صوت الأمواج:

– لقد اقتربنا..

أمعن الجميع النظر أمامهم ليجدوا أن الجزيرة قد ظهرت كخط أسود في الأفق.. وتعجبوا كيف لم يروها قبل ثوان؟!

ورغم هذا فقد أصر بعضهم على العودة فصاح فيهم هارون قائلا:

- ما بكم؟ هل أصابكم الرعب قبل أن نبدأ؟ جميعنا نعلم أننا مقدمون على مجهول فلا تجبنوا عندما يجد الجد

سكت الجميع بينما هارون يتعجب من نفسه وهو الذي كان مترددا موخرا.. فجأة ارتجَّ القارب بعنف مرة أخرى وكاد هارون يسقط لكنه تماسك.. وبينما هو يعدل من وضعه رأى حبلا ملقى على أرضية القارب، فقال وقد برزت فكرة في رأسه:

- هل منكم من لا يعرف السباحة؟

رفعت هند كفها، فانحنى هارون ليلتقط الحبل وقال وهو يعتدل ويعطيه لها:

- اربطي نفسك بهذا وسأربط نفسي بطرفه وفجر بالطرف الآخر تحسبا للطوارئ

لم تقو هند على الرد فأومأت برأسها علامة على الموافقة دون نقاش بينما جسدها ينتفض رعبا.. وبيدين مرتجفتين قامت بلف الحبل حول خصرها ثم فعل هارون وفجر الأمر ذاته..

ازداد هياج الأمواج وأضحت السيطرة على القارب صعبة، خاصة وقد أصبحت المياه تغمرهم من حين لآخر.. فأغمضت هند عينيها وهي تسمع صوت دقات قلبها يطغى على صوت الأمواج المتلاطمة..

حاولت أن تهدأ فأمسكت بالحبل الذي ربطت نفسها به وكأنها تحتمي به

مما قد يحدث.. ولم تفتح عينيها رغم أن الأمواج الثائرة أغرقت ثيابها بالكامل، ورغم صياح بقية من معها على القارب ما بين فزِع وغاضب..

فتحت عينيها أخيرا عندما شعرت بهدوء حركة القارب لتجد أنهم قد وصلوا تقريبا إلى الجزيرة.. وما هي إلا لحظات حتى توقف القارب لضحالة المياه ودخوله في الرمال، فحلّت هند الحبل الذي يحيط بخصرها.. بينما البقية ينهضون من أماكنهم وقد ابتلوا تماما، فساعدهم غسان ومريد على الخروج من القارب ثم خرج كلاهما بعد أن ربطا الحبل بمقدمة القارب وقاما بجذبه لمسافة لا بأس بها داخل الرمال كي لا تجرفه الأمواج..

تكلم رعد باستياء موبخا غسان لإصراره على التقدم وأنه كاد يتسبب في موتهم غرقا.. فرد عليه غسان وبدا أن شجارا سينشب بينهما لكن مريد حال بينهما قائلا بحسم:

– لا أريد أي شجار مجددا.. لقد اتحدت مصائرنا الآن وحان وقت الجد.. فنحّوا ضغائنكم جانبا حتى ننتهي من مهمتنا..

صمت رعد وغسان لكن كل منهما كان يتوعد الآخر في سره.. بينما مريد يقول للبقية:

– الكلام موجه للجميع.. لا نريد شجارا مهما حدث..

ثم التفت ينظر للأشجار الكثيفة التي تحجب رؤية ما وراءها وهو يتابع:

– فلدينا ما هو أهم

ليلة مع الجاثوم

تقدم مريد ليتجاوز حاجز الأشجار وتبعه البقية في صمت.. لم يعترض أحدهم على قيادته لهم، فلم يكن أي منهم يطمح لتعريض نفسه للخطر حماية للباقين..

كان صوت الموج يتضاءل شيئا فشيئا مع تقدمهم في المسير.. وحل محله صوت حفيف أوراق تلك الأشجار.. ولولا توترهم لاستمتعوا بذلك الصوت الناعم..

كانوا قد أشعلو قنديلا قبل أن يدخلوا بين الأشجار، لكن تلك الإضاءة لم تكشف إلا أقل القليل، فكاد بعضهم يتعثر عدة مرات، خاصة وقد كانت أجسادهم لا تكف عن الارتجاف في هذا الزمهرير بسبب ثيابهم المبتلة..

انتهت مسيرتهم أمام أرض منبسطة جرداء مترامية الأطراف على حد ما استطاعوا رؤيته في هذا الليل البَهيم.. فتوقفوا وهم ينظرون للمكان بتوجس حتى تكلم مريد قائلا:

- سنشعل المشاعل ونبيت هنا الليلة، فالظلام دامس ولن نتمكن من عمل أي شيء

صاح رعد مستنكرا:

- نبيت هنا؟ لعل المكان مملوء بالعقارب والحيات

استدار إليه مريد وقال وقد بدأ يستاء من تصرفاته الصبيانية:

- ابحث لنا عن حل آخر بدلا من اعتراضك الدائم

عقب سراج ساخرا:

- لقد ظننت العساسين لا يخافون شيئا

التفت إليه رعد وقال بغضب:

- أتسخر منا أيها المزارع الحقير؟

- اصمتوا!

صاح مريد فيهما بغضب هو الآخر ثم قال وهو يرفع القنديل لأعلى كي يراهما بشكل أفضل:

- كفوا عن التصرف كالأطفال

صاح به رعد بدوره:

- كف أنت عن الصراخ في وجوهنا، من تظن نفسك؟

وقف هارون بينهما وتكلم قبل أن يرد مريد قائلا:

- إنه القائد هنا يا رعد

قال رعد باستخفاف:

- ومن الذي سمح له بذلك؟

- جميعنا سمحنا له بذلك عندما تقدمَنا هو ولم يبد أحدنا اعتراضا

قال مريد أخيرا منهيا هذا الجدل:

- إن كنت تريد القيادة يا رعد فهي لك.. لكن عليك حمايتنا وتأمين وجودنا هنا

صمت رعد قليلا ثم قال بعد تفكير:

- لا أريد شيئا.. افعلوا ما يحلو لكم

زفر مريد بضيق ثم غير مجرى الحديث وهو يقول:

- سنشعل المشاعل أولا كي نرى معالم المكان ثم بعدها نقرر أين سننصب الخيام

أنزل كل منهم حقيبته من على ظهره ليبدؤوا بالعمل.. وبينما هم كذلك همست فجر في أذن هند بقولها:

- أراهن أن رعد تراجع عن إمساك القيادة خوفا على حياته وليس زهدا فيها

ابتسمت هند ولم تعلق؛ فلم تكن تريد إثارة أي جدل مجددا.. لكنها كانت مؤمنة بأن ما قالته فجر صحيح.. فرغم شراهة العساسين للقيادة والسلطة لكنهم لا يفعلون ذلك إلا لحماية أنفسهم وحسب، لكن الوضع اليوم كان معكوسا تماما ولهذا لم يقبل رعد..

انتهوا من نصب الخيام وإشعال بعض النيران للتدفئة.. ثم وزع مريد نوبات الحراسة عليهم وقد استحسن إحضار هارون لساعة رملية معه.. فكانت مدة النوبة الواحدة ثلاث ساعات يحرسهم خلالها اثنان ويتم التبديل باثنين آخرَين في الساعات الثلاث التالية..

وأخيرا جلس المكلفان بالحراسة خارج الخيام الثلاثة بينما أوى البقية إلى فُرُشهم.. فتجاورت فجر وهند في فراش واحد بعد أن بدلتا ثيابهما المبتلة وتدثرتا بثياب صوفية طلبا للدفء.. ثم أخذتا تتهامسان على الضوء الضعيف القادم من المصباح الزيتي بجوارهما.. لكن لم تمض لحظات حتى استسلمت فجر للنوم، والذي راح يداعب جفون هند..

خارج الخيام كان أول الحراس هما مريد وهارون.. جلسا صامتَين يرقبان اللهب المتراقص أمامهما وكل منهما غارق في أفكاره.. فمريد يفكر في وسيلة ناجحة للسيطرة على المجموعة والتي بدا واضحا للعيان أنها لن تتفق على رأي..

أما هارون فقد كان منشغلا بتخيل ما يمكن أن يتعرضوا له هنا.. وبدأت الأحداث الفائتة تمر في عقله سريعا ابتداء من تجمعهم في كوخ الصياد.. وانتفض جسده على أثر قشعريرة قوية عندما تذكر شكل البحر الهائج.. لم يخفه وقتها إلا تلك الريح الباردة والتي تلاها الفوران المفاجئ لمياه البحر، وكأنهم قد تجاوزو ستارا خفيا يعزلهم عن بقية العالم.. ستارا هو الحد الفاصل بين المسافة المسموح بالإبحار فيها والممنوع منها..

اقشعر جسده مرة أخرى، فصرف تفكيره عن تلك الأحداث وراح يتأمل المكان على ضوء المشاعل.. كانت الأرض جرداء فعلا.. اختلطت فيها الرمال بالصخور المتناثرة، بينما بعض الحشائش تنبت هنا وهناك وكذلك جذوع أشجار لكنها ميتة.. لم يبد أن هناك حياة هنا وهو ما توقعه على كل حال.. لكن لماذا يرتجف من وقت لآخر رغم أنه بدل ثيابه المبتلة؟!

فرك هارون رأسه وقد أيقن أنه سيقتل نفسه توترا ورعبا إن طفق يفكر في كل صغيرة وكبيرة في هذا الليل، فقرر أن يأخذ جولة حول المكان ليستوقفه مريد متسائلا:

- إلى أين؟

تثاءب هارون وهو يرفع ذراعيه ثم يتمطى..

- سآخذ جولة في المكان كي لا أتجمد من البرد

هز مريد رأسه ثم التقط عودا خشبيا من على الأرض وراح يدفع بقطعة أخرى من الحطب لتلتهمها النيران، بينما أمسك هارون بالقنديل وبدأ بالتحرك.. لم يكن هناك ما يزيد على ما رآه قبل لحظات.. رمال وحشائش.. فأحس بالضجر وقرر العودة إلى مكانه قبل أن ينتفض على صوت صراخ..

رغم شدة إرهاقها إلا أن النوم لم يأتها سريعا؛ فكان جفناها يثقلان شيئا فشيئا حتى استسلمت للنوم بدورها..

كانت أحلامها عبارة عن رحلتهم البحرية التي أصابتها بفزع لم تعرف مثله من قبل.. وأصوات الأمواج كانت تملأ ذلك الحلم إلى أن بدأ صوت آخر يتداخل معها..

صوت تنفس هو للهاث أقرب.. ولم يكن لهاثا عاديا، بل كان بطيئا وثقيلا انتزعها من حلمها المزعج وأعادها لأرض الواقع.. أفاقت من نومها وهي لم تزل مغمضة العينين، وصوت اللهاث لم يتلاشَ على عكس ما توقعت.. فأرهفت السمع وفتحت عينيها ثم أدارت رأسها باتجاه رفيقتها النائمة حيث مصدر الصوت.. وعلى ضوء المصباح رأت أبشع كوابيسها متجسدا أمامها..

اتسعت عيناها هلعا وهي ترى ذلك الكائن بشع الخلقة والذي يجثم على صدر فجر في وضع القرفصاء.. فانطلقت من حنجرتها صرخة مدوية جعلت هارون يقتحم عليهما الخيمة.. ولما رفع القنديل ارتد فزعا لمرأى ذلك الكائن والذي رماه بنظرة كادت تجمد الدم في عروقه..

وفي تصرف تعجبت هند له فيما بعد.. هبت من مكانها ودفعت الكائن بقوة من فوق الفتاة النائمة والتي تصدر أنينا منخفضا.. استدار إليها الكائن المرعب لتتراجع للخلف فتعثرت وسقطت أرضا بينما تحرك هو نحوها ببطء..

لم تجد هند مفرا من أن تسرع إلى خارج الخيمة لتستدرجه بعيدا عن فجر.. فزحفت باتجاه الخارج وهو يتبعها بخطوات تتزايد سرعتها، فقام هارون بجذبها من ذراعها لإخراجها سريعا قبل أن يصل إليها ذلك الوحش.. وفور أن خرجا انطلق الوحش من الخيمة وواجههما وهو يصدر عواء مرعبا أقرب للزئير، وقد بدا مخيفا أكثر مع الإضاءة الصدارة من المشاعل..

كان النيام قد استيقظوا وخرجوا من مخادعهم ليشاهدوا العراك بين هند وهارون وبين ذلك الوحش.. بينما مريد يقف مذهولا لا يفهم شيئا مما يدور أمامه..

انحنت هند لتمسك بصخرة كما فعل هارون ورجمت الوحش بها بكل قوة.. فصرخ في وجهيهما بصوته المرعب ثم فر من أمام الجميع..

سقطت هند على الأرض وقد بدأت تدرك أن جسدها ينتفض وقلبها يتقافز في صدرها من الفزع.. ولا تدري كم مر من الوقت إلى أن سمعت صوت مريد يسأل عما حدث:

– ماذا كنتما تفعلان ولماذا كنتما تلقيان بتلك الصخور؟

رفعت هند عينيها إليه غير قادرة على الكلام.. لكن هارون رد عليه قائلا وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

– ألم تر بعينيك؟!

– أرى ماذا؟

– ألم تر ذلك الجاثوم؟

نظر إليه مريد بتعجب وقال:

– عم تتحدث يا هارون؟ لا يوجد شيء اسمه الجاثوم!

تبادل هارون وهند النظرات بينما تحدث تمام بصوت يخالطه النعاس:

– إن لم يكن هناك جاثوم فما الذي رأيناه بأعيننا؟

التفت إليه مريد وقد بدأ يشعر أن شيئا مريبا يحدث.. هل رأوا شيئا بالفعل أم أنهم يمزحون معه مزحة ثقيلة؟ أدار بصره فيهم حتى استقر على هند فانتفى الاختيار الأخير.. فأي مزحة تلك التي ستشترك فيها هند لتخرج أمام أعينهم مكشوفة الرأس؟! كما أن الرعب البادي على وجهها لا يمكن أن يكون تصنعا..

ساد الصمت لفترة قبل أن تهب هند من مكانها وهي تصيح باسم فجر.. ثم هُرِعت إلى داخل الخيمة لتطمئن عليها، وكاد هارون يلحق بها لولا أن مريد أوقفه..

– يكفي ما انكشف من عورات.. دعهما حتى يتسترا وإن طلبت إحداهما المساعدة سنقدمها

تراجع هارون موافقا صديقه ثم لاذ بالصمت..

- ألم تر ما رأينا يا مريد أم أنك تدعي ذلك محاولا تبرير خوفك منه؟

كانت الجملة من رعد بالتأكيد.. فالتفت إليه مريد وقال بهدوء كي لا يعطي رعد أية فرصة للشجار:

- أنا لا أدعي أو أبرر أي شيء.. فإن أردت أن تصدقني أو لا فلك هذا

ساد الصمت مجددا ليسمعوا صوت بكاء من داخل خيمة الفتاتين.. كانت هند تهدئ من روع فجر التي كانت تبكي وترتجف لما رأته في منامها بسبب ذلك الجاثوم ثم استيقاظها ورؤيتها له على أرض الواقع.. وفي الخارج كان هارون يقف متعجبا أمام صديقه.. لم يكن يكذبه لكنه أراد أن يفهم سبب عدم رؤيته له..

- مريد.. لعلك جئت بعد أن هرب الجاثوم لهذا لم تره

زفر مريد بنفاد صبر وقال:

- لقد قلت لك أنه لا يوجد ما يسمى بالجاثوم، فكيف تريدني أن أصدق أنه كان هنا؟!

وتركهم ثم عاد يجلس أمام النيران المشتعلة وقد دار رأسه.. أما البقية فقد راحوا يسألون هارون عما حدث بالتفصيل، ولما انتهى من إخبارهم قال سراج بقلق:

- هذا يعني أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد.. قد يعود ثانية أو يُحضر آخرين

- علينا أن نأخذ حذرنا إذن.. عودوا لنومكم وسأكمل نوبة الحراسة مع مريد

لكن رعد لم يتحرك وقال:

- كيف تريد منا أن ننام وذلك الخطر يتهددنا؟

قال هارون متسائلا:

- وماذا علينا أن نفعل؟

- أمامنا حل من اثنين.. إما أن ننتقل من هنا لموضع آخر، وإما أن نعود أدراجنا

نظر هارون إلى رعد ليجد علامات الجدية مرتسمة على وجهه.. ولأول مرة منذ بدأت هذه الرحلة يشعر أن كلامه به شيء من الصحة.. لكن كلا الأمرين لا يخلوان من خطر.. فانتقالهم لن يحميهم لأنهم في منطقة مكشوفة، إلا إن اختبؤوا بين الأشجار.. وعودتهم أيضا خطرة؛ فبعد ما رأوه في قدومهم صار التفكير في العودة مرهقا لعقولهم..

- لن نذهب لأي مكان وكفاكم جبنا

قالها مريد بضيق ليرد عليه رعد قائلا بتحفز:

- أنا لست جبانا، فالعساسين لا يخافون.. كما أن..

قاطعه هارون وهو يرفع كفه:

- الوضع لا يحتمل أي توتر يا رعد.. يكفينا ما نحن فيه..

وتابع بحسم:

- لم يتبق على الفجر إلا ساعات.. ستنامون الآن وغدا لكل حادث حديث

دخلوا أخيرا إلى خيامهم، لكن هيهات للنوم أن يعرف لهم طريقا مرة أخرى.. وفي الخارج جلس هارون بجوار مريد الذي لم يتكلم بعد ما قاله لرعد.. فقد راح عقله يطرح كل الاحتمالات لتفسير ما حدث قبل قليل لكنه لم يصل لشيء.. ولم يسأله هارون مجددا.. فرغم أنه يصدقه لكنه لم يفهم بعد لماذا لم ير مريد ما رأوه..

زفر بضيق ثم راح يخط على الرمال بسبابته بعض الخطوط ويمحوها في محاولة لقتل الوقت..

ولم تنم هند أو فجر أيضا.. ظلتا متيقظتين وقد شُحِذَت حواسهما رغم دوامات الأسئلة التي تدور في رأسيهما.. هل هناك المزيد منهم؟ هل سيعود الجاثوم؟ هل سيظهر لهم في النهار أيضا أم أنه لا يهاجم إلا في الليل؟

مئات الأسئلة التي لا نهاية لها وليس لها إجابات.. وبقيت الفتاتان ملتصقتان ببعضهما البعض وعقل هند يسترجع كل ما حدث مرارا وتكرارا..

وتعجبت بشدة لجرأتها تلك! هل كانت جرأة أم خوفا على حياة فجر.. أم حياتها هي؟! وإن تكرر الأمر فهل ستتصرف بنفس الطريقة؟

سرت في جسدها قشعريرة فطردت تلك الأفكار عن رأسها، وأخذت تفكر في ما يجب أن يفعلوه غدا حتى نامت.. ولم تستيقظ إلا على صوت مريد وهو ينادي عليها وعلى فجر.. انتفضت الفتاتان فزعا، لكن ضوء النهار كان يتسرب إلى الخيمة فشعرتا ببعض الراحة، وأسرعتا بتبديل ثيابهما ثم خرجتا من الخيمة..

كانوا قبيل الظهيرة بساعة أو اثنتين تقريبا، ورغم هذا فقد كانت الشمس دافئة وضوؤها يغمر كل شيء.. فمسحت هند المكان بعينيها لترى كل تفصيلة بوضوح.. الرمال والصخور المتناثرة والحشائش وجذوع الأشجار وتلة مرتفعة عند مرمى بصرها لم يرها أحدهم ليلا.. بالإضافة إلى جبال تحدهم من اليمين واليسار..

نادتها فجر لتأكل شيئا فانتبهت من تأملها واتجهت إليهم لتجد كل منهم يحمل صحنا به طعام مجفف وكوب من الماء.. لم تتذمر فهي لا تتوقع أكثر من هذا على كل حال.. وأخذت حصتها من الطعام من يدي فجر شاكرة ثم راحت تأكل في صمت..

- كيف حالكما الآن؟

التفتت الفتاتان إلى هارون الذي بدا عليه الإرهاق فأومأتا برأسيهما وقالت فجر:

- نحن بخير

أما هند فقد فركت عينيها ثم تابعت تناول طعامها، فراحت تعبث في صحنها لتخرج تمرة من التمرات الثلاث وتأكلها.. تتلذذ بحلاوتها لتنسى ليلة الأمس والتي ستظل محفورة في عقلها حتى الممات.. وبعد أن انتهوا من تناول الطعام تنحنح هارون لينتبهوا إليه ثم قال:

- بعد ما حدث ليلة الأمس علينا أن نفكر جديا بالتحرك من هنا.. المكان لم يعد آمنا.. ورغم هذا فقد أخطأنا عندما لم نجهز أسلحتنا فور وصولنا، ربما لأننا لم نتوقع هجوما مبكرا

كانت ملامح مريد تشي بأن الكلام لا يعجبه، لكنه لم يعقب..

- سأقوم أنا وتمام بتجهيز الأسلحة الآن

قالها رعد ثم نهض من فوره وجذب إحدى الحقائب ليبدأ ومن خلفه تمام.. أما سراج فقد قال:

- من الأفضل أن نحاول رسم خريطة للمكان قبل أن نتحرك، فذلك سيساعدنا كثيرا

هز هارون رأسه موافقا بينما قال مريد بعد صمت طال:

– فكرة جيدة.. ولأنك أنت وفجر أكثرنا دراية بطبيعة الأرض وهذه الأمور فسنوكل المهمة إليكما

ثم بدأ مع البقية بإزالة الخيام من مكانها استعدادا للمغادرة.. فنهضت هند من مكانها ولملمت حاجياتها سريعا ووضعتها في الحقيبة إلى جانب محتوياتها الأخرى لترى الكتاب الذي أعطاها إياه شهاب قبل مجيئهم.. كانت قد نسيت أمره تماما، فأخرجته من الحقيبة وأغلقتها جيدا بعد ما تأكدت أنها قد أخذت كل شيء..

كانت الحقيبة لا تزال ثقيلة، لكن حقائب الباقين لم تكن أخف من حقيبتها.. رغم أن زيد ولماح لم يأتيا معهما إلا أنهما قاما بمساعدتهم مما نال إعجاب مريد؛ فقد اختارا أفضل خامات الأقمشة للخيام كي لا تشغل مساحة كبيرة في الحقائب أو تضيف ثقلا.. وكذلك فعلوا مع أعمدة الخيام.. فحصلوا على أخشاب ذات نوعية جيدة مرنة وخفيفة الوزن.. وليتمكنوا من حملها دون أن تعيق حركتهم قامو بنشر كل عمود عرضيا إلى ثلاثة أجزاء يتم إعادتها إلى طولها الطبيعي بربطها عند نصب الخيام بحبال ومسامير..

أزال مريد وهارون آخر خيمة وقاما بطيها بعناية ووضعها داخل إحدى الحقائب.. ثم مرا على البقية ليتأكدوا من أنهم قد حزموا حقائبهم..

كان أيضا سراج وفجر قد انتهوا من عملهم برسم سريع لمعالم المكان.. فرسموا الشاطئ وحاجز الأشجار والمكان الذي يقيمون فيه وسلسلتي الجبال ثم تلك التلة.. أما رعد وتمام فقد وزعا الأسلحة عليهما وعلى مريد وهارون أيضا.. ثم تحركوا..

لحسن حظهم لم تكن الشمس حارة، فلم يصبهم العطش إلا بسبب ارتقائهم تلك التلة وبذلهم جهدا كبيرا في الصعود بسبب ارتفاعها.. لكن رغم ذلك ظلت قِرب الماء معلقة في مناطقهم لمدة طويلة..

كانت بعض الأحاديث تدور بين كل اثنين من حين لآخر إلا هند وغسان، واللذان كانا في ذيل المجموعة.. فغسان يمشي صامتا وكفه تقبض على مديته الحادة في جرابها.. وهند تقرأ في ذلك الكتاب بصعوبة بسبب الحركة.. وزاد من صعوبتها رداءة الخط ووجود بعض الكلمات المطموسة وانتشار بقع الحبر في عدة مواضع..

لكنها علمت أن ذلك الكتاب ليس خاصا بالعقاقير كما كانت تظن.. فأوله عبارة عن نصوص أدبية رديئة لا تدري من قام بتأليفها، فمرت عليها سريعا لتصل بعد عدة صفحات إلى موضوعات تاريخية.. تعجبت بشدة؛ فكيف لصياد مثل شهاب أن يحصل على كتاب تاريخي وهم لا يُسمح لهم من العلم إلا القراءة والكتابة والحساب فقط؟!

ارتقوا التلة أخيرا.. وهناك اتسعت أعينهم جميعا أمام ما رأوه.. كانت وراء التلة قرية كاملة لم يروها من قبل بسبب انخفاض الأرض التي أقاموا عليها.. لكن بدا لهم أنها خاوية على عروشها.. ففي وقت كهذا في مدينتهم تكون الشوارع أشبه بخلايا النحل لحركة الناس سعيا في معايشهم.. أما هنا فالمكان وكأنه مدينة أموات!

- عجبا.. هل كانت هذه الجزيرة مسكونة من قبل؟!

تساءل تمام مفصحا عن السؤال الذي يدور بعقولهم جميعا.. وكانت الإجابة هي الإيجاب بالطبع، لكن هذا كان منذ زمن على ما يبدو.. فعندما تحركوا بين البيوت المهدمة والتي كان بعضها طينيا وبعضها الآخر من الحجر.. بدا أنها مهجورة منذ عشرات السنين قبل أن يُولدوا هم أو ربما قبل أن يولد آباؤهم أو حتى أجدادهم..

أخرج سراج قطعة الفحم من جيبه ثم قال:

- طالما أننا وصلنا نهارا فسنتحرك أنا وفجر على الفور لمعاينة المكان ورسمه

هز مريد رأسها بينما يخلع كل من سراج وفجر حقيبتيهما ليبدءا بالعمل.. فكانا يتحركان في كل مكان، وينظران هنا وهناك ويتناقشان.. ثم اتخذا مجلسا بعيدا عن البقية وبسط سراج رقعته الجلدية ليضيف إليها بعض الخطوط كما

يراها على الطبيعة.. فزاد على الصورة الأولى تلك القرية، والتي كانت تحتل واديا متسعا يحده من الجهتين سلاسل من الجبال لا يُعرف ما وراءها..

وبينما هما منهمكان في الرسم كان البقية قد ألقوا بحقائبهم الثقيلة على الأرض ومريد يتحدث إليهم:

- اليوم سنحاول استكشاف هذه المنطقة بأكملها وإن كنت أظن أنه لا أحد في هذا المكان، وسنبحث عن آبار للمياه.. وإن لم يسعفنا الوقت فسنكمل غدا

جلس تمام على الأرض ثم مد ذراعيه خلفه واستند على كفيه ثم قال:

- لا بأس.. لكني سأرتاح قليلا؛ فقد مشينا مسافة طويلة

جلس مريد بجواره وهو يوافقه، ثم بدأ كل منهما ينشغل بشيء ما حتى انتهاء سراج وفجر من عملهما..

- تعال وبارزني يا مريد

التفت مريد إلى رعد الذي أخرج سيفه من غمده، فابتسم ثم قال:

- أتريد أن تخسر هذه المرة؟

ضحك رعد ثم قال:

- لست أنا من سيخسر

ونهض مريد من مجلسه ليبدءا بالنزال فورا بينما انتحت هند جانبا بحقيبتها ثم فتحتها وأخرجت منها بعض الأواني والقوارير الصغيرة وعلبة خشبية مبطنة تحوي قوارير زجاجية.. ثم أخرجت صرة ممتلئة بالأعشاب..

وضعت الأشياء على الأرض ثم راحت تبحث هنا وهناك عن بعض الحطب.. ووجدته قرب جذع نخلة ميتة فأحضرت بعضه وضمته لأغراضها الموضوعة على الأرض.. جلست متربعة أمامها ثم أخرجت عدسة زجاجية من العلبة الخشبية، قامت بوضعها فوق الحطب وهي تحاول تركيز أشعة الشمس في نقطة واحدة قبل أن تُحجب الإضاءة بجسد أحدهم.. رفعت رأسها لتجد هارون يتهيأ ليجلس أمامها..

- ماذا تفعلين؟

كان ينظر لما على الأرض بدهشة فقالت وهي تضع العدسة مرة أخرى فوق الحطب:

- أحضر بعض الأدوية

أشار للعدسة وهو يقول:

- أقصد هذا

ردت وهي تركز بصرها على ما بيدها:

- أشعل النار

عقد حاجبيه وهو لا يفهم كيف ستشعل النار دون قداحة! لكن حاجبيه تباعدا وارتفعا دهشة عندما رأى الدخان المتصاعد من نقطة تَجَمُّع الأشعة ثم اشتعال النار..

- كيف فعلتِها!

نظرت له هند بدهشة وهي تقول:

- ألم تشعل النار بالعدسات من قبل؟

هز رأسه نفيا فألقت عليه نظرة ساخرة وهي تتابع:

- ظننت أن الحكماء يعرفون كل شيء

عاد حاجبيه ينعقدان ضيقا من سخريتها ثم قال:

- لا يوجد إنسان يعلم كل شيء، فلا تتذاكي

كانت قد بدأت بالعمل لكنها رفعت عينيها إليه مجددا ورمته بنظرة ساخرة أخرى لم يرها فقد كان يتابع ما تفعل بفضول.. فلزمت الصمت ومضت تخلط الأعشاب ببعض الزيوت في وعاء معدني صغير، وضعت فيه ماسكا كي لا تحترق يدها من النار..

- هل هذا دواء أم سم تنوين وضعه في طعامنا!

كان صوت صليل سيوف المبارزة يصل إلى مسامعهما فقالت:

- لا أفكر في تسميم أحد.. فللأسف كلنا نحتاج لبعضنا هنا

رغم جدية كلماتها إلا أنها خرجت ممتزجة بمرارة وكراهية التقطها هارون على الفور، وربما لم يتعجبها لأنه يُكِنُّ ذات الكراهية لها وللآخرين عدا مريد..

زفر بملل ثم هم بالنهوض عندما استوقفته بسؤالها:

- ما اللعبة التي تلعبانها أنتما الاثنان؟

نظر لها بدهشة وهو يقول:

- ماذا تقصدين؟

تصاعد من المادة اللزجة في الوعاء بخار له رائحة عطرية ثقيلة، فأبعدته عن النار والتفتت إلى هارون قائلة وهي تنظر في عينيه مباشرة:

- أنت ومريد.. هل تخططان لشيء ما للتخلص منا؟

لم يفهم بعد ما ترمي إليه فتابعت:

- لا أصدق حتى الآن أن مريد لم ير الجاثوم ليلة الأمس.. صحيح أنني أثق بمريد لكني لا أثق بك.. ولأنك صديقه فربما أقنعته بخطة ما

عقد ذراعيه أمام صدره وراح يبادلها النظرات الغاضبة ثم قال أخيرا:

- طالما أنك لا تثقين بي فلن تصدقي أي جواب قد أعطيه لك..

ومال للأمام ليقترب من وجهها وهو يتابع:

- علي إذن توفير جهدي ووقتي لشيء نافع

ونهض من مكانه ثم نفض عباءته الرمادية الطويلة متعمدا ليتناثر التراب على وجهها، وتركها تتميز من الغيظ.. أرادت أن تنهض وراءه وتتشاجر، لكنها كظمت غيظها بصعوبة ثم التفتت إلى النار وواصلت ما كانت تفعل..

انتصف النهار وقد توقف رعد ومريد عن المبارزة وقد غمرهما العرق رغم برودة الجو، فقد سيطرت عليهما الحماسة في المبارزة.. أمسك كل منهما قربته ليجرع منها الماء بنهم، بينما هند تضع الدهانات وجرعات الأدوية التي صنعتها في علب صغيرة للاستعمال الفوري ثم أعادت كل شيء إلى الحقيبة..

- أنا أتضور جوعا

قالها مريد وهو يجلس على الأرض بجوار هارون الذي كان يمسك بقوسه يقلبه بين كفيه ثم قال:

- سننتظر فجر وسراج حتى ينتهيا من عملهما لنأكل جميعا

هز مريد رأسه ثم مال للخلف واستلقى على الأرض مغمض العينين، بينما هارون تتردد في عقله كلمات هند التي تفوهت بها قبل قليل.. لا أحد يصدق أن مريد لم ير الجاثوم.. حتى هو نفسه لا يصدق.. لكنه لا يكذبه أيضا لعلمه بكراهية مريد للكذب.. ما التفسير إذن؟

لم يفكر كثيرا فقد عاد سراج وفجر ليريا الجميع ما استطاعا رسمه في تلك البقعة، ثم بدؤوا بتناول الطعام.. كان طعاما مجففا أيضا؛ فلم يكن ممكنا إحضار أطعمة طازجة لئلا تفسد..

أمسكت هند بقطعة جافة من الخبز المنكه باليانسون وغمستها بالماء المعطر لتصبح لينة تحت أسنانها ثم أخرجتها من الكوب وأكلتها.. أما رعد فقد صاح باستياء:

– ما هذا؟ لم أتخيل في يوم ما أنني سأضطر لأكل الخبز بالماء كالفقراء

لوت هند شفتيها ولم تنظر إليه بينما قال مريد:

– أنت قلتها.. مضطر.. فلا تتذمر لأننا لا نملك سوى هذا الطعام

زفر رعد بحنق وأكل ساخطا، ومثله تمام فقد كان يأكل وهو يشعر بالاشمئزاز من الطعام..

– بعد أن ننتهي من الأكل سنتحرك؛ فما من شيء لافت للانتباه هنا

وافقه الجميع وبدؤوا بالتحرك بالفعل فور أن أنهوا تناول طعامهم.. وتقدمهم سراج وفجر هذه المرة وسبقاهم قليلا والبقية من خلفهم يتناجى كل اثنين منهم في أمر ما، وكالسابق بقيت هند وغسان وحدهما دون تبادل كلمة.. فراحت تنقل بصرها هنا وهناك لتشاهد أطلال القرية..

ولم يمض وقت طويل حتى سمعت صوت فجر وهي تصيح من بعيد:

- انظروا ماذا وجدنا

أسرعوا الخطى إلى حيث سراج وفجر وهي تشير إلى مجموعة من الأشجار ذات أوراق متدلية لامست الأرض، وكانت مختلفة تماما عن التي قابلوها أول ما أتوا إلى الجزيرة والتي أخبرهم سراج أنها أشجار البلوط.. أما هذه فكانت..

- هذا صفصاف

نطقت بها فجر وهي تتقدم يجاورها سراج ومن ورائهما البقية.. وبعد مسافة ليست بالكبيرة وجدوا جدولا مائيا مصدره أعلى الجبل والذي لا زال ممتدا على يمينهم منذ دخلوا الجزيرة.. كانت مياه الجدول تتحرك في مجرى صغير ممتد تحيط به أشجار الصفصاف على الجانبين وتتخلله بعض التجمعات الصخرية.. والمجرى كان ملتفا فلم يروا نهايته المختبئة خلف الأشجار كثيفة الأوراق..

كان المنظر رائعا على عكس القرية المهجورة خلفهم في مفارقة عجيبة..

- هل هذا ماء عذب؟

تساءل رعد بينما قالت فجر:

- أعتقد ذلك..

واقتربت من الماء ثم غرفت بيدها غرفة لتتذوقها فارتفع حاجباها وابتسمت وهي تلتفت لهم وتقول:

- أجل إنها مياه عذبة

بدا الارتياح على وجوههم خاصة بعد ما رأوا سمكا في الماء، وهذا يعني تنوعا جديدا لوجباتهم.. بدؤوا بملء قربهم التي لم يستهلكوا منها الكثير على أية حال.. وبعدما انتهوا قال مريد:

- أرى أن نقيم هنا اليوم ونكمل استكشاف المكان.. وسيساعدنا غسان بخبرته في صيد الأسماك للعشاء.. ما رأيك يا غسان؟

لهجة مريد اللينة كانت تحرج غسان كل مرة.. فلم يملك إلا أن يوافق..

- حتى الآن لم نجد أي شيء قد يشير لوجود آبائنا أو حتى لسبب الغارات التي تصيب مدينتنا

قالها تمام وهو ينصب إحدى الخيام مع هارون فرد عليه الأخير قائلا:

- ربما لو تقدمنا قليلا غدا فستتضح الصورة أكثر

بعد أن انتهوا قام كل منهم بوضع حقيبته داخل الخيام.. وقامت هند بإخراج الكتاب مجددا لتتابع قراءته بعناية هذه المرة.. فخرجت من الخيمة لتقرأ على ضوء الشمس التي كانت تتجه غربا في طريقها للأفول..

اتخذت من جذع إحدى الأشجار مسندا لها ثم شرعت في القراءة.. كانت الفقرات التاريخية تعرف الكثير منها.. فرغم أن دراسة التاريخ مقصورة على عائلات المحاربين والعساسين والحكماء فقط، إلا أن أباها كان يحضر لهم بعض الكتب خلسة من بعض المقربين منه من الحكماء، وذلك لتقرأها هي وأمها وأختها..

رفعت عينيها عن الكتاب وقد تذكرت أمها فجأة! كيف نسيت أمرها طيلة اليوم؟! ربما أربك عقلها ذلك الهجوم الليلي.. لكنها لم تستطع منع نفسها من الشعور بالذنب والخجل.. فلا بد أن أمها قد أصابها الفزع بعد ما قرأت الرسالة التي تركتها..

أطلقت زفرة حارة وقد اعتراها الحزن ثم حاولت صرف تفكيرها لشيء آخر.. فلا جدوى من الندم الآن على ما فعلت.. يجب أن تركز جهدها الآن في المهمة التي أتوا من أجلها..

كانت عيناها تنظران للاشيء عندما دخل غسان مجال بصرها عاري الجذع وهو عائد من الجدول.. اتسعت عيناها وقد صدمها مظهره، واحمر وجهها فأسرعت بدفنه في صفحات الكتاب.. وبعد لحظات لمحته بجانب عينها وهو يتجه للجدول ممسكا بثوب له..

كانت تأمل أنه لم يرها وهي تنظر إليه رغم أنها لم تطل النظر.. ورغم ذلك فقد تمكنت من التقاط الوشم المرسوم أعلى يسار صدره.. كان بلون أزرق داكن على هيئة سمكتين تأكل كل منهما ذيل الأخرى وقد شكلتا دائرة تحيط بهلال يحيط بدوره بأمواج.. ما استطاعت رؤيته من تلك المسافة كان السمكتين وحسب..

ورغم أنها رأت وشم الصيادين مرارا بحكم عملها السابق في قسم الجراحات.. إلا أنها لم تكف عن الاستغراب من ذلك القانون؛ فقد أخبرتها إحدى زميلاتها في قسم الولادة أن الأطفال يتم وشمهم بعد ولادتهم بيوم أو يومين وتحت إشراف أحد الممثلين القانونيين في الوحدة.. ولا فرق بين مولود للعساسين أو المزارعين أو غيرهم.. ولكم شعرت بالألم لأولئك الأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة والمخرز الطبي يثقب جلودهم الغضة ليضع علامة ستلازمهم أبد الدهر..

لم تر تلك العملية من قبل لكنها تعرفها بالطبع، فالوشم الأولي لم يزل مطبوعا في جلدها.. علامة صغيرة في باطن الفخذ تشير للعائلة التي ينتمي إليها الطفل حتى يُتم عامه الرابع عشر فيتم رسم الوشم التفصيلي أعلى يسار صدره.. أما الإناث فكانت وشومهم تُرسم أعلى الذراع الأيسر..

وبتلقائية وجدت كفها يمتد لأعلى ذراعها تتحسسه وكأنها ستشعر به.. وشم ذو لون أحمر قانٍ له شكل هاون ومدقة به مسحوق ما، ويجاوره قنينة

صغيرة مخصرة لها غطاء يشبه شكل ورقة الشجر.. بداخلها سائل أحمر يملأها للمنتصف، ويحيط بالاثنين دائرة من أوراق عشبية مختلفة..

تنهدت بأسى وهي تتساءل.. متى ستختفي تلك العادات والقوانين التي لا فائدة منها؟!

نداء من بين أوراق الصفصاف

أظلمت السماء تماما فأغلقت هند الكتاب واقتربت من النار التي أشعلها مريد للتدفئة.. وإن هي إلا لحظات حتى تجمع البقية حول النار.. ثمانية أشخاص أتوا لأجل مهمة واحدة مشتركة.. لكن بعضهم تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى!

تمدد بعضهم على الأرض وانخرط البعض الآخر في الحديث.. حتى هند تبادلت الأحاديث مع فجر وقد تقاربتا بعض الشيء لأنهما الفتاتان الوحيدتان في المجموعة، كما أن المزارعين كما المعالجين.. مهضومة حقوقهم على الدوام.. ولعل هذا الذي منع الكراهية من أن تنبت في قلب إحداهما تجاه الأخرى..

بدأ حديث بعضهم يتحول لضحك فلم يسمعوا في البداية ذلك الصوت.. لكنه بدأ يتعالى حتى وصل لأسماعهم فبدؤوا ينتبهون واحدا تلو الآخر..

- سرااااااااج!

قفَّ شعر رؤوسهم عندما سمعوا ذلك الصوت.. صوت أنثوي ساحر يأتي من الظلام..

- سرااااااااج!

هب سراج واقفا وراح ينظر بعينين زائغتين في اتجاه أشجار الصفصاف حيث يصلها بعض الضوء الصادر من المشاعل التي غرسوها في الأرض..

- إنها تناديني

قالها سراج وبدأ بالتحرك نحو الأشجار لينهض هارون فجأة من مكانه ويمسك به وهو يصيح فيه:

- إياك والذهاب إلى هناك أيها المجنون

- سراااااااااج!

تكرر النداء للمرة الثالثة ليدفع سراج هارون بعيدا ويركض نحو الأشجار، فركض هارون خلفه والبقية في عقبه..

دخل سراج بين الأشجار متجها إلى جدول الماء، وسرعان ما لحق به هارون وأمسكه مجددا وهو يجذبه بعيدا بينما الآخر يجاهد ليتخلص من تقييد هارون له..

- ما الذي يحدث؟! لم ركضتم كالمجانين؟!

التفت الجميع إلى مريد بينما بدا على سراج أنه لم يسمعه فصاح بغضب:

- اتركني يا هارون.. إنها تناديني

- من التي تناديك؟! لا يوجد أحد هنا غيرنا

صاح فيه مريد بغضب هو الآخر بينما أعين الجميع تتنقل بينه وبين سراج في حيرة وقلق وخوف..

تكرر النداء قويا هذه المرة فنظر سراج باتجاه الماء وهو لم يزل في محاولاته للتملص منه ليراها.. ولم يكن وحده فقد رآها البقية أيضا ليدب الخوف في قلوبهم.. امرأة فاتنة وجهها يضيء كالبدر لتظهر ملامحه جلية رغم الظلام الذي يلف المكان..

- ستندم إن لم تتبعني

قالت كلماتها بصوتها الساحر فصاح هارون وهو يخرج خنجره من غمده ويلوح به مهددا:

- اغربي عن وجوهنا.. لا أحد سيتبعك منا أيتها الشيطانة

ثم جذب سراج بقسوة بعيدا عن المكان بينما ضحكات المرأة تتردد في المكان وهي تتحرك باتجاه الجدول..

- لن أتركك.. ستأتي إليّ يوما ما

ودخلت الماء لتختفي تحت سطحه تماما!

جاهد هارون ليخرج سراج من المكان وبعد ما وصلوا إلى مكان مبيتهم أفرغ قربة الماء على رأس ذلك الأخير وهو يقول بحنق:

- أفِق أيها الأحمق

عاد الجميع لينظروا إلى سراج الذي كان يمسح الماء عن وجهه وعينيه كي يرى جيدا ثم قال بصوت خافت:

- هل رحلت؟

ارتمى هارون أرضا وقال وهو يلتقط أنفاسه:

- أجل

تنفس سراج الصعداء ثم أغمض عينيه وهو لا يصدق أنه نجا..

- هل يمكن أن تشرحوا لي ما يحدث؟!

فتح سراج عينيه ونظر إلى مريد وكذلك فعل الآخرون..

- ما الذي تريدنا أن نشرحه لك؟ ألم تسمع وترى؟

التفت مريد إلى رعد وقال وقد بدأ صبره ينفد:

- نعم لم أسمع أو أرى.. فهلّا تكرمت علي بالتفسير

نهض هارون واقترب من مريد وهو يقول:

- هذا ليس وقتا مناسبا للمزاح.. الرجل كان سيقع فريسة للنداهة لولا أننا أنقذناه.. ما الذي لا تفهمه؟

نظر له مريد بدهشة وقال:

- نداهة؟!

وتابع باستخفاف:

- أتصدقون هذا الهراء؟ إنها مجرد أساطير لا أصل لها إلا خيال الجدات

حملق به الجميع بينما هارون يقول وشعور غريب يراوده:

- مريد.. لعلك لم تسمعها رغم أننا سمعناها جميعا.. ولكن ألم تر وجهها؟ لقد كان واضحا رغم الظلام

شعر مريد بالضيق فقال:

- ومن قال لك أن الجميع سمعوها أو رأوها؟

- أنا سمعت صوتها ورأيتها

التفت مريد إلى فجر التي كان الخوف لم يزل باديا على وجهها، لينقل بصره إلى تمام الذي قال:

- وأنا أيضا

وأكد البقية صحة قول هارون ليقف مريد مبهوتا..

- لا بد أنكم تتخيلون.. لا يوجد ما يسمى بالنداهة فكيف تدعون أنكم رأيتموها؟ وإن كانت حقيقة فلماذا لم أرها أنا؟

- لأنك تكذب!

صاحت بها هند لتشعر بالندم في الحال وتلين لهجتها قليلا وهي تقول:

- أعني.. لا أقصد أن..

وتنحنحت وهي تتجنب النظر إلى عيني مريد ثم قالت:

- أعني أنك ربما تدعي ذلك كي لا تزيد من خوفنا

اقترب منها مريد لتتراجع خطوة للوراء وقد تملكها التوتر..

- أنا لا أكذب يا هند..

كانت الخيبة تطل من نظراته فازداد شعورها بالندم والخجل فلزمت الصمت، بينما مريد يدور على عقبيه ويقول موجها كلامه للبقية:

- لا أدري إن كنتم قد اتفقتم على هذا الأمر من قبل أم أنكم تهذون.. لكني لم أر أو أسمع أي شيء مما تدعونه، ولا أريد أي اتهامات أخرى

وتركهم ثم ابتعد عن المكان بينما ظل البقية واقفين وكأن على رؤوسهم الطير.. لكنهم في النهاية تحركوا إما للخيام أو للجلوس بالقرب من النار..

لكن القلق بدأ بالتسلل لهارون.. هل حقا تخيلوا ما حدث؟! هل يوجد شيء ما بمياه الجدول أصابهم بهذيان جماعي؟ لكن لو كان ذلك صحيحا لأصيب مريد بدوره فقد شرب معهم حتى ارتوى.. كما أن ذلك الاحتمال تهاوى بسبب ما حدث ليلة الأمس عندما أنكر رؤيته للجاثوم أيضا..

فرك هارون جبهته وقد بدأ يشعر بالصداع.. صديقه لا يكذب بالتأكيد فلو كذب بالأمس لم يكن ليكرر الكذبة لكيلا يثير الشكوك حوله، خاصة وأن الأحقاد والضغائن متجذرة في قلوب بعضهم تجاه البعض الآخر..

أخرجه من شروده صوت رعد وهو يضحك مع تمام.. كانت ضحكاتهما مبالغ بها ليقول بعدها رعد:

– يظن أنه سيثبت شجاعته أمامنا بهذه الطريقة

نهض هارون من مكانه واتجه إلى رعد وهو يقول بتحفز:

– بم تتمتم أيها الغبي

نهض رعد بدوره وهو ينظر إليه وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

– الغبي هو صديقك الذي لا يتوقف عن الكذب منذ الأمس

اقترب منه هارون وهو يقول بلهجة محذرة:

– إياك أن تتفوه بحماقة أخرى وإلا فلن يوقفك إلا هذا

شهقت هند عندما رأته يخرج خنجره الذي لمع نصله على ضوء النيران.. فقام سراج مسرعا ليبعد هارون عن رعد قبل أن يحدث ما لا تُحمد عقباه وهو يقول:

– اهدأ يا هارون وتعقل.. لا تدع غضبك يقودك إلى المهالك

نظر له هارون بغضب ثم دفعه من طريقه وتحرك بعيدا عنهم جميعا، ليعود رعد لمجلسه وهو يقول بصوت عالٍ ليسمعه هارون:

– لا تهدد مرة أخرى إلا بما تقدر على تنفيذه

لم يلتفت هارون إليه؛ فقد كان يجاهد بقوة كي لا يعود ليدق عنق رعد.. فابتعد عن المكان قدر المستطاع كي يستجمع هدوء أعصابه مرة أخرى..

- ألا يمكنك أن تخرس ولو لمرة واحدة؟!

صاحت هند في رعد وهي تشعر بالتقزز منه.. ثم أولته ظهرها ودخلت إلى خيمتها بينما كلماته تلاحقها:

- ستندمين على كلامك أيتها الحمقاء

قالها باستهزاء لكنها لم ترد هي الأخرى.. كانت تحترق غضبا ولو عادت إليه لأحرقته بنارها تلك.. لكنها آثرت الصمت حتى حين..

انحنى هارون ليلتقط حجرا من على الأرض ثم قام بإلقائه بعيدا بكل ما يملك من قوة.. سمع صوت الحجر وهو يصطدم بالأرض بسبب سكون المكان من حوله..

أمسك بحجر آخر وكرر ما فعل عدة مرات مفرغا غضبه في تلك الأحجار بدلا من أن يقتل رعد.. كان يكرهه من البداية لكن كراهيته له تضاعفت بسبب ما قال قبل قليل.. وبدا له أنها ستستمر بالتضاعف لتنتهي أخيرا بقتل أحدهما للآخر..

زفر بغضب وألقى بحجر آخر ثم تراجع ليستند إلى جدار أحد البيوت المهدمة وهو يحول مسار أفكاره إلى مريد لتعود إليه الحيرة والقلق..

ولم تسلم هند بدورها من الحيرة.. هي تعلم جيدا حسن أخلاق مريد فهما يعملان في مكان واحد منذ أربع سنوات.. صحيح أنها لم تختلط به كثيرا لكن جميع العاملين بوحدة التمريض يذكرونه بخير دوما ودون مداهنة..

زفرت بضيق ثم أزاحت الغطاء الذي تتدثر به وأخرجت الكتاب لتقرأ فيه وتشغل عقلها بشيء آخر.. لكن صوت رعد وضحكه هو وتمام وصل لأذنيها فأعاد إليها غضبها.. ولو كان ممكنا لأخذت الخنجر من يد هارون وقتلت رعد بنفسها..

إنها تكرهه كما تكره جميع العساسين.. فهم في نظرها ليسوا أكثر من مجرمين بترخيص قانوني.. كما أن الحكماء لم يكونوا أفضل منهم والدليل أن ذلك الأحمق تمام كان يضحك كالأبله على سخرية رعد من مريد الذي يربطه به دم واحد لانتمائهما لنفس العائلة..

دخلت فجر إلى الخيمة لتقطع حبل أفكارها ثم جلست قبالتها وهي تقول:

- دعك من ذلك المعتوه ولا تلقي له بالا

ابتسمت هند رغما عنها لكلمة "المعتوه"، لتبتسم فجر بدورها وتربت على

ساقها وهي تتابع:

- ما رأيك بشرب كوب من النعناع؟

أومأت هند برأسها لتنهض فجر وتخرج من الخيمة ثم تعود بعد فترة وبيدها كوبين يتصاعد منهما البخار أعطت أحدهما لهند وهي تقول:

- لقد أخذ صديقه الأحمق ليثرثرا بعيدا..

هزت هند رأسها..

- لا تفسدي مزاجك بسببه

- لقد أفسده بالفعل

ابتسمت فجر وقالت:

- النعناع سيصلح كل شيء

وغمزت لها بعينها بينما ارتسمت الابتسامة على وجه هند هي الأخرى.. فرشفت فجر من الكوب وقامت لتبدل ثيابها..

أما هند فقد عملت بنصيحتها وقالت محاولة استعادة هدوئها:

- ما شكل الوشم الخاص بكم؟

كانت فجر قد خلعت ثوبها الخارجي فاقتربت منها وقالت وهي تريها ذراعها:

- سنابل قمح..

قربت هند عينيها من ذراع رفيقتها لترى ثلاث سنبلات متعانقات أحيطت جميعها بقرص الشمس..

- وأنتم؟

سألتها فجر وهي تتراجع قليلا لتواصل تبديل ثيابها.. فأدارت هند رأسها كي تعطي الفتاة بعض الخصوصية وقالت:

- سأريك إياه وأنا أبدل ثيابي

- لا بأس

انتهت فجر ثم عاودت الجلوس بالقرب من هند وراحت تثرثر معها.. تحدثتا عن توقعاتهما لمهمتهم، ثم تطرق الحديث لأهل كل منهما، فعرفت منها هند أن لها أَخَوان توأمان لكنهما لم يبلغا الخامسة من العمر بعد..

وانقضى الوقت وقد تبدل حال هند.. فصحبة فجر كانت تسري عنها كثيرا.. وبعد مدة من الحديث قامت هند بتبديل ثيابها هي الأخرى وراحتا تتحدثان عن تلك الوشوم مجددا حتى سمعتا صوت غسان مصحوبا برائحة السمك المشوي، يدعوهما لتناول الطعام.. فأسرعت هند بلبس بقية ثيابها لتسبقها فجر للخارج ثم تلحق بها هند بعد أن انتهت..

خرجت لتجد غسان يوزع عليهم حصصهم من الطعام المعتاد إضافة للسمك الذي اصطاده قبيل الغروب.. كان يتحرك وهو جامد الوجه كعادته..

ولم تستغرب ذلك كما لم تستغرب صمته الدائم معظم الوقت؛ فغسان يُعتبَر في عرف الترتيب الطبقي لمدينتهم واحدا من قاع الهرم الاجتماعي هو وعائلة الصيادين برُمَّتها.. وكانت تعلم أنه لا يحمل في قلبه لهم إلا الكره.. حتى لها هي وفجر وسراج؛ فهم أعلى رتبة ولهم امتيازات وحقوق أكثر منه رغم أنهم يقبعون تحت ظلم الرتب العليا وظلم التجار أيضا، والذين كانوا يتعالون عليهم مدّعين أنهم المتحكمون في أرزاقهم..

أخرجها من شرودها غسان وهو يعطيها صحنها.. فشكرته وراحت تأكل وهي تتابعه ببصرها.. لكنها شعرت بالخجل خاصة عندما تذكرت رؤيته قبل ساعات وهو عائد من الجدول..

- إلام تنظرين؟

انتبهت هند على صوت فجر فنظرت إليها لتجدها تقول بابتسامة ماكرة:

- لا ألومك.. فهو وسيم بحق

ضربتها هند في كتفها لتتأوه فجر ثم تضحك، لكنها لم تر احمرار وجه هند بسبب ضعف الإضاءة.. كانت فجر محقة فغسان كان وسيما وقوي البنية وهو ما لم تعتده في عائلة الصيادين.. فالسواد الأعظم منهم مصابون بإعاقات ذهنية أو جسدية أو أمراض مزمنة كالربو.. أما الأصحاء فقد كانوا

يصابون بأمراض من حين لآخر بسبب أعمالهم الشاقة وانعدام النظافة في مساكنهم..

كانت قد رأت الكثير منهم يترددون على وحدة التمريض ثم يذهبون إلى قسم العقاقير ويرحلون ولم يحصلوا إلا على صنف واحد من الأدوية التي وصفت لهم.. وذلك لفقرهم الشديد.. عندها كانت تلاحظ إعاقاتهم التي لم تفهم حتى الآن لماذا تصيب أغلبهم، بينما المصابين بمثلها من بقية العائلات أعدادهم قليلة جدا لا تكاد تُذكر! فبرز تساؤل في عقلها.. هل هناك عامل وراثي ما يجعلهم يتشاركون تلك الإعاقات؟

قطع تفكيرها صوت هارون الذي عاد للتو وهو يسأل سراج عن حصته في الطعام، ليشير ذلك الأخير إلى صحنه الذي وضعه غسان جانبا.. فأخذ هارون الصحن وراح يأكل وهو يرمق رعد بغضب صامت.. وتعجب أن مريد جالس هو الآخر دون أن يضايقه رعد بالكلام على عكس ما توقع.. فقد ظن أنه سيجره إلى الحديث مجددا ليثير غضبه..

أنهوا طعامهم ثم عاد كل منهم لما كان يفعل، وبقي هارون ومريد وحدهما أمام النيران التي تأكل الحطب كما تأكل الكراهية والغضب صدورهم..

– أنا أصدقك يا مريد

التفت إليه مريد ونظر إليه مطولا ثم عاد ينظر إلى النيران ويقول:

– أعلم أنك تصدقني

وقبل أن يقول شيئا آخر خرجت هند من خيمتها لتجد مريد جالسا، فاقتربت منه بتردد ثم جلست بجواره ولم تتكلم.. بل راحت تقلب صفحات الكتاب بين يديها بعبثية ثم أغلقته..

- أنا..

خرج صوتها مبحوحا فتنحنحت ثم قالت:

- أنا أعتذر.. لم أكن أقصد ما قلت.. لكن..

وسكتت وهي لا تعرف بم ستبرر موقفها.. لكنها وجدت مريد يستدير إليها بجسده كله ويقول:

- لم أتوقع أن يصدر ذلك الكلام منك أنت بالذات يا هند

أصابتها كلماته بالحرج الشديد فنكست رأسها ليسود الصمت إلا من صوت طقطقة الخشب الذي تحرقه النيران.. وبعد مدة قالت بصوت خافت:

- صدقني لم أكن أقصد.. لكن الموقف كان مربكا..

وأخذت نفسا عميقا ثم قالت:

- أنا أعتذر لك مرة أخرى

هز مريد رأسه وهو يقول:

- لا بأس يا هند.. انسي الأمر

شعرت أن ثقلا قد أُزيح من على صدرها فتنهدت براحة ثم فتحت الكتاب لتستأنف القراءة.. بينما هارون يتحدث مع مريد حتى اقترب الليل من منتصفه، وعاد رعد ورفيقه ليدخلا إلى خيمتهما دون إلقاء التحية على أحد من الثلاثة..

زفرت هند بضيق لما رأته وأغلقت الكتاب ثم قامت وهي تقول موجهة كلامها لمريد:

- تصبح على خير

- تصبحين على خير

ودخلت إلى خيمتها ليبقى هارون ومريد وحدهما..

داهمت هند الكوابيس لتستيقظ فزعة من نومها وتعتدل جالسة.. تلفتت حولها ظنا منها أنها ستجد الجاثوم مجددا.. لكن الخيمة لم يكن بها سواها هي وفجر والتي كانت نائمة بعمق..

تنهدت ومسحت وجهها بكفيها ثم عادت للاستلقاء.. لتتوالى أحداث اليوم في رأسها حتى تسلل النوم إليها أخيرا.. وفي الصباح أفاقت على صوت سراج ينادي باسمها هي وفجر، فقامت الفتاتان وبدلتا ثيابهما ثم خرجتا من الخيمة لتناول الإفطار..

كان رعد يجلس مع رفيقه كما بالأمس.. لكن لم يلق أحد له بالا؛ فآخر ما كانوا يريدونه هو شجار في بداية اليوم..

أنهوا إفطارهم ليُعلِمهم مريد أنهم سيستأنفون المسير، فأزالوا الخيام ثم جمع كل منهم أغراضه وبدؤوا بالتحرك.. لكنهم كانوا صامتين معظم الوقت؛ فأحداث الأمس لم يزُل أثرها بعد..

- ألا تنتهي هذه القرية؟

تساءلت هند بضجر وهي تلهث بعد ساعة من المشي وارتفاع الشمس في كبد السماء.. كانوا قد قطعوا مسافة كبيرة فتوقفوا بعض الوقت للراحة..

وضعوا عنهم أثقالهم التي يحملونها على ظهورهم ثم جلسوا.. وبعد قليل وصل إليهم سراج وفجر اللذان كانا يتوقفان كل حين لمعاينة المكان وإضافة رسم جديد..

جلست هند وأسندت رأسها لجدار أحد البيوت ثم أغمضت عينيها.. وبعد مدة فتحتهما وراحت تنظر حولها وتتساءل عما تخفيه تلك الجبال المحيطة بهم من الجانبين.. هل يمكن أن يكون آباؤهم في مكان ما خلفها؟ أم أنهم في مكان آخر.. وإلى أي مدى ستمتد أشجار الصفصاف التي تنتشر على طول القرية من بدايتها..

لمحت هارون يتجه إلى الأشجار وهو يسألهم إن كان أي منهم يريد أن يعيد ملأ قربته.. فنهضت من مكانها لتطلب منها فجر أن تأخذ قربتها لتملأها لها، فأخذتها واتجهت معه إلى الجدول ليتحركا بين الأشجار حتى وصلا لمجرى المياه.. فخلعت هند حذاءها ورفعت عباءتها لتدخل إلى المياه.. لكن هارون أوقفها قائلا:

- إلى أين؟

نظرت له بدهشة وقالت:

- سأملأ القربتين بالماء

هز رأسه وقال وهو يمد يده:

- أعطني إياهما سأقوم أنا بهذه المهمة

لم تجادله وأعطته القربتين ليدخل هو بدلا منها ويملأ الاثنتين ثم يملأ قربته ويعود.. استغلت هي الوقت فجثت على ركبتيها لتغسل وجهها مزيلة بعض أثر الإجهاد.. وعاد هارون واضعا القرب الثلاثة أرضا ثم غسل وجهه بدوره..

رفعت رأسها ووجهها يقطر ماء ونظرت إلى هارون بصمت وسؤال يدور برأسها.. هل تسأله عما حدث بالأمس؟ وكأنما قرأ هارون أفكارها فقد بادرها بقوله:

- لا تنظري إلي.. فأنا لا أملك تفسيرا بدوري عما حدث

زفرت بضيق بينما هو يتابع:

- ومريد لم يتحدث في الأمر مجددا..

ونهض من مكانه وهو يرفع القرب من على الأرض قائلا بلهجة أزعجتها:

- وأنا أصدقه فلا داعي أن يصور لك خيالك أوهاما عن مؤامرة أحيكها.. كما أنني لن أضع صديقي في موقف محرج قد يسبب له المشكلات

رغم أسلوبه الهجومي في الكلام لم تملك إلا أن تصدقه.. مريد وهارون صديقان حميمان يثق كل منهما بالآخر وهذا واضح للجميع..

تحرك هارون عائدا إلى حيث يجلس الباقون وتبعته هند في صمت.. ولما وصلت إلى مجلسها قررت ألا تفكر في هذا الأمر مجددا وهي تأمل ألا يتكرر ما حدث بالأمس..

انتهت راحتهم واستأنفوا المسير مجددا ليتضح أمامهم على بعد حاجز جديد من أشجار البلوط..

- ألن نجد في هذا المكان اللعين سوى الأشجار والقرى المهجورة؟!

قالها رعد بحنق فقال تمام معقبا:

- ربما لن نجد إلا الجانب الآخر من البحر وبهذا تنتهي رحلتنا.. ولعل آباءنا قد غرقوا أثناء عودتهم ولم يظهر لنا منهم إلا والد رعد

لم يعلق أحد على كلامهما وتقدم مريد ثم تبعه البقية.. كان الحاجز كثيفا كسابقه، لكن كونهم يسيرون بالنهار جعل الأمر أسهل بكثير عن ذي قبل..

لكن ما وجدوه في النهاية كان قرية مهجورة أخرى!

وقفوا أمام الأطلال وقد أصابهم اليأس في مقتل.. فقد راودهم جميعا شعور واحد بأن جهودهم ذهبت سدى.. ولعل آباءهم قد ماتوا غرقا بالفعل أو أنهم ضلوا طريقهم فلم يصلوا لهذه الجزيرة..

لكن رعد كعادته لم يصمت..

- ماذا سنفعل أيها القائد الهمام؟

التفت إليه الجميع وقد ظهر الضيق على وجوه بعضهم فقال مريد:

- هذا ليس وقت السخرية.. وسكوتي عن اعتراضك وتذمرك الدائم لا يعني أنني سأتغاضى عنه كثيرا

- حقا؟ ألقيت بنا في هذا المكان الخرب ولا تريد مني أن أسخر..

قاطعه هارون بقوله:

- لقد كنت تعرف أننا قادمون لمكان مجهول، ولم يملك أي منا أية فكرة عما سنواجهه هنا

وافقته هند بقولها:

- هذا صحيح.. كما أن مريد لم يجبرك على المجيء.. فقد كنت أكثرنا تحمسا لاختلاف ظروف والدك عن آبائنا

اقترب منها رعد وهو يقول ناظرا إليها باحتقار:

- من سمح لك بالتعقيب على كلامي والتحدث معي بهذه الطريقة؟ يبدو أنك تفتقدين جرعة الإهانة التي كنت تتلقينها في الوحدة

- رعد!

صاح مريد غاضبا وهو يتقدم إليه حتى وقف في مواجهته وهو يتابع:

- إياك أن تتطاول أنت أو غيرك عليها أو على أي شخص هنا..

وتابع قاطعا على رعد فرصة الرد:

- إن رأيتم أن نخيم هنا فلكم هذا

رد رعد بغيظ:

- كلا.. أنا لا أرى هذا.. فلنكمل السير حتى نرى ما نهاية هذه الرحلة المشؤومة

رماه مريد بنظرة نارية بينما قال هارون بتحدٍ:

- لا بأس.. أنا موافق.. سنواصل السير ولن يأكل أحدنا أي طعام حتى تغيب الشمس

لم يرد رعد عليه بل نظر إليه بضيق ثم تركهم معاودا السير كما اقترح.. ولم يعترض أحد منهم، فقد كانوا يعتبرون أن هذا عقاب لرعد على لسانه السليط.. لكن هند كان لها رأي آخر..

- لماذا نعاقب أنفسنا مع ذلك الغبي؟ إن كان يريد المواصلة دون أن يرتاح أو يأكل فليذهب إلى الجحيم

لكزتها فجر في كتفها وهي تقول هامسة:

- لا ترفعي صوتك فيسمعنا وينشب شجار جديد.. كما أنه يمكننا تحمل الجوع بعض الوقت طالما أننا سنرتاح في النهاية

نظرت لها هند بغيظ وهي لا تفهم.. أي منطق هذا الذي يجعلها تتحمل عقاب شخص آخر لخطأ ارتكبه.. وحولت بصرها لهارون وهي تشعر بالغيظ منه هو الآخر لوضعه إياهم في هذا الموقف.. زفرت بضيق ثم تركت فجر وتأخرت قليلا لتمشي خلفهم وحدها..

وبعد ساعة أخرى توقفت هند وهي تصيح فيهم:

- هذا يكفي.. لن أواصل المشي دون راحة أو طعام..

توقف الجميع والتفتوا إليها بينما وجهت هي كلامها لهارون متابعة:

- كما أنني لن أستمر في تقبل هذا العقاب الجماعي بسبب خطأ من شخص.. هذا ليس عدلا يا من تدعي أنك تطبق العدالة

قال هارون وقد استفزته جملتها الأخيرة:

- ليس هذا وقت الشجار كما أنني لست مستعدا له.. لكنني أعدك أن أحقق رغبتك في الشجار عندما تسنح الفرصة

- إنها محقة يا هارون.. هذا يكفي..

نظر هارون لمريد بضيق ليتابع الأخير:

- سننصب الخيام هنا فالشمس قاربت على المغيب

لم يعترض أحد فقد نال منهم التعب والجوع.. فقاموا بتوزيع الطعام أولا قبل نصب الخيام.. ثم اتجهوا للجدول الذي يمتد كل تلك المسافة إلى هذه القرية.. وبينما هم يملؤون قربهم ويغسلون وجوههم لمحت هند شيئا ما..

- ما هذا؟

انتبهت لها فجر التي كانت على مقربة منها ونظرت إلى حيث تشير هند لتجد أشجارا على الضفة الأخرى لكنها تبعد عنها بمسافة لا بأس بها..

تساءلت هند مجددا:

- هذه الأشجار تبدو مختلفة.. هل يمكن أن تكون بداية طريق جديد؟

- تعالي لنرى

قالتها فجر ثم أشارت لسراج واتجه ثلاثتهم إلى حيث تلك الأشجار ليقول سراج بدهشة:

- إنها أشجار برتقال!

ظهرت الدهشة على وجه هند لكنها سرعان ما تحولت إلى سعادة غامرة، وعادت راكضة إلى حيث البقية تخبرهم بحماسة عما وجدوه ليلحقوا بها على الفور..

- انظروا!

قالت هند وهي تشير إلى إحدى الأشجار المثمرة فقال رعد مبتهجا:

- أخيرا سنضيف شيئا جديدا للطعام بدلا من ذلك الطعام المقزز

أما مريد فقد سأل سراج عما إذا كانت صالحة للأكل..

- إنها..

لم تكمل فجر جملتها عندما لكزها سراج خفية وهو يقول:

- إنها جيدة

التفتت فجر إلى سراج الذي رمقها بنظرة ذات مغزى، فابتلعت كلماتها ولزمت الصمت.. بينما انطلق سراج يقطف بعض الثمار بمساعدة بعضهم..

غربت الشمس وكانت حصيلة قطافهم لا بأس بها.. فعادوا إلى حيث نصبوا خيامهم ثم بدؤوا بتوزيع الثمار عليهم.. وبينما هم يأكلون ويتحدثون وقد تناسوا مشاكلهم.. كان سراج وفجر يأكلان في صمت..

تفرقوا بعد الأكل ودخل معظمهم إلى الخيام للراحة من مشقة اليوم عدا مريد، فطلب منه هارون أن يدخل ليرتاح.. ولم يلح عليه فقد كان مريد مرهقا بالفعل ودخل إلى الخيمة لينام لبعض الوقت بينما عاد هارون يجلس أمام النار لينتبه لوجود هند..

– ماذا تفعلين؟

ردت دون أن تنظر إليه:

– أجمع قشور البرتقال

نظر لها باستنكار وهو يقول:

– تجمعين القشور؟ لماذا؟

زفرت بضيق ثم قالت:

– أريد تجفيفها لأغراض علاجية..

وتابعت وهي تنظر له بضيق:

– هل من أسئلة أخرى يا سيدي الناقض؟!

ضايقته سخريتها لكنه لم يقل شيئا.. وشغل نفسه بأكل برتقالة جديدة، فأخرج خنجره وبدأ في تقطيعها لتصدر عنه صيحة ألم..

رفعت هند رأسها لتجده يمسك بكفه الدامية وهو يتفحصها وعلى وجهه أمارات الألم.. فتركت ما بيدها واقتربت منه لكنه أبعد يده وهو يقول:

– لم يحدث شيء.. تابعي ما كنت تـ..

بتر عبارته عندما أمسكت بكفه عَنوة وقربتها من النار لترى بشكل أفضل.. وفجأة ضغطت على الجرح بقوة ليتأوه ويسحب كفه سريعا وهو يقول بغضب:

– بالله عليك ماذا تفعلين!

قالت ببساطة:

- كنت أرى الجرح.. إنه عميق ويحتاج لتقطيب

- لا داعي.. سأكون بخير

نظرت له وهي تقول باستهزاء:

- هل أنت خائف؟!

ابتسم ساخرا وهو يقول:

- مم سأخاف؟

لوت شفتيها ثم دخلت إلى خيمتها وبعد قليل عادت ومعها العلبة الخشبية التي تحتوي على قنائن صغيرة وبعض الأدوات.. ثم أحضرت بعض الماء وغسلت يديها جيدا بينما هو يقول وهو يغسل كفه بدوره ليزيل عنها الدم:

- قلت لك لا داعي

لكنها لم تترك له الخيار.. فقالت وهي تجذب كفه رغما عنه:

- لا تعاند.. الجرح عميق وينزف وقد يصيبه التلوث..

وتابعت بسخرية:

- سيكون من المؤسف أن تموت بسبب تلوث جرح كهذا

لم يجد بدا من الاستسلام أخيرا فترك لها يده لتتربع هي أمامه وتضع على فخذها رقعة جلدية من التي كانت تبطن حقيبتها.. ثم تمد عليها قطعة قماش نظيفة وتسند عليها كفه المجروحة..

- كيف ستعملين في هذه الإضاءة الضعيفة؟

قربت المصباح منها ثم قالت وهي تعبث في الصندوق:

- عندما يدخل عليك بعض الهمج ليكسروا نصف مصابيح الحجرة ويطالبوك بمعالجة مريضهم على الفور.. ستتعلم حينها أن تعمل حتى لو كنت في الظلام

وبدأت تنظف الجرح بينما هو يتساءل بدهشة:

- همج!

تجاهلته وتابعت عملها بصمت.. أنهت تنظيف الجرح ثم راحت تبحث عن علبة الخيوط الجراحيه لتجد كفه السليمة تمتد إلى الصندوق فضربتها لتبعدها عنه ثم رفعت عينيها إليه لترمقه بنظرات غاضبة وهي تقول:

- لا تعبث في ما لا يخصك

صاح فيها بضيق:

- ما بك؟ أنا لست طفلا ولن أكسر شيئا لا تخافي..

لم تجبه وأخرجت إبرة الخياطة وقربتها إلى النار لتعقيمها، فأمسك هارون قنينة معدنية وقال وهو يرجها بالقرب من أذنه:

- ما هذه؟ لماذا لا تضعين ما بها في قنينة زجاجية كالبقية؟

استشاطت غضبا وأخذت القنينة منه لتلقي بها في الصندوق وتقول:

- وما شأنك أنت؟ لا تمارس ألعابك القانونية هنا وتسأل عما لا يعنيك

رفع أحد حاجبيه استنكارا.. لكن قبل أن يتكلم تأوه بشدة عندما غرست إبرتها في كفه وكاد يسحب يده لولا أنها ثبتتها بسرعة من المعصم وكأنها كانت تتوقع تصرفا كهذا.. ثم قالت وهي ترمقه بنظرات حازمة:

- لا تتصرف كالأطفال.. الأمر بسيط..

وأعادت يده لوضعها واستأنفت الخياطة.. كان الأمر مؤلما لكنه جاهد لكي لا يظهر ذلك على وجهه فتظهر هند له الشماتة..

- هذه القنينة بها سائل كيميائي يفسد إن تعرض للضوء.. لهذا أضعه في حافظة لا يمكن للضوء النفاذ من خلالها..

رفع حاجبيه دهشة بينما هي تتابع:

- وبالطبع يجب ألا تكون الحافظة مصنوعة من معدن يتفاعل مع تلك المواد

سألها وقد أثار الأمر فضوله:

- وماذا لو أنه يتفاعل؟

قالت ببساطة وهي تغرس الإبرة في كفه مرة أخرى:

- نضع المادة في حافظة خشبية مبطنة كي لا يتشربها نسيج الخشب

- يبدو أنكم تجدون حلولا لكل شيء..

استشعرت السخرية في كلماته فضغطت على جرحه ليئن ألما ثم يصيح فيها:

- كفي عن هذا

تابعت ما كانت تعمل دون أن تعقب على جملته ثم أخذت علبة زجاجية وأخرجت بعضا من محتواها بملعقة صغيرة ثم بدأت بوضعه على الجرح ليسألها:

- ما هذا؟

زفرت ثم قالت وقد بدأ صبرها ينفد:

- لم كل هذه الأسئلة؟!

- أنت تعالجينني.. أليس من حقي أن أعرف ماذا تضعين على الجرح؟

رفعت حاجبيها وقالت:

- ربما أكذب عليك وأضع لك سما..

واستطردت وهي تدهن العسل على جرحه:

- إنه عسل.. نستعمله لشفاء الجروح

وربطت حول كفه ضمادة قامت بلفها جيدا ثم قالت:

- انتهيت أخيرا.. هل أعجبتك الحكاية؟

عقد حاجبيه وقال متعجبا:

- أية حكاية؟

راحت ترتب القنائن والعلب في صندوقها الخشبي وهي تقول:

- إنها إحدى الحكايا التي أحكيها دوما وأنا أضمد جراح الأطفال لأشتت تفكيرهم لكي لا يشعروا بالألم

شعر وكأنها ألقت عليه دلوا من الماء البارد.. فرمقها بغيظ وكاد ينهرها لكنها لم تعطه الفرصة؛ فقد دخلت إلى الخيمة لتضع صندوقها الخشبي مع أغراضها.. زفر بغضب وهو يتمنى لو أنها كانت رجلا كي يسدد لها لكمة لتندم على ما قالته..

خرجت هند من الخيمة وهي تحمل المصباح بيد، وباليد الأخرى قطع القماش التي استخدمتها قبل قليل ووعاء صغير، ثم اتجهت نحو الجدول..

خطت بضع خطوات ثم توقفت وهي تنظر إلى الأشجار في الظلام ليرتجف جسدها.. لكنها استجمعت شجاعتها وخطت خطوات أخرى

ثم توقفت مجددا.. رفعت قطع القماش أمام عينيها وهي تفكر في غسلها في الصباح..

- ما بك.. هل أنت خائفة؟!

سألها هارون ساخرا لتلتفت إليه وتقول:

- مم سأخاف؟

نهض من مكانه واتجه إليها وهو يقول بصوت تعمد خفضه لإضفاء الرعب عليه:

- من النداهة.. من الغيلان.. من الجن

ارتعد جسدها وقد أصابتها كلماته بالهلع.. ورغم ذلك حاولت التماسك وهي تقول:

- النداهة لا تقترب من النساء.. أنت من يجب أن يخاف

اقترب منها أكثر وقال:

- لكن الجان يختطفون النساء..

ظهر الرعب ممتزجا بالغضب على وجهها ليضحك ويقول:

- لماذا ستذهبين إلى الماء الآن؟

ترددت قليلا قبل أن تقول وهي ترفع القطع القماشية ليراها:

- يجب أن أغسل هذه قبل أن يجف الدم عليها ويصبح غسلها أكثر صعوبة.. كما أنها لن تجف إن غسلتها غدا وطويتها داخل الحقيبة

هز رأسه وقال:

- لا بأس.. اذهبي وسآتي معك

- كلا لا داعي

قالتها وهي تنظر بعيدا كي لا يرى الخوف في عينيها فقال بمكر:

- سأعود إذن واذهبي وحدك

واستدار على عقبيه ليعود قبل أن تقول:

- انتظر..

التفت إليها لتتابع:

- تعال لتحمل لي المصباح

ارتسمت على وجهه ابتسامة النصر ثم قال وهو يأخذ المصباح من يدها:

- أنت خائفة فلا تعاندي وتختلقي المبررات

ومشى أمامها لتتبعه وهي تتمنى لو أن الجني الذي أفزعها بذكره قد خرج لينقض عليه..

انتهت أخيرا من غسل قطع القماش ثم نهضت لتستعد للعودة.. لكنها تراجعت فجأة وأمسكت بكف هارون المجروحة ليتأوه من قوة قبضتها..

– ما بك؟

– صَه

قاطعته وهي ترهف السمع ثم تقول هامسة:

– ألم تسمع ذلك الصوت؟

– أي صوت؟

التفتت إليه وهي تضع سبابتها على شفتيها ثم تقول:

– أخفض صوتك

وعادت تنصت لكن ما التقطته أذناها كان خرير المياه الجارية في الجدول.. فالتفتت إليه مجددا وقالت:

– لقد سمعت صوتا بكل تأكيد

عقد حاجبيه وقال هامسا بدوره:

– لم أسمع شيئا.. ربما كان حفيف الأشجار

هزت رأسها وهي تؤكد:

– لقد كان صوتا مختلفا

أحس هارون بالقلق فقال:

– لنذهب إلى هناك إذن ونرى بأنفسنا

أمسكت بذراعه تجذبه وهي تقول:

- هل جننت؟!

- سنتحقق من الأمر.. وأنا واثق أنه لا شيء هناك

- كلا.. قد يكون الأمر خطرا.. لنعد إلى خيامنا

التقط نبرة الخوف في صوتها فلم يجادلها وعادا معا بينما هي تتلفت كل حين إلى الخلف وقد أصيبت بالتوتر..

- هدئي من روعك.. لعلك تتوهمين وحسب

كانا قد وصلا للخيام فنظرت إليه بعينين حائرتين ثم تنهدت وقالت:

- ربما

وتركته لتدخل إلى خيمتها.. وبالداخل حركت الصندوق الخشبي بهدوء لتضع عليه القطع القماشية كي تجف.. ثم بدلت ثيابها واستلقت أرضا لتنام..

كانت تتحرك بهدوء كي لا تصدر صوتا قد يوقظ فجر النائمة.. لكنها لم تكن تعلم أن رفيقتها تتظاهر بالنوم بعد أن عادت من الخارج قبل لحظات، وقبل عودة هند وهارون!

كانوا ثمانية

طلع الصباح واستيقظ الجميع لتأدية طقوسهم اليومية ثم جمعوا رحالهم وانطلقوا وقد اتخذ كل منهم رفيقا عدا هند.. فقد كانت فجر تتحدث مع سراج وهي تحمل الخريطة التي رسماها.. أما غسان فكان يفضل المشي وحده دائما..

اقتربت هند من هارون ثم قالت:

- أرني يدك

- إنها بخير

أمسكت بيده ورفعتها لتفحصها فقال بضيق:

- ألا تعرفين شيئا عن قواعد اللياقة؟

ردت عليه بضيق هي الأخرى:

- قل لنفسك هذا الكلام؛ فأنا لم أسمع منك كلمة شكر واحدة

وتركت كفه وابتعدت عنه بينما لوى هو شفتيه بضجر..

تعامدت الشمس على رؤوسهم وقد كانت حارة بعض الشيء على عكس اليوم السابق.. ومع الحرارة والمشي لأكثر من ساعتين، شربوا معظم ما في قربهم ليعلن مريد أنهم سيتوقفون قليلا للراحة وإعادة ملء القرب..

وعلى ذكر الماء تذكرت هند وهارون ما حدث بالأمس فنظر كل منهما للآخر في ذات اللحظة.. لكنهما لم يتحدثا في الأمر حتى استأنفوا رحلتهم لساعتين جديدتين حتى تمكن منهم الإرهاق دون أن يجدوا أية إشارة على وجد أحياء في المكان.. فأعلن مريد أنهم سيتوقفون لهذا اليوم ويكملوا المسير في اليوم التالي.. ولم يعترض أحد حتى رعد؛ فقد أضناهم المشي والحر رغم اعتدال الجو قليلا بعد انقضاء وقت الظهيرة..

نصبوا الخيام ووزعوا الطعام المعتاد مع إضافة بعض ثمار البرتقال التي جمعوها قبل أن يرحلوا من مكان مبيتهم.. ثم اتجهوا للجدول لملء القرب مرة أخرى وبعدها انطلق سراج وفجر يستكشفان المكان ويضيفان المزيد من الخطوط إلى الخريطة الوليدة..

- كيف حال يدك؟

التفت هارون إلى هند التي تابعت بابتسامة صفراء:

- ما رأيك في هذا الأسلوب؟ أهو مناسب لقواعد اللياقة؟

هز رأسه بضجر ثم مد يده إليها لتفحص الجرح ثم تقول:

- سأغير الضمادة بواحدة أخرى

ودخلت للخيمة لتحضر الصندوق الخشبي مجددا ليرى هارون محتوياته هذه المرة في ضوء النهار.. كان ممتلئا بالقنائن والعلب مختلفة الأحجام..

- لماذا لا تكتبين اسم كل عقار على العلبة المخصصة له؟

كانت هند قد أزالت الضمادة القديمة وراحت تفحص الجرح جيدا، فقالت وهي تفتح قنينة زجاجية وتضع بعضا من محتواها على قطعة قماش:

- لست في حاجة لذلك.. أنا أحفظ شكل ولون ورائحة كل مادة منها

مسحت الجرح بالمطهر ثم أخرجت علبة العسل بينما هارون ينظر إلى خيط الجراحة المغروز في يده ويقول:

- يبدو أنك ماهرة بالفعل

نظرت إليه بتحفز وقالت:

- ماذا تعني؟

رفع كفه السليمة وقال:

- أنا لا أسخر هذه المرة..

ألقت عليه نظرة متشككة ثم وضعت بعض العسل على الجرح وبدأت بلف الضمادة حول كفه بينما هو يتابع:

- بل أقول الحقيقة..

ثم رفع كمه الأيسر للأعلى كاشفا عن ذراعه وهو يقول:

- انظري

انضم إليهما مريد بينما هند تدقق النظر في تلك الندبة أعلى ذراع هارون، ثم مدت يدها تتحسسها وهي تقول:

- يبدو أنه جرح حديث..

أومأ هارون برأسه لتتابع وهي تنظر للتقطيب غير المنتظم للجرح:

- من الذي فعل بك هذا؟

- لا أعرف اسمه.. لكنه أحد زملائك في الوحدة المركزية التي تعملين بها.. وكانت له عينان جميلتان كعينيك

حولت بصرها إليه فجأة وقالت بغضب وقد احمر وجهها:

- أتتغزل بي؟!

رفع هارون حاجبيه وقال وعلى وجهه ابتسامة ساخرة:

- أتغزل بك أنت؟ ألا تنظرين لنفسك في المرآة؟

لكزه مريد في كتفه وهو يرمقه بنظرات تحذير بينما استشاطت هند غضبا.. فجمعت أغراضها وتركتهما لتدخل إلى الخيمة..

- هل جننت؟ كيف تتحدث إلى فتاة بهذا الأسلوب الفج

التفت هارون إلى مريد وقال:

- إنها لا تكف عن السخرية مني منذ الأمس، فلتتحمل عواقب لسانها السليط..

هز مريد رأسه بضيق ليقول هارون وهو ينهض من مكانه:

- ما رأيك بمبارزة؟

نظر إليه مريد ليقول هارون وهو يغمز بعينه:

- ولنرى من الأفضل.. أنا أم رعد

ضحك مريد ثم نهض مع صديقه للنزال

أما في الخيمة كانت هند ترتب أغراضها وهي تشعر بالغضب لتلك الإهانة.. ورغما عنها انحدرت دمعة على وجهها لكنها مسحتها بسرعة..

وبعد انتهائها من جمع أغراضها أخرجت مرآتها الصغيرة لتنظر إلى وجهها.. لم تكن قبيحة كما تهيأ لها من كلام هارون، كما أنها لم تكن بارعة الجمال.. ولا تدري لماذا ترددت كلمات زهرة في أذنيها وهي تحثها على وضع الزينة واستشعار أنوثتها..

مدت يدها إلى الصندوق الخشبي وراحت تعبث بمحتوياته حتى وجدت المُكحُلة التي كانت قد أحضرتها لأغراض علاجية.. نظرت إليها مليا وبعد تردد أخرجتها من الصندوق ثم أمسكت بالمرآة وكحلت عينيها بذلك المسحوق الأسود اللامع.. ومن ثم راحت تنظر لعينيها السوداوين وقد أضفى عليهما الكحل بهاء.. ورغم هذا فلم تهدأ ولم يتلاشَ غضبها.. لكنها قررت إرجاء انتقامها كي لا يزيد التوتر القائم في مجموعتهم..

بعد قليل انضمت إليها فجر وقد انتهت هي وسراج من عملهما فسألتها هند وهي تغلق الصندوق بعد أن رتبت محتوياته:

- ألم تجدوا أشجار برتقال هنا أيضا؟

هزت فجر رأسها وقالت:

- نعم لم نجد

بدا الأسف على وجه هند ثم قالت:

- ربما نجد عندما نتقدم في المسير

هزت فجر رأسها ثم قالت مغيرة الموضوع:

- هل لديك أي شيء للصداع؟

ابتسمت هند وقالت:

- بالتأكيد..

وتابعت وهي تحمل صندوقها الخشبي وتتجه للخارج:

- انتظريني قليلا

خرجت هند من الخيمة وجمعت بعض الحطب لإشعال النار ثم أحضرت وعاء ملأته بالماء ووضعته على النار.. ومن صندوقها أخرجت علبة صغيرة بها زنجبيل مطحون.. أخذت منه ملعقة صغيرة ووضعتها في الماء ثم بدأت بالتقليب من حين لآخر ثم تركته يغلي قليلا ورفعته من على النار لتصب المشروب في كوب وتدخله إلى فجر..

- اشربي هذا بعد أن تخف حرارته قليلا.. وفي المساء سأصنع لك كوبا آخر..

أخذت فجر الكوب من هند شاكرة بينما الأخيرة تتابع بابتسامة:

- سأتركك قليلا لترتاحي.. بعد أن تنتهي من المشروب أغمضي عينيك وحاولي أن تنامي

شكرتها فجر مرة أخرى لتخرج هند من الخيمة بعد أن أخذت كتابها معها.. وفي الخارج أعادت كل شيء لصندوقها وأغلقته ثم أدخلته للخيمة وخرجت مرة أخرى لتقرأ..

لم تكن قد أنهت الجزء التاريخي بعد، فأكملت القراءة من حيث انتهت آخر مرة.. وبعد عدة صفحات وجدت نفسها أمام فقرات كاملة لم تسمع عنها أو تقرأها في كتاب تاريخ من قبل.. لكنها عزت جهلها بها لعدم إلمامها الكامل بالتاريخ؛ فهي لم تدرسه لكنها تلقته عن أبيها والكتب التي كان يحضرها.. ولعل هذا الجزء لم يكن في ما قرأت.. لكن السؤال الذي كان ولا زال يشغل تفكيرها هو كيف تمكن ذلك الصياد من الحصول على كتاب كهذا؟! والسؤال الأهم.. لماذا أعطاه لها هي بالذات؟

انتفضت هند فجأة عندما غرس أحدهم نصل سيفه في الأرض على بعد شبر واحد فقط من قدميها.. وقبل أن ترفع رأسها عرفت الفاعل من صوته..

- بإمكانك استعمال هذا النصل كمرآة عملا بنصيحتي

كظمت غيظها بصعوبة ثم رفعت رأسها إليه وهي تقول بتحدٍ:

- عندما نعود اعمل أنت بنصيحتي واذهب إلى قسم الرمد لترى ما المشكلة في بصرك

كان مريد يجاور هارون فضحك بشدة لينظر له هارون بضيق ثم يحول عينيه إلى هند ويقول:

- ألست معالجة؟ عالجي إذن ضعف إبصاري ببعض الكحل الذي وضعت منه في عينيك

زفرت هند غيظا ثم أغلقت الكتاب ونهضت من مكانها ليقول مريد بسرعة:

- لا تغضبي إنه يمزح.. لكن مزاحه ثقيل بعض الشيء

التفتت هند إليه وقالت بغضب مكتوم:

- وأنا لست مضطرة لتحمل مزاحة السخيف

رفع مريد كفيه وقال محاولا تهدئتها:

- لا بأس.. سأتكفل أنا به لكن لا تتركي المكان بل هو الذي يجب أن يتركه فهو المخطئ

نظرت هند إلى مريد مليا ثم قالت بصوت عال ليسمعه هارون جيدا:

- حسنا.. لن أترك المكان.. وهذا لأجل مريد فقط

وعادت تجلس وتواصل القراءة بينما جذب مريد هارون من ذراعه بعيدا وهو يقول محذرا:

– لا تثر غضبها مجددا فالفتاة لم تؤذك في شيء.. كما أن لدينا ما يكفي من المشكلات مع ذلك الأحمق ولا نريد المزيد

ربت هارون على كتف مريد وقال بابتسامة:

– لا بأس يا صديقي.. لك هذا

انتصف الليل فتثاءبت هند ثم فركت عينيها المرهقتين.. لم تشعر بمرور الوقت لاستغراقها في القراءة.. لكن النعاس تسلل إليها أخيرا فبدلت ثيابها وتدثرت لتستسلم للنوم على الفور..

وفي الخارج كان هارون ومريد يجلسان أمام النار في نوبة حراستهما ككل ليلة.. كانا يتسامران وقد تطرقا لمواضيع عدة.. وعندما اقترب موعد تبديل نوبات الحراسة تحرك مريد لينظر إلى داخل الخيمة التي يقيم فيها رعد وتمام ثم عاد لموضعه وهو يقول:

– إنهم نائمون

واستأذن من صديقه للذهاب لقضاء حاجته قبل أن يوقظ رعد وتمام لنوبة الحراسة التالية.. اتجه إلى أشجار الصفصاف بينما ظل هارون يراقب النار.. وبعد لحظات سمع صوت أحدهم من خيمة سراج وغسان فتحرك من مكانه وأطل برأسه داخل الخيمة ليجد غسان نائما بينما سراج يتثاءب بصوت عال فقال هارون مندهشا:

- ألم تنم بعد؟

تمطى سراج ثم قال بعد أن تثاءب مجددا:

- كنت سأنام بالفعل فأنا لم أستطع النوم منذ أويت للفراش

وقبل أن يرد هارون سمع الاثنان صوت صراخ..

- صوت من هذا؟

تساءل سراج بفزع لينطلق هارون للخارج بعد أن اختطف المصباح المجاور للخيمة وقد تسارعت دقات قلبه فجأة.. إنه صوت مريد ولا شك..

خرج سراج خلفه وتبعه غسان الذي استيقظ على صوت حديثهما.. وانطلقا ركضا إلى الأشجار ليجدوا مريد ملقى على وجهه.. فانحنى هارون عليه وأداره كي يجعله على ظهره ليشهق فزعا.. كانت الدماء تغطي وجهه، وهناك جرح عميق في جانبه الأيسر ينزف بغزارة.. جرح مزق الثياب واللحم لتتكون بركة من الدم تحته..

- هل.. هل هو حي؟

تساءل سراج بصوت مرتعش ليقول هارون وهو يلهث بشدة:

- لا أدري..

وتابع وهو ينهض من مكانه:

- احملوه إلى مكان مبيتنا

ولم يزد على ما قال فقد هرع إلى الخيمة التي تنام بها الفتاتان ليقتحمها ويهز هند بعنف..

- هند.. استيقظي.. استيقظي

هبت هند من نومها فزعة وقد ظنت أن الجاثوم يهاجمهم مرة أخرى.. لكنها لم تجد إلا هارون وهو يلهث..

- كيف تقتحم الـ..

لم يمهلها لتكمل اعتراضها فقد جذبها من ذراعها بقوة آلمتها وخرج مسرعا بها من الخيمة دون أن تتمكن من تغطية شعرها..

- إنه يموت

لم تفهم ماذا يقصد هارون بجملته.. لكنها فوجئت باثنين من رفاقها يضعان جسد مريد على الأرض بينما استيقظ البقية على صوت الجلبة التي أثارها هارون..

بدأت هند تفهم شيئا فشيئا.. فاقتربت من مريد لتتسع عيناها فزعا ويزول عنها كل أثر باق للنوم..

– منذ متى وهو بهذه الحال؟

قالتها هند بعصبية وهي تمد يدين مرتجفتين لعنق مريد بينما هارون يجيبها:

– منذ ثوان فقط

– أريد مصباحا

أخذ هارون المصباح من يد غسان وناوله لهند التي رفعته قليلا لترى بشكل أفضل.. كان عنقه ممزقا وينزف بغزارة، فالتفتت إلى هارون تريد أن تطلب منه إحضار شيء ما.. لكنها وجدت ما تريد فوق رأسه.. فأشارت إلى عمامته وهي تقول:

– أعطني هذه

اندهش هارون لكنه لم يجادلها فقام بخلع عمامته على الفور لتأخذها هند وتبسطها، ثم تحاول صنع ضمادة من طرفها لوقف النزف وضعتها على جرح عنق مريد وضغطت بقوة.. ثم التفتت إلى هارون مجددا وطلبت منه إحضار صندوقها الخشبي، فهرع لداخل الخيمة وأحضره لها لتخرج بعده فجر وتشهق في رعب لما رأت.. بينما هند تفحص جبهة مريد والتي كان بها جرح هي الأخرى لكنه لم يكن خطرا كالآخر..

- إنه ينزف من جانبه أيضا

قالها هارون لتضغط هند الضمادة على رقبة مريد وتميل برأسها لترى الجرح الآخر.. فقالت لهارون وهي تلهث من الانفعال:

- تعال واضغط هذه جيدا..

وضع هارون يده على الضمادة بينما هي تتابع:

- أعطني خنجرك

أخرجه هارون بسرعة لتأخذه هند وتقطع قماشة العمامة لتأخذ بقيته وتضعه كضمادة للجرح الآخر.. ثم تطلب من هارون أن يمسك هذه الضمادة ويترك عنقه لها مجددا..

- أسرعي أيتها الغبية قبل أن يموت بسببك

صاح فيها رعد بغضب لكنها لم تأبه له.. فكل ما كان يهمها هو وقف النزف رغم علمها بأن كل هذا لن يجدي.. فجرح عنقه كان غائرا ووصل إلى شريانه السباتي، وهو ما فجر كل هذه الدماء..

تعلم أنه لن ينجو.. تعلم أن كل ما تفعله لن يؤخر موته المحتوم.. تعلم كل هذا.. لكنها تتحرك وتحاول إسعافه بكل وسيلة تستطيعها.. فهذا هو واجبها الذي لن تتخلى عنه حتى لو كان رعد هو المصاب..

كانت تلهث وقد تعرقت رغم برودة الجو الشديدة.. يداها تتحركان بسرعة.. تخرج محتويات صندوقها لوضع بعض العقاقير التي تساعد على إيقاف النزف فوق جرح عنقه ثم تعود لضغط الضمادة فوقه من جديد.. وتقوم بقياس نبضه ومحاولة وقف نزف الجرح الآخر بذات الطريقة..

- تماسك يا مريد.. أرجوك لا ترحل

تمتمت بها بيأس وهي تقيس نبضه مجددا لتجده أضعف مما كان عليه قبل لحظات.. توترت أكثر ووضعت أذنها على صدر مريد لتجد أن نبض قلبه لا يكاد يسمع..

لم تعد تدري ما عليها فعله.. فالضمادة التي تغطي عنقه قد غرقت بالدم.. والضمادة الأخرى بدورها لم تعد تجدي نفعا.. لكنها لم تتوقف رغم يقينها بعدم جدوى كل ذلك..

أمسكت برسغه لقياس النبض مجددا لتشعر بقشعريرة باردة تسري في جسدها.. فوضعت أذنها على صدره ليتأكد ظنها.. فرفعت رأسها عن صدره لتنظر إلى هارون بعينين ذاهلتين..

تجمد الفتى في مكانه بعد أن أفلت قلبه نبضة.. لكنه طلب منها أن تتأكد فوضعت أذنها على صدره مجددا ومن ثم هزت رأسها نفيا..

لم يرد هارون أن يصدق؛ فقد ظن أن إسعافه قد ينقذه.. لكن تلك الدماء التي كانت تندفع من جراحه جعلت أمل إنقاذه يخفت.. لكن بقي في صدره

بعض من أمل حتى رأى عيني هند المملوءتين بالجزع فاسودت الدنيا في عينيه وقد شعر أنه هو الذي فقد روحه.. كان كمن هوى من علٍ ليتفتت على صخرة الواقع المُفجع..

وضعت هند يديها على جانبي وجهها في يأس تام.. وانهمرت دموعها بغزارة.. لأول مرة تنهار أمام شخص فشلت في إسعافه..

– قتلته أيتها الغبية

قبل أن تلتفت لصيحة رعد الغاضبة تأوهت بشدة عندما جذبتها قبضة قوية من شعرها بقسوة، تلتها لطمة كادت تذهب بسمعها.. لم تعِ ما يحدث.. لكنها سمعت صوت هارون يصيح ويد أخرى تخلصها من قبضة رعد.. فأدارت رأسها إليه لترى بعينيها الفزعتين وجه غسان..

– أيها الحقير

صاح بها غسان وكاد يشتبك مع رعد الذي أمسك به هارون من تلابيبه يجذبه بعيدا عن هند ثم يلقيه أرضا وهو يصيح به بدوره:

– ماذا تفعل أيها الحقير؟

تدخل البقية لإبعاد غسان وهارون قبل أن ينهال كل منهما بالضرب على رعد.. وقامت فجر بجذب هند إليها لتحتضنها وهي ترتجف.. وقتها استوعبت هند كل شيء.. فوضعت كفها على خدها الأيسر الذي أصابه

بعض الخدر.. ثم نظرت لرعد بمقت وكراهية.. لكنها رغم ذلك لم تتعجب أن يحدث ذلك منه خاصة..

- إن اقتربت منها مرة أخرى أقسم أنني سأقتلك يا رعد

كان هارون لا يزال يصيح بينما يمسك به سراج ليبعده عن رعد قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه.. لكن ذلك الأخير بادله الصياح:

- أتدافع عمن قتلت صديقك؟

- عم تتحدث أيها المخبول؟ ألم تر بنفسك ما حدث؟

وافق تمام هارون قائلا:

- لقد رأيناه جميعا وهو غارق في دمائه بالقرب من الماء بعد أن هاجمه الغول

كانت هند تتجه مع فجر لداخل الخيمة عندما طرقت سمعها تلك الكلمات..

الغول؟!

توقفت والتفتت إليهم بينما يقول هارون:

- أي غول؟

قال تمام والرعب يقطر من كلماته:

- لا يوجد غيرنا في هذا المكان.. ولم نر أية حيوانات أيضا.. فما الذي سيؤذيه بهذا الشكل إن لم يكن غولا؟

ساد الصمت الثقيل عليهم لكن هند قطعته بأن عادت لجثمان مريد وجثت على ركبتيها أمامه، فصاح رعد بغضب وهو يتجه إليها:

- ماذا ستفعلين مجددا أيـ..

قاطعه هارون وهو يمسكه من ذراعه بعنف ويجذبه بعيدا:

- قلت لك ابتعد عنها وإلا قضيت عليك

أما هند فلم تسمع شيئا فقد كانت منشغلة بفحص جرح مريد على ضوء المصباح الذي قربته من عنقه لرؤية أفضل.. ثم مسحت الدم قدر المستطاع وتتبعت الجرح لتسري في جسدها فجأة قشعريرة مما رأت.. انحنت أكثر عليه وهي تمر بأصابعها على الجرح المنتظم في عنقه لينعقد حاجباها وتتسارع دقات قلبها..

ازدردت لعابها بصعوبة ثم انتقلت إلى جرح جنبه الأيسر لكنها لم تجد ما رأت في الجرح الأول، فاعتدلت وقالت وهي تسيطر على نبرة صوتها بصعوبة:

- يبدو أن تمام على حق..

التفت إليها الجميع لتتابع:

- اللحم ممزق بشكل لا يمكن لحيوان عادي أن يفعله

ونهضت من مكانها وقد عصف الخوف بهم جميعا.. فصاح تمام:

- أرأيتم؟ يجب أن نرحل من هنا وإلا فسنهلك جميعا

التفت إليه هارون وقال:

- لا يمكننا التحرك في هذا الليل.. سننتظر للصباح لندفن مريد أولا..

أوقفته غصة عن إكمال بقية جملته.. فابتلعها ومنع دموعه بقوة من أن تسيل ثم تابع:

- وبعد ذلك سنجمع أشياءنا ونرحل.. وحتى ذلك الحين لا تتفرقوا وابقوا في مجموعات.. وأنا سأواصل الحراسة حتى الفجر

ساد الصمت مجددا، ثم تحرك البقية إلى خيمهم ليبقى هارون وحيدا أمام جثة صديقه المقرب.. ولمّا خلا المكان من الجميع ترك لدموعه العنان لتغرق وجهه..

أنهت فجر مسح دماء مريد عن وجه هند ويديها، فشكرتها ثم اتجهت لصندوقها لتخرج علبة صغيرة بها دهان لزج قامت بدهن وجهها في موضع لطمة رعد..

- تؤلمك؟!

سألتها فجر بإشفاق فهزت هند رأسها وقالت:

- سيزول الألم لا تقلقي

وبعد أن أعادت العلبة لصندوقها أجهشت بالبكاء فجأة.. فاقتربت منها فجر وراحت تربت على كتفها وهي لا تدري ماذا تقول.. ما حدث لن ينمحي من ذاكرتهم طيلة حياتهم.. وبخاصة هند فقد كانت المشاعر تختلط بداخلها ما بين حزن ويأس وعجز..

وإحساس العجز كان يخنقها أكثر من أي شيء آخر.. رغم علمها بأنه كان ميتا لا محالة لكن هذا لم يمنعها من أن تشعر بالتقصير.. لو أنها أسرعت قليلا.. لو أنها سيطرت على توترها.. لو أنها..

ولن تنتهي الأمنيات مع امرأة كانت ترى الموت في عملها مئة مرة وتشعر بالعجز يثقلها في كل مرة أضعافا مضاعفة..

احتضنتها فجر عندما رأت أن بكاءها المر لا يتوقف.. فاستسلمت هند لها وأسندت رأسها إلى صدر رفيقتها تستمد منه بعض السكينة..

لكن إلى من يستند ذلك المكلوم؟ وممن يستمد السكينة والراحة بعد أن فقد أعز صديق له؟ كان هارون يهتز ببكاء مكتوم لتحجب الدموع عينيه عن رؤية رفيق عمره، فيبادر بمسحها لتعاود الهطول مجددا كسحابة مثقلة بماء الحزن..

لو كان يعلم بما سيحدث لمنعه من الذهاب إلى هناك.. بل لمنع تلك الرحلة من بدايتها قبل أن يمزقه الندم على موافقته له.. لكن هل كان هذا سيغير من الأمر شيئا؟!

أخذ نفسا عميقا يحاول ملء صدره بالهواء قبل أن يختنق حزنا.. ثنى ركبتيه وأسند رأسه إليهما وقد تشوش عقله.. وظل على حاله حتى شعر بيد أحدهم تستقر على كتفه.. هب من مكانه فزعا وقد أدرك أنه غفا أمام جسد صديقه الممدد على الأرض..

- ادخل لترتاح قليلا

نظر هارون إلى تمام بعينين لا تريان جيدا ثم رد قائلا:

- بل سأبقى

- لا تعاند.. يجب أن ترتاح كي تتمكن من المواصلة في الغد وسأكمل الحراسة أنا ورعد بدلا عنك

زفر هارون بقلة حيلة ثم نهض من مكانه واتجه إلى الخيمة فقد تمكن منه الإرهاق الجسدي والنفسي.. ولم يستغرق وقتا طويلا حتى نام.. لعله يهرب من حزنه ولو بشكل مؤقت..

كانت شمس الصباح باردة كقلبه الذي هرب منه الدفء.. فنهض من نومه الذي كان بلا أحلام لحسن حظه، وإلا فقد كان سيصاب بالجنون..

خرج من الخيمة ليجد رعد وتمام قد ناما من شدة الإرهاق.. فأيقظهما ثم أيقظ سراج وغسان ليستعدوا لدفن مريد.. أما الفتاتان فقد استيقظتا على أصوات حديثهم في الخارج، فبدلتا ثيابهما وخرجتا..

كانوا قد أنهوا تجهيز مريد للدفن فسرت في جسد هند رجفة قوية.. لم تتحمل رؤية عملية دفنه فعادت إلى الخيمة وهي تمسح دموعها.. لتلحق بها فجر بعد لحظات..

جلستا صامتتين حتى قالت هند أخيرا:

- يجب أن نحزم حقائبنا لأننا سنتحرك بعد قليل

خرج صوتها مختنقا منبئا عن هطول دموع جديدة؛ فأولت ظهرها لفجر وتشاغلت بجمع أغراضها حتى ينتهي الدفن..

أهال هارون التراب على جثمان صديقه ثم طلب من البقية أن يتركوه وحده قليلا.. فعادوا لكي يزيلوا الخيام ويجمعوا أشياءهم.. أما هو فقد جلس أمام القبر وقد سالت دموعه أنهارا، فدفن وجهه بين كفيه..

تمر سنوات عمره أمام عينيه ليجد أن مريد شاركه في كل شيء.. عقاب الطفولة بسبب كسر أحدهما جرة جارهم.. أو إفساد أحدهما لحديقة جارهم الآخر.. شاركه أحلام المراهقة وشغبها.. والتمرد على أحد المعلمين لمّا بدءا بالتدريب الوظيفي.. ليتشاركا بعدها الرغبة في التغيير بعد ما رأى كل منهما الفساد المستشري في الديوان..

لكنهما توقفا في مفترق طرق عندما قرر مريد النأي بنفسه عن المشكلات والاتجاه لوحدة التمريض.. فلم يكن ليسامح نفسه إن قام أحدهم بإيذاء والده بسببه هو عندما تمرد على القوانين المجحفة التي كانت تكبله في الديوان.. لذا فقد كان الابتعاد هو الحل الأمثل له ولسلامة أبيه..

لكن هارون ظل في الديوان ظنا منه أنه سيكمل مسيرة صديقه في التمرد بلا خوف؛ فأبوه رجل له علاقات كثيرة على عكس أبي مريد.. لكنه تعب من السباحة وحده عكس التيار الذي جرفه شيئا فشيئا حتى صارت الرشوة بالنسبة له أمرا عاديا بعد أن كان يعدها من الموبقات..

كان مريد ينصحه تارة ويعنفه تارة أخرى، فيصحو من غفلته لوقت قصير ثم يعود لسابق عهده.. والآن مات رفيق الدرب.. مات الأخ الناصح والصاحب المحب.. مات ليترك في قلبه جرحا لن يندمل.. فنشج بقوة وهو يذرف دموع الحزن والندم..

- هارون!

انتفض هارون ومسح دموعه بسرعة ليقول تمام وهو يربت على كتفه:

- نحن جاهزون للمغادرة

أومأ هارون برأسه ثم مسح وجهه وتبع تمام إلى حيث تجمع البقية ليجد أن تمام قد جمع له أغراضه توفيرا للوقت.. فأخذ حقيبته منه شاكرا وحملها على ظهره ثم قال:

– موت مريد لا يعني أننا سنوقف ما بدأ به.. سنتابع ما بدأناه معه لنصل إلى الحقيقة

– لكننا اكتفينا بهذا القدر..

التفت الجميع إلى سراج الذي تابع:

– أكملوا المسيرة بدوننا.. فلن نستمر في هذه المهزلة

عقد هارون حاجبيه وتساءل في دهشة:

– ماذا تقصد؟!

– أقصد ما سمعته.. سنعود أنا وفجر فلسنا على استعداد للموت

حملق فيه الجميع ليقول هارون:

– كلنا في خندق واحد يا سراج.. فلا تقدم الهوى على المصلحة.. كما أن وجودك في جماعة خير من أن تصبح منفردا فيسهل القضاء عليك

قالت فجر وهي تقترب من سراج:

– لقد قُتِلَ مريد وهو في جماعة.. ولعل آباءنا قد قُتِلوا بدورهم

قطبت هند جبينها وقالت قبل أن يتكلم هارون:

– من قال أن آباءنا قد قتلوا؟

التفتت فجر إليها وقالت:

– هناك أناس غيرنا في هذه الجزيرة.. ولعلهم تخلصوا من آبائنا قبلا، ثم تخلصوا من مريد بالأمس ولن يتوقفوا حتى يقضوا علينا جميعا

بهت الجميع بينما فجر تتابع:

– ألم يلفت انتباهكم وجود شجر البرتقال؟ هذا يعني أن هناك من زرعه واعتنى به

قال هارون بحيرة:

– المكان به أشجار كثيرة ولم يعلق أحدكما على ذلك.. فلماذا ذلك الشجر بالذات؟

قال سراج شارحا:

– لأنه لا ينبت من تلقاء نفسه ولا يزهر وينتج ثمارا بتلك الجودة إلا إن كان لبشر تدخل في ذلك

ساد الصمت للحظات قبل أن يقول هارون وقد بدأ الغضب يظهر في صوته:

– ولماذا أخفيتما أمرا مهما كهذا حتى الآن؟ لماذا لم تتكلما؟

ظل سراج وفجر صامتَين لتقول هند وهي تهز رأسها أسفا:

– لم أكن أعلم أنكما أنانيان بهذا الشكل

قالت فجر:

– لسنا كذلك يا هند.. لقد تحدثت أنا وسراج أول أمس وذهب ليلا إلى الأشجار ليرى إن كان هناك من يقيم بالقرب منها لكنه لم يجد شيئا بسبب الظلام وبسبب..

وبدا على وجهها الحرج وهي تقول:

– وبسبب وجودك أنت وهارون هناك فعاد خوفا من أن يراه أحدكما..

تبادلت هند وهارون النظرات وقد فهما سر ذلك الصوت الذي سمعته هند قرب الجدول..

– وفي الصباح تسلل سريعا للمكان مرة أخرى لكنه وجد أن السلسلة الجبلية تفصله عما وراءها ولا أثر لوجود أحد هناك.. وقتها طلبت منه أن يخبركم لكنه قال أنه لا داعي لذلك فلا أحد هناك.. لكن يبدو أن أصحاب تلك الأشجار يقيمون بالقرب من هنا وهم من قتلوا مريد

أيدها سراج بقوله:

– ولو كنا أنانيَين لتركناكم أول أمس وذهبنا وحدنا، لكننا فضلنا البقاء معكم حتى نتبين الحقيقة.. أما بعد ما حدث لمريد فأرى أن الأفضل لنا جميعا أن نعود من حيث أتينا

– كان من الواجب أن تخبرانا بما عرفتما، لا أن يتصرف كل منكما دون استشارتنا..

رد عليه هارون وقد بدا الغضب جليا في صوته.. ثم أشار للواقفين وهو يتابع:

- نحن في مجموعة تتحرك لهدف واحد.. والأنانية التي تتبرءان منها تفصح عن نفسها الآن.. فعدم ذهابكما كان لأجل معرفة إلى أين تمتد تلك الأشجار، فتحددا الأماكن التي يحتمل تواجد أحد فيها ويحتمل وجود أبويكما فيها.. وسواء مات مريد أم لا فقد كنتما ستتراجعان دون شك

قال سراج بغضب هو الآخر:

- سمها كما شئت.. لكني لن أنتظر حتى ألقى حتفي أنا الآخر.. فقد كنا نفكر في العودة إلى حيث الأشجار ونبحث هناك مجددا علّنا نجد أثرا لأهلنا لكن بعد ما حدث لمريد فلم يعد المكان آمنا..

سنعود أنا وفجر.. فمن أراد المجيء معنا فليفعل وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم إن أصبتم بمكروه

نظر إليه الجميع ما بين مندهش ومشفق.. ومنهم من تراوده نفسه للذهاب معهما.. لكن في النهاية لم يرد عليه أحد فهز رأسه وأشار لفجر لتتبعه..

- أنتما أحمقان

صاحت فيهما هند بغيظ، لكن لم يلتفت أي منهما إليها وواصلا المسير في طريق العودة..

– هيا بنا

قالها هارون وهو يتحرك لاستكمال مسيرة الأيام الماضية، فقال رعد بضيق:

– ستتركهما بهذه السهولة؟

التفت إليه هارون وقال وقد كسا الجمود وجهه:

– لقد اختارا

عاد رعد يقول:

– ماذا لو كانا على حق؟ ماذا لو أن هناك أشخاصا آخرين هم من قتلوا مريد وسيقتلوننا نحن أيضا

نظر له هارون نظرة جامدة وقال:

– إن كان هناك آخرون لاجتمعوا علينا وقتلونا مرة واحدة ولن ينتظروا أن يبتعد أحدنا صدفة عن مكان التجمع.. من قتل مريد هو الغول والعلامات التي وجدتها هند تشير لذلك

توترت هند لكلماته الأخيرة، لكنه استدار ليكمل المسير فتبعه الجميع في صمت..

في حضرة الغول

بعد السير المتواصل لساعتين كاملتين اقترح تمام أن يرتاحوا قليلا، خاصة وأنه لم يدخل جوفهم طعام منذ الأمس.. وقام هو بمهمة توزيع الطعام فأخذه منه هارون شاكرا وراح يأكل بلا شهية.. وكذلك هند التي أنهت طعامها سريعا وفتحت حقيبتها لتضع دهان الكدمات على وجهها.. كان الجانب الأيسر من وجهها لا يزال متورما من أثر لطمة رعد لها.. رعد الذي باتت كراهيتها له تتضاعف بشكل أسرع من ذي قبل.. وتمنت في نفسها لو أنه كان المقتول بدلا من مريد..

أنهوا طعامهم ثم تحركوا وقت الظهيرة حتى نال منهم التعب وقرروا التوقف عن السير والمبيت في هذا المكان.. كانت التساؤلات تدور برؤوسهم جميعا.. فهم يسيرون في هذه المدينة منذ ثلاثة أيام دون أن يجدوا أي شيء سوى الأطلال..

مالت الشمس للمغيب والصمت يخيم عليهم، لا يقطعه إلا بعض الأحاديث القصيرة ثم يعود الصمت مجددا.. وبعد غياب الشمس تماما دخل البعض إلى الخيام وبقي آخرون حول النار، واستغلت هند جلوس هارون بعيدا عن الجمع لتقترب منه وتفحص جرحه..

- أنا بخير يا هند

قالها بيأس لكنها لم تستمع إليه وأمسكت بكفه لتجد الضمادة قد تغير لونها بعد أن تلطخت بدم مريد، وما تلاه من حفر لقبره..

ازدردت لعابها وأزالت الضمادة عن كفه لتنظفه وتنظف الجرح جيدا.. كانت تعمل في صمت لكن عقلها يحاول ترتيب الكلمات لتخبره بما يجول برأسها منذ الأمس..

- هارون..

انتزعه صوتها من شروده فنظر إليها لتقول مباشرة:

- مريد مات مقتولا

رفع هارون كفه السليمة وهو يقول:

- كلنا نعرف هذا

عضت على شفتيها ثم أخذت نفسا عميقا وقالت:

- أجل.. لكن ليس الغول هو ما قتله

اعتدل هارون في جلستة وقال:

- ماذا تعنين؟

كان كفه متورما بعض الشيء فقامت بوضع دهان لتقليل الالتهاب والتورم وهي تتابع بصوت هامس:

- كيف صدقنا أن الغول قتل مريد الذي لا يراه ولا يؤمن به؟!

قال هارون ببساطة:

- عدم رؤيته أو الإيمان به لا ينفي وجوده

نظرت إليه مليا ثم قالت وهي تضع ضمادة جديدة:

- دعني أطرح السؤال بصيغة أخرى.. هل رأى أحدنا غولا من قبل ليجزم أنه تسبب في قتل أحد؟

حملق بها هارون وقد بدأ يتوتر ثم قال:

- ما الذي ترمين إليه؟

أحكمت ربط الضمادة على كفه وقالت:

- عندما أشار تمام إلى أن الغول هو الذي قتله، عدت لأفحص الجرح من جديد.. عندها وجدت أثر أداة حادة على عنقه..

ورفعت عينيها إليه وتابعت وهي تنظر في عينيه مباشرة:

- لقد تم ذبحه!

ساد الصمت بينهما قبل أن يقول هارون بصوت متحشرج:

- لعلك لم تري جيدا.. كما أنك أيدت كلام تمام بالفعل

هزت رأسها وقالت:

- لقد تم ذبحه ثم التمويه على شكل الجرح المنتظم للسكين بآثار مخالب

بدت الصدمة في عيني هارون وقال:

- والجرح الآخر؟

هزت رأسها وقالت:

- لم أجد أثرا لتلك الأداة الحادة فقد كانت الطعنة صغيرة وتم تشويهها بسهولة

- إذن فتوقعك خاطـ..

قاطعته بسرعة وهي تقول:

- اسمعني جيدا يا هارون.. لقد رأيت في عملي العجب العجاب.. وكثيرا ما وردت إلينا حالات قتل وطعن وهجوم من حيوانات على بعض المتهورين اللذين يذهبون للأماكن غير الآمنة للصيد.. وأستطيع بسهولة التفرقة بين أنواع الجروح المختلفة..

وسكتت قليلا ثم قالت:

- مريد كان رجلا قوي البنية؛ لذا فقد كان من الصعب على قاتله أن يتغلب عليه بسهولة، فقام أولا بتسديد طعنة في جانبه الأيسر ليشغله بها ثم انقض عليه وذبحه كي يضمن أنه لن يشي به.. وفي الحال حاول إخفاء الجرح بتشويهه بأثر المخلب ذاك لمحو أي أثر يدل على أنها جريمة قتل

- هل عملت من قبل في قسم التحقيقات أم ماذا؟

استشعرت هند السخرية في كلماته لكنها تجاهلتها وقالت:

– نحن نتعلم هذه الأمور في عملنا، فكثيرا ما يلجأ إلينا العساسون في جرائم القتل لمعرفة أسباب الوفاة

قال هارون بانفعال:

– ما تفكرين به مستحيل.. لا يمكن لأحد منا أن يقتله

رفعت هند أحد حاجبيها استنكارا وقالت:

– ألم تنف بنفسك نظرية وجود آخرين في هذا المكان كما ادعى سراج وفجر؟ البعض هنا لديه دوافع لقتل مريد ولقتلنا جميعا إن تطلب الأمر و..

قاطعها هارون بحسم:

– لا يمكن لأحد قتله لأننا نحن الخمسة كنا معا عندما سمعنا صوت صراخ مريد

انعقد لسان هند واتسعت عيناها بذهول..

– هل أنت واثق؟

– بالطبع

– إن كان كلامك صحيحا فهذا يعني أن هناك جاسوسا بيننا.. أو أن..

وبللت لسانها بشفتيها وهي تقول بانفعال:

– أو أن كلام سراج وفجر صحيح

ران عليهما الصمت وهبت نسمة باردة بعثت في جسديهما بقشعريرة.. لكن هارون استدرك قائلا:

– لكن لماذا لم تخبريني بهذا الكلام بالأمس؟

ونظر إليها بتشكك وهو يتابع:

– هل كنت تفكرين باستغلال تلك المعلومات لصالحك كما فعل سراج وفجر

حدجته بنظرة غاضبة وهي تقول:

– ما هذا الهراء؟ لو كنت أفكر في استغلال المعلومات لما أخبرتك بها..

وأطلقت زفرة حارة علّها تتخلص بها من غضبها ثم قالت:

– لقد أخبرتك لأنني أثق بك..

رفع هارون حاجبيه دهشة بينما هي تتابع:

– مريد كان يثق بك لأنك صديقه الحميم.. وأنا أثق به وباختياراته..

ونهضت من مكانها بعد أن أخذت صندوق العقاقير، ثم قالت وهي تنفض ثوبها:

– أرجو ألا تخون هذه الثقة

وتحركت مبتعدة لكنه قبض على معصمها بقوة وهو ينهض من مكانه بدوره ويقول:

– مهلا..

وجذبها نحوه ليقول:

- الأمر ليس هينا لتقولي ما عندك وترحلي بهذه البساطة

حررت يدها من قبضته ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها وهي تقول:

- ماذا تريد؟

- لا تخبري أحدا بما دار بيننا

رفعت حاجبيها دهشة وقالت:

- لماذا؟

- لكي لا نعطي فرصة للمجرم للهرب أو إخبار أعوانه..

وبدت عليه الحيرة وهو يقول:

- وإن كنت لا أفهم كيف يتواصل معهم

- كيف لم نفكر بهذا؟!

انتبه إليها هارون بينما هي تقول وهي تضرب جبهتها بيدها:

- لعل أعوانه عند أشجار البرتقال تلك كما ظن سراج وفجر

قال هارون:

- لا يمكن ذلك كما قلت، فلو أنهم هناك لقتلونا مرة واحدة.. ما الذي يدفعهم أن يجندوا واحدا منا لقتلنا بينما يمكنهم فعل ذلك بسهولة؟!

ساد الصمت عليهما قبل أن تقول هند فجأة:

- ماذا لو كان سراج وفجر هما الجاسوسان وقد عادا صباحا لتنبيه البقية؟

سرت قشعريرة في جسد هارون.. هذا الاحتمال لم يفكر فيه هو الآخر.. وقبل أن يقول شيئا قاطعهما صوت غسان وهو يناديهما، فاتجها إليه ليقول:

- لا تبتعدا عنا فالخطر لا يزال قائما

أومأ الاثنان برأسيهما واتفقا على أن يكملا الحديث فيما بعد، ثم اتجهت هند إلى خيمتها التي لم يعد يشاركها فيها أحد.. وضعت صندوقها على الأرض ثم أخرجت ثوبها الذي كانت تلبسه بالأمس وقد قررت غسله.. فدماء مريد لا زالت عليه.. كانت تريد الاستحمام أيضا لكنها أرجأت ذلك للصباح عندما تطلع الشمس.. فخرجت من الخيمة وقالت موجهة كلامها لغسان وهارون:

- نحن في حاجة لغسل ثيابنا، وهذا يعني أننا سنمضي الغد كله هنا لكي تجف الثياب تماما

نظر الاثنان إلى بعضهما ليقول هارون:

- لا بأس.. لننتظر الغد وحسب.. وعلى كل حال لقد ابتعدنا عن الخطر بعض الشيء

تم الاتفاق على أن يتولى غسان نوبة الحراسة الأولى مع هارون عوضا عن مريد.. وقام هارون بتوزيع حصصهم من طعام العشاء ثم راح يأكل في صمت، بينما رعد ورفيقه يتحدثان ويضحكان، غير مبالين بمن مات بالأمس ولا بصديقه الجالس بينهم ولم يبد منه أي ردة فعل.. فقد أنهكه الحزن ولم يكن على استعداد للدخول في شجار مع أي أحد..

نظرت إليهما هند باشمئزاز رغم أنها تتوقع الطيش منهما دوما.. لكن الأمر فاق الحد هذا اليوم.. فزفرت بضيق وأخذت طعامها لتأكل داخل الخيمة حتى ينتهيا هما أيضا وينصرفا عن مجلسهم.. وبالفعل بعد أن أنهيا طعامهما دخلا إلى خيمتهم استعدادا للنوم، فقد كانا يستيقظان مبكرا جدا لأجل نوبة حراستهم..

بعد أن تأكدت هند من انصرافهما أخرجت كتابها وخرجت لتقرأ على ضوء النار المشتعلة في الخارج.. ولدهشتها وجدت غسان يقرأ بدوره في كتاب صغير.. وتذكرت أنه نفس الكتاب الذي رأته بيده عندما اجتمعوا في بيت الصياد.. فاشرأبت قليلا لترى المكتوب في الصفحة التي يقرؤها.. بدا أنه كتاب عن الاستدلال بالنجوم لتحديد الاتجاهات..

– هل تتعجبين أنني أعرف القراءة؟

انتبهت لصوت غسان وقد ميزت نبرته الساخرة، فحولت بصرها إليه وقالت بضيق لم تخفِه:

- لماذا تتعامل بهذا الأسلوب الهجومي دائما؟

نظر لها بضيق هو الآخر ثم عاد للنظر في كتابه وهو يقول:

- أنتم من تدفعوننا لهذا.. أحسنوا التعامل معنا لتجدوا صدى ذلك

زفرت بضيق ثم قامت من مكانها وابتعدت عنه قليلا.. لم ترد أن تدخل في جدال معه فهي تعرف أنه يكرههم جميعا ولن تسمع منه إلا ما يثير ضيقها..

تربعت جالسة ووضعت بجوارها المصباح الزيتي الذي أخذته معها كي تتمكن من القراءة.. كانت قد توقفت عند فقرة تاريخية تتحدث عن معركة لم تسمع بها قبلا، فاستأنفت القراءة لتسمع بعد قليل صوت أقدام آتية يليها صوت هارون:

- لماذا تجلسين وحدك

كان قد خرج من خيمته بعد أن بدل ثيابه ليجد هند تجلس بعيدا عن المكان ومعها مصباحها فسأل غسان عما بها ليهز كتفيه علامة على أنه لا يعرف.. لكن هارون استشعر أنه يكذب فاتجه إليها ليعرف منها ما حدث لتجيبه قائلة:

- لا شيء.. أنت تعرف أنني أنا وغسان كالزيت والماء

- هل آذاك بكلمة؟

هزت رأسها وقالت:

- كلا

تنهد ثم جلس بجوارها وهو يقول:

- ماذا تقرئين؟

أغلقت الكتاب ونظرت له بشك فقال:

- ما هذه النظرات؟ ألم تقولي أنك تثقين بي؟

نظرت له مليا ثم فتحت الكتاب من جديد وقالت:

- إنه الكتاب الذي أعطانيه الصياد

- كتاب العقاقير؟

هزت رأسها وقالت:

- ليس كتابا للعقاقير كما كنت أعتقد فحتى الآن لا أجد أنه يحمل موضوعا محددا

عقد حاجبيه وقال باستغراب:

- كيف هذا؟

شرحت له ما وجدت ليتناول الكتاب من يديها ويتصفح أوله.. وجد النصوص الأدبية التي تحدثت عنها وقد كانت رديئة بالفعل.. لا هي بالشعر ولا هي بالنثر وإنما مزيج مزعج يشي بفساد الذائقة الأدبية لكاتبها والذي يبدو أنه حاول كتابة قصائد تعظيم للبلاد لكنها خرجت في النهاية بتلك الصورة المعوجّة..

هز رأسه وقد لوى شفتيه ثم قلب الصفحات ليجد قسم التاريخ كما قالت.. جرى بعينيه سريعا على السطور وتجاوز ما يعرفه مسبقا.. وبينما هو يقلب الصفحات وجد أن أوراق الكتاب غير متجانسة؛ فبعضها من ورق رديء بسماكته العالية وخشونة ملمسه، وبعضها من ورق عادي تآكلت أطرافه، ومجموعة أخرى لها أوراق أكبر بقليل من طول الكتاب وأخرى أقصر.. لم يكن للكتاب غلاف ولا عنوان.. ولم يكن له فهرس أيضا وهو ما تعجب منه هارون ومن قبله هند..

- هل لديك شيء للصداع؟ رأسي يكاد ينفجر

قال هارون وقد وصل الصداع لحد لا يحتمل فردت هند بالإيجاب وذهبت لتحضر له مشروبا للصداع، بينما هو يواصل تصفحه للكتاب.. لاحظ أن كل موضوع كُتِب على مجموعة من الأوراق تختلف عن الموضوع الذي يليه.. فقلب الصفحات سريعا ليجد أن التاريخ ينتهي مع انتهاء مجموعة الورق الطويل ليبدأ بعده فصل عن العقاقير وقد كُتِب على ورق مختلف..

عقد حاجبيه وواصل ما يفعل ليجد أن ما استنتجه صحيح.. وهذا يعني أن شهاب جمع هذا الكتاب من عدة كتب مختلفة، أو أن من أعطاه إياه هو الذي فعل ذلك.. إذ كيف لصياد أن يتحصّل على تلك الكتب لينتقي منها ما يريد؟!

عادت هند ومعها كوب يتصاعد البخار منه، فأخذه هارون شاكرا وأشار للكتاب وهو يرشف من الكوب ليسعل فجأة..

- زنجبيل!

نظرت له هند بدهشة وهي تقول:

- أجل.. ألم تطلب علاجا للصداع؟!

- ألا يوجد شيء غيره؟

- بلى يوجد، لكني صنعت واحدا ولن أهدر ما لدي من عقاقير..

وتابعت وهي ترى تجعد وجهه:

- كن شاكرا لأنني أضفت إليه بعض العسل..

زفر بحنق لتقول بلهجة آمرة:

- هيا اشرب ولا تدعه يبرد فلن أصنع لك واحدا آخر

زفر مجددا وشرب من الكوب وهو يتمنى لو أنه ترك الصداع يشطر رأسه لنصفين بدلا من هذا المذاق الحارق..

وفي محاولة لتناسي هذا المذاق أشار هارون إلى الكتاب وهو يشرح لهند ما وجد، فأخذت الكتاب من يده وراحت تعد المواضيع بحسب نوعية الأوراق لتجدها عشرة..

- عشرة مواضيع

قالتها هند لتبرز في ذهنها فكرة فجأة..

- عشرة!

نطق بها الاثنان وأسرع هارون يأخذ الكتاب منها ويعد مجموعات الأوراق من جديد ليجدها عشر مجموعات.. نظر الاثنان إلى بعضهما البعض وقد أصابهما الانفعال فتسارعت دقات قلبيهما..

- عشرة مواضيع.. دعينا نرى ما هي..

قالها هارون هامسا وهو يذهب لأول كل مجموعة..

- النصوص الأدبية في البداية ثم التاريخ.. يليهما موضوع عن العقاقير..

- هذا خط أبي!

نطقت بها هند متفاجئة ليقول هارون:

- ألم تقلبي في صفحات الكتاب عندما بدأت القراءة؟!

– بلى فعلت.. لكني لما وجدت معظم صفحاته متآكلة فضلت القراءة بالترتيب كي لا أفسده أكثر..

وتابعت متسائلة:

– هل هناك رسالة أراد أن يوصلها لي، ولهذا أوصى الصياد بإعطائي الكتاب؟

– لا أظن ذلك!

نظرت هند إليه وهو يتابع بعد أن وصل لمجموعة أوراق جديدة:

– هذا خط أبي أيضا!

عقدت هند حاجبيها ليقول هارون وقد بدأ يفهم:

– هذه رسائل تركها لنا آباؤنا.. عشرة مواضيع كتبها عشرة رجال..

وتابع في تساؤل:

– لكن ما الذي جعلهم يتركون شيئا كهذا مع شهاب؟ أكانوا يعرفونه من قبل؟!

خيم عليهما الصمت وقد تفجرت الأسئلة برأسيهما.. أسئلة من كثرتها عجز عقل كل منهما عن ترتيبها.. لكن هارون قال أخيرا:

– يجب أن نقرأ هذا الكلام جيدا فهو موجه لنا جميعا

أومأت هند برأسها وهي ترتجف.. فقد جعل التوتر شعورها بالبرد يتزايد، فقالت:

- لنعد فأنا أكاد أتجمد من البرد

وافقها وقاما معا ليعودا إلى حيث يجلس غسان، فجاوره هارون بينما دخلت هند إلى الخيمة مصطحبة معها المصباح لتواصل القراءة حتى ثقل جفناها ونامت حتى الصباح..

أمضت هند اليوم من بدايته عاكفة على قراءة الكتاب، حتى داعبت أنفها رائحة السمك المشوي، ثم ناداها هارون لتتناول الغداء.. فنهضت من مكانها وهي تحرك رأسها في كل الاتجاهات لتتخلص من تصلب عنقها بسبب قراءتها المتواصلة..

كانت قد أنهت الجزء الخاص بالتاريخ وهو أكبر قسم في الكتاب.. فقررت استئناف القراءة بعد تناولها الطعام، لتبدأ بقسم العقاقير والذي كتبه أبوها بيديه..

أنهت طعامها وقامت لتتحسس ثيابها التي غسلتها صباحا وقامت بمدها على قماش الخيمة، فوجدتها لم تزل مبللة رغم انتصاف النهار.. زفرت في ضيق ثم تذكرت أن عليها فحص جرح هارون..

- يبدو أنك سهرت ليلة الأمس

هزت رأسها وهي تزيل الضمادة القديمة عن كفه لتجد أن التورم قد زال..

- أردت الانتهاء من قراءة قسم التاريخ؛ فقد وجدت أن هناك تفاصيل في بعض المعارك مختلفة عما أعرفه

ومع انتهاء جملتها انتبهت للخطأ الفادح الذي وقعت فيه، فرفعت عينيها إليه لتجده ينظر إليها بدهشة.. تعللت بأنها نسيت شيئا وقامت من مكانها لولا أنه أمسك بمعصمها بقوة آلمتها وهو يقول بحزم:

- انتظري

أعادها لمجلسها وراح ينظر في عينيها مباشرة لتقول:

- لا تخبرني أنك لا تعلم أننا نقرأ ما حرمتمونا من تعلمه..

وبادلته النظر وهي تتابع:

- لا أدري لماذا يجب أن نخاف منكم؟ لماذا نخشى أن تضبطونا متلبسين ونحن نستخدم حقا طبيعيا وهبه الله لنا وهو الرغبة في التعلم؟

نبرتها كانت ممتلئة بتحدٍ ممزوج بكراهية لم تستطع تفاديها.. وقد التقطها رغم خفوت صوتها فقال:

– لقد فعلنا ذلك لأن تلك العلوم لن تفيدكم، كما أنها قد تكون خطرا عليكم فأردنا حمايتكم

– خطر علينا؟!

قالتها هند بدهشة ثم أردفت:

– تقصد أنها ستجعلنا خطرا عليكم.. فاتخذتم ذلك الإجراء لحماية أنفسكم

حملق فيها بذهول وقال:

– أنت تتحدثين مثل مريد!

مريد المتمرد كان دائما ما يردد تلك الكلمات.. أخبره مرارا وتكرارا أن الكثير من القوانين قد سُطِّرَت لتكبيل العائلات الدنيا وجعلهم يرزحون تحت وطأة مثلث الموت.. الجهل والفقر والمرض.. قوانين منعت تداول علوم بعينها بين تلك العائلات وأجازتها للعائلات الأعلى.. لكنه لم يكن يلقي بالا لكلام صديقه فقد كانت الأولوية لديه لإصلاح الفساد المستشري في عائلتهم..

أنهت هند تضميد الجرح ثم قالت:

– جرحك بخير.. وفي الصباح سأزيل الضمادة نهائيا

قالت جملتها بجمود ثم نهضت من مكانها..

– هند..

استوقفها نداء هارون فنظرت إليه بينما هو يقول:

– هل يمكنني استعارة ذلك الكتاب منك اليوم؟

فكرت قليلا ثم أومأت برأسها وحملت أغراضها وغادرته.. ثم لم تلبث أن عادت مجددا وأعطته الكتاب دون أن تتبادل معه كلمة واحدة وذهبت لتختفي داخل خيمتها..

عادت إليها مشاعر الكراهية التي تكنها لتلك العائلات رغم محاولات كبحها منذ قرروا بدء هذه الرحلة.. لكن محاولاتها كانت تفشل أمام استفزاز رعد مرة بعد مرة.. وها قد فشلت مجددا أمام كلمات هارون التي توقن أنه يرددها كالببغاء دون إدراك حقيقي أو حتى محاولة فهم لمعناها..

أخذت نفسا عميقا بعد أن أغمضت عينيها وتمددت على الأرض ثم زفرت ببطء.. ستحكم السيطرة على انفعالاتها هذه المرة أيضا حتى ينتهوا من مهمتهم بسلام.. لكن اليأس أضحى يحاول التسلل إليها من حين لآخر حتى كادت تستسلم له.. فقد أحست أنهم جاؤوا للمكان الخطأ؛ فكل ما رأته حتى الآن هو مدينتين خاويتين على عروشهما.. وغابة من الأشجار تفصل كل منهما عن الأخرى.. لكن حدسها كان يخبرها أنها على الطريق الصحيح رغم أن الشواهد تدل على غير ذلك..

تنهدت مجددا ثم فتحت عينيها لتجد أن الظلام قد بدأ يحل عليهم، فخرجت من الخيمة لتبحث عيناها تلقائيا عن هارون.. وجدته ما زال في جلسته التي تركته عليها وقد انكفأ على الكتاب يقرأ فيه باهتمام، ففضلت الجلوس وحدها بجوار خيمتها وهي ترى غسان يحاول إشعال النار بالعود والخشب حتى ظهر اللهب أخيرا، فراح ينفخ فيه بهدوء ويضيف إليه الحطب وأعواد الشجر إلى أن اتسعت دائرة اللهب، فقام بإشعال المشاعل منها وتوزيعها حول مكان مبيتهم كما يفعلون كل يوم..

اقتربت من النار قليلا لتصطلي بها ففي تلك الأيام المعدودات توغل الشتاء سريعا.. راحت تفرك كفيها معا ثم تقربهما من النار حتى شعرت بقدوم أحدهم.. كان هارون قد توقف عن القراءة بسبب حلول الظلام ثم اقترب من النار بدوره ليجدها تجلس أمامها..

- هل يمكنني أن أبقي الكتاب معي حتى الصباح؟

قالها هارون بعد أن جلس لتهز رأسها موافقة ثم ساد الصمت بينهما حتى قطعه صوت رعد وهو يضحك مع رفيقه في مجلسهما بعيدا عن الخيام كما اعتادا مؤخرا.. فعند حلول المساء كانا يشعلان نارا لهما في بقعة بعيدة عن البقية ليتحدثا ويضحكا كما يحلوا لهما وكأنهما في أحد نوادي مدينتهم.. تلك النوادي التي لم يقربها هارون أو مريد قط؛ فما يحدث بداخلها لم يكن مما يدعو للتفاخر به على الإطلاق.. فكانت تلك النوادي بالنسبة إليهما هي لدور الدعارة أقرب..

أمسك برأسه فالصداع لم يفارقه منذ الصباح..

- هل يمكنك أن تحضّري لي شيئا للصداع؟

قالها هارون لتومئ هند برأسها فبادرها قائلا:

- لكن أرجوك لا تصنعي لي الزنجبيل

رغما عنها ارتسمت على وجهها ابتسامة وطمأنته أنها ستصنع له شيئا آخر..

- كان من المفترض أن تتناول كوبين أو ثلاثة منذ الأمس حتى تنتهي الأعراض.. هذا خطئي

أحضرت صندوقها ثم وضعت وعاء على النار لغلي الماء.. ومن حافظة جلدية أخرجت أزهارا بيضاء مجففة قامت بوضع بعضها في الماء الذي بدأ بالغليان، وتركته لدقائق ثم صبته في كوب وقدمته له..

أخذ الكوب شاكرا بينما كانت هي تخرج علبة العسل وتضع ملعقة منه في الكوب.. ثم لملمت حاجياتها وأعادتها للخيمة وهي تبتسم بخبث.. ولم تلبث قليلا حتى سمعته يصيح باسمها فخرجت من الخيمة وقالت متظاهرة بالبراءة:

- ما الأمر؟

- هل تعمدت ذلك؟

- تعمدت ماذا؟!

اقترب منها وهو يرفع الكوب أمام عينيها ويقول بحنق:

- تذوقيه لتعرفي ما أقصد

لم تتمالك نفسها فضحكت ليزداد حنقه ثم قالت:

- صدقني لم أتعمد لكن هذا أفضل من الزنجبيل..

كانت تحاول السيطرة على ضحكاتها بينما هو يغلي كالمرجل.. فزفر بغضب ثم عاد لمجلسه لتجلس بجواره وتقول:

- لو كنت أتعمد ذلك لما وضعت فيه العسل كي لا تضايقك مرارته

نظر لها بضيق ثم عاد يكمل المشروب وعلى وجهه علامات الاشمئزاز ثم قال وهو يشير للكوب:

- ما هذا؟

- إنها أزهار الأقحوان.. فعالة جدا.. لكن عليك شرب كوب آخر قرب الفجر وكوب ثالث وقت الظهيرة..

نظر لها شزرا فقالت وهي ترفع كفيها:

- هذا إذا أردت التخلص من الصداع

زفر بغضب مرة أخرى وهو يمرر أصابعه في شعره، والذي انتبهت هند أنه مكشوف بعد أن استعملت عمامته في تضميد جرح مريد..

تبدل مزاجها ووجمت ثم لزمت الصمت..

كانت أحاديث الاثنين النائيين يصل بعضها إلى مسامعهما.. ميزت صوت تمام وهو يضحك ثم يمثل بفمه صوت عواء طويل لينهره رعد على الفور..

هزت رأسها في ملل ثم اقتربت من النار أكثر.. ووضع هارون الكوب أمامها بعد أن شرب محتواه وقد ارتسم الضيق على وجهه.. وكاد أن يقول لها شيئا عندما صار عواء تمام أقوى وأعمق بشكل غريب.. تعالى فجأة صوت صراخهما فاستدار بسرعة ليرى ما هناك فهاله المنظر..

شيء ما يشبه الإنسان بحجم وطول مرعبَين كان يزأر بصوت انخلعت له قلوبهم.. وكان يطارد رعد الذي فر من أمامه راكضا بكل ما أوتي من قوة وهو يصرخ في رعب.. وفي الحال التفت هارون ليحضر كنانته وقوسه اللذين وضعهما خارج خيمته ليجد أن هند وصلت إليهما قبله.. وبدقة أثارت ذهوله قامت بتصويب سهمها نحو ذلك الكائن المرعب والذي كان قد اقترب من أشجار الصفصاف بعد أن هرب رعد منه ليختفي خلفها..

أطلقت السهم الأول ليصيب الوحش في عنقه فزأر بصوت عال والتفت نحوها لترميه بالسهم الثاني فيخترق كتفه.. ولدهشتهم هرب الوحش من أمامهم واختفى في الظلام..

كان صوت أنفاسهم المتلاحقة يتردد في المكان رغم سكونهم عن الحركة..

– كيف فعلت هذا؟!

صاح بها رعد بدهشة واستنكار لتلتفت إليه هند وصدرها يعلو ويهبط من الانفعال، فتابع وهو يقترب منها:

– من علمك الرماية أيتها المخادعة؟

وقاحته صدمت هارون الذي صاح فيه باستنكار:

– أهذا بدلا من أن تشكرها؟!

التفت إليه رعد وقال:

– أشكرها على خداعنا ومخالفة القوانين؟

– بل لأنها أنقذت حياتك أيها الغبي

كانت هند تنظر بذهول لرعد.. فرغم كل مساوئه لم تتخيل أن تصل به الوقاحة إلى هذا الحد..

– لن يمر هذا الأمر فسأبلغ عنك عندما نعود.. وإما أن يتم إعدامك أو ضمك لجواري القصر..

قالها رعد بحقد بعد أن اقترب منها ثم تابع وهو يشير بسبباته في وجهها:

– وأعدك أنني سأستغل كون أبي ابن عم رئيس العساسين، لأكون أول من ينالك

نزلت كلماته الوقحة على هند كصاعقة أحرقت فؤادها.. وانتفض لها هارون وغسان لينقض هارون على رعد ويسقطه أرضا وهو يكيل له اللكمات وأقذع السباب..

- ستقتله يا هارون!

صاح بها تمام وهو يبعده عن رعد بقوة ثم يمسك بيد الأخير لينهض بصعوبة ثم يقول وهو يمسح الدماء التي لطخت وجهه:

- ستندم على ما فعلت يا هارون.. سأرمي بك في غيابة السجن ولن يعرف أحد لك طريقا

صاح هارون بغضب وهو يندفع لضربه مجددا قبل أن يفصل بينهما تمام بجسده القوي:

- أقسم أنني لن أتركك حيا يا عديم المروءة والشرف

كاد رعد أن ينقض عليه لولا أن تمام ترك هارون وأمسك برعد ليمنعه عنه بالقوة هو الآخر فقال رعد موجها كلامه لهارون:

- لا بد أنك خائن بدورك لتدافع عن هذه القذرة، فالطيور على أشكالها تقع

صاح تمام وهو يجذبه بعيدا:

- يكفي يا رعد

وقام غسان بدوره بجذب هارون كي لا يتحول المكان لساحة حرب..

- سأريه.. أقسم أنني سأريه

ربت غسان على كتفه وهو يقول:

- حسنا لكن اهدأ الآن

لكن أنّى له أن يهدأ خاصة بعد أن بحث بعينيه عن هند ولم يجدها.. نادى عليها بالقرب من خيمتها لظنه أنها بالداخل، ولما لم تجب رفع ستار الخيمة بحذر ليجدها خالية!

- هل رأيت هند؟!

سأل هارون بفزع ليهز غسان رأسه نفيا ثم يقول:

- لا تخف فرعد مع تمام ولن يؤذيها

نظر له هارون بقلق ثم قال:

- ماذا لو هاجمها ذلك الغول مجددا؟

وانطلق هارون مسرعا للبحث عنها وقد حمل مصباحا ليبدد بعض الظلام..

كان المكان ساكنا إلا من أصوات رعد وتمام من حين لآخر.. وخمن هارون أنها لم تبتعد كثيرا.. فراح يتحرك هنا وهناك وهو يناديها دون أن يتلقى ردا.. فاستمر في البحث حتى سمع صوت بكائها..

كانت تحاول خفضه قدر المستطاع لكنه سمعه جيدا بسبب الهدوء.. فتبع الصوت حتى اهتدى لمكانها..

- هند!

توقفت عن البكاء عندما سمعت صوته وهو يدخل للبيت الذي احتمت بجدرانه التي تهدم معظمها..

- لماذا تجلسين وحدك؟

- اتركني وشأني

قالتها بصوت باك، فاقترب منها أكثر ليراها على ضوء المصباح.. كانت تجلس ضامة ركبتيها إلى صدرها وقد أشاحت بوجهها بعيدا عن الضوء..

- وجودك وحدك هنا خطر عليك.. قد يؤذيك رعد

التفتت إليه وقد علت وجهها أمارات الغضب الذي تسرب إلى صوتها وهي تقول:

- دعه يقترب حتى أقتله شر قتلة

زفر في أسى ثم قال:

- ماذا عن الغول إن عاد مجددا؟

نشجت ولم تقل شيئا.. لو أن الغول مزقها تمزيقا لما شعرت بكل ذلك الألم.. لم تزل تتذكر صديقتها سارة التي جرها المسودون جرا إلى عربة الديوان بعد أن دهموا بيتها ليلا..

استيقظ الشارع كله على صوت صراخها هي وزوجها وابنهما الرضيع.. وكانت هند ممن خرجوا مفزوعين من بيتهم ظنا منهم أن هناك لصا في بيت جيرانهم.. يومها وقفت تتابع بعينيها ما ظل يؤرق مضجعها لعدة أشهر.. كان زوج سارة يكاد يقبل قدمي العساس الذي يجرها من شعرها أمام الناس وهي متخففة من ثيابها.. كان يتوسل له كي يأخذه هو بدلا منها حتى لو أنهم سيقومون بإعدامه.. فموته كان خيرا له ألف مرة من أن تصبح زوجته إحدى جواري القصر.. لكن ركلة العساس له كانت هي الرد..

انطلقت عربة الديوان وزوج سارة يصيح في الواقفين أن يساعدوه لاستعادة زوجته لكن الخوف كان متمكنا منهم.. فمن ذا الذي يستطيع الوقوف في وجه أصغر فرد في عائلة العساسين؟!

- لا بد أنها كانت منضمة لتنظيم سري أو أنها اعترضت على أمر أحد المسؤولين في الوحدة..

التفت الزوج لجاره السبعيني الذي تابع:

- لو أنك أغلقت فمها وأطعتما ما تؤمرون به دون نقاش لما حدث هذا

كان الزوج المكلوم ينظر لجاره بعينين ذاهلتين.. تماما كما فعلت هند وأبويها وبعض الواقفين.. لتجد أثر كلمات ذلك الرجل في اليوم التالي متجسدة في قسم الإسعاف عندما أحضر بعض الجيران جثمان زوج صديقتها وقد انتحر!

– هيا لنعد معا

قطع هارون حبل أفكارها بجملته لتصيح فيه:

– لن أذهب لأي مكان فدعني وشأني

وبكت مرة أخرى فجلس هارون بجوارها وأسند رأسه للجدار.. لن يلومها مهما قالت أو فعلت.. فكلمات رعد كفيلة بأن تهز الجبال الراسيات، فكيف بفتاة هشة مثلها؟!

يعلم أنها تخفي وراء قناع صلابتها وجها آخر.. وبكاؤها المر خير دليل على ذلك..

زفر مجددا ثم قال بلهجة لينة:

– إذن سأبقى معك حتى تقرري العودة

أطلقت تنهيدة حارة ومسحت دموعها ثم قامت من مكانها وتبعها هارون وهو يحمل مصباحه، ليتجاورا عائدَين إلى الخيام..

كان رعد قد عاد بدوره بعد أن تحدث معه تمام ليهدأ.. لكن بدا أن كلام تمام كان مسكنا ضعيفا انتهى مفعوله عندما رأى رعد هارون وهند عائدَين معا..

– لماذا عدتما من لقائكما الغرامي مبكرَين؟

صاح بها رعد حتى تصل لمسامع هارون، فأسرع ذلك الأخير ليلكمه لو لا أن حال بينهما تمام مجددا وهو يصيح في رعد كي يكف عن التفوه بالحماقات.. لكنهم فوجئوا بغسان يمسك برعد من تلابيبه وهو يصيح فيه بغضب:

- ألا يمكنك أن تخرس قليلا؟

دفعه رعد بقوة وهو يبادله الصياح مهددا:

- إياك أن تمد يدك علي مرة أخرى أيها الصياد القذر..

وأخرج خنجره من غمده ليشهره في وجهه ويتابع:

- وإلا فلن أرد عليك إلا بهذا

فجأة انقض غسان على رعد غير مبال بخنجره، ثم كال له لكمة قوية أسقطته أرضا.. فاصطدم رأسه بصخرة بارزة من الأرض ليخرس إلى الأبد..

رباط الدم

بدا أن المشهد قد تجمد.. فمن هول المفاجأة لم يحرك أحد ساكنا بعد لكمة غسان القوية.. لكن تمام تحرك أخيرا.. اقترب من رعد الذي خمد تماما ليرى على ضوء المشاعل بركة من الدم بدأت بالتكون تحت رأسه، فشهق برعب ثم قال:

- لقد قتلته يا غسان!

والتفت إلى غسان الذي كان ينظر مذهولا لجسد رعد الساكن.. اتجهت الأعين إليه ليتراجع وهو يقول مدافعا عن نفسه:

- لم أكن أقصد قتله

أدار هارون عينيه عنه إلى حيث جثة رعد، ثم ازدرد لعابه بصعوبة وهو يقترب منه.. انحنى عليه وأمسك برأسه بحذر ليشعر بأصابعه تغوص في جرح في مؤخر رأسه.. جرح نزف منه دم رعد وحياته معا..

اعتدل هارون واقفا وعاد لينظر إلى غسان الذي صاح بعصبية:

- لماذا تنظر إلي هكذا؟ قلت لك أنني لم أقصد

رفع هارون كفه ليهدئ من روعه وقال:

- نعرف أنك لم تقصد.. اهدأ يا غسان

ثم طلب رداء ليغطي جسد رعد به، ومن ثم اجتمع الأربعة حول النار في صمت تام.. تدور في رأس كل منهم مئات الأفكار دون أن يسمحوا لأيها بالخروج للعلن..

أمضوا بعض الوقت أمام النار يصطلون، ثم دخل تمام إلى خيمته.. وحانت من هارون نظرة إلى غسان فوجده واجما مقطبا لجبينه..

– هون عليك يا غسان..

قال هارون هامسا ثم تابع:

– كلنا نعلم أنك لم ترد ذلك..

قاطعه غسان بضيق:

– بسبب ذلك الأرعن تحولت إلى قاتل

هز هارون رأسه وقال:

– كان ذلك عن طريق الخطأ.. لقد رأينا جميعا تهوره، وردة فعلك كانت طبيعية

نظر له غسان وقال بكراهية:

– شخص مثلك ينتهك القوانين كل يوم، وربما أرسل المئات إلى منصة الإعدام لن يلقي بالا لأمر جلل كهذا.. لن تشعر بفارق كبير في قتل أحدهم عن طريق ختم على الورق تأكيدا على جريمته أو أن تقتله بيديك

وقام من مكانه بينما هارون يحملق في مكانه الفارغ بشرود.. هل يظنه حقا مستهترا لهذه الدرجة؟! ألهذا الحد سمعة الحكماء ملطخة في أعين العامة؟ إنهم لا يرون فيهم إلا الجانب المظلم أما الجانب المضيء فهم لا يرونه..

ابتسم هارون ساخرا.. أي جانب مضيء هذا الذي يفكر فيه؟! ألم يكن هو بنفسه أحد الذين أرادوا تطهير عائلتهم مما بها من فساد؟ ألم يبذل أبوه قصارى جهده ليضعه في أقل أقسام القانون فسادا وسوءا؟ فبعد ما طلب إبعاده إلى إحدى الوظائف الإدارية خارج الديوان قوبل طلبه بالرفض لأن الفتى يتبع أباه في الوظيفة العامة طبقا للقانون.. ورغم أن هناك استثناءات في بعض الأحيان إلا أن تلك الوظائف الإدارية يشغلها أقل أفراد عائلة الحكماء مكانة وقيمة، ولن يخاطر الديوان بإحضار أحدهم لوظيفة حساسة كوظيفة الناقض..

عندها أصر الأب أن يكون ابنه تحت عينيه في شعبة الجنائيات.. وأبعده تماما عن مكتب الإعدامات؛ فلم يكن ليسمح أن يلطخ ابنه يديه بدم بريء مهما حدث.. وطيلة فترة عمله كان يتابع عمله عن كثب.. فرغم أنه أحسن تربية ابنه إلا أنه مهما كانت أخلاقه حسنة فقد يطالها التشوه من وجوده في ذلك المستنقع..

وقد كان..

فبعد ترك مريد العمل في الديوان وانتقاله إلى وحدة التمريض كون عمله

إداريا بحتا، أصبح هارون فريسة سهلة للشهوات التي زينها له شياطين الإنس.. ورغم وجود أبوه وكبحه الدائم لجماح غرائز ابنه إلا أنه انزلق بعض الشيء..

لكن رغم كل مساوئه لم يظلم أحدا قدر استطاعته وعلمه.. فالفساد الذي طال قلبه كان قبوله للرشاوى لأجل تبرئة بعض المختلسين لأموال الخاصة من أبناء الخاصة.. ثم تحول إلى كائن مغرور لا يرى إلا نفسه وعائلته.. فكل ماهم دون الحكماء لا يستحقون النظر إليهم.. ويكفي أنه يتفضل بتبرئتهم من تهمهم التي لا يجد لها دليلا.. ألا يستحق هذا أن يصنعوا له تمثالا تمجيدا له وشكرا لطيب أخلاقه!

وبجانب الأب كان هناك مريد دائما.. الصديق المخلص الذي لم يكل ولم يمل من نصح صديقه وردعه عن استحلال المال الحرام.. مريد الذي كان دائما يذكره بالجانب النقي في قلبه لينوي هارون بعد نصيحة من نصائحه أن يتغير.. لكن الحال يعود كما كان بعد زوال تأثير النصيحة خلال أيام..

وها قد اختفى الأب الحاني ومات الصديق الناصح فماذا أنت فاعل يا هارون؟!

انتبه هارون من شروده على صوت بكاء هند.. فالتفت إليها مندهشا ليجدها قد غطت وجهها بيديها وتبكي وهي ترتجف..

أصابه القلق فاقترب منها وهو يقول:

- ما بك؟ لماذا تبكين؟

نشجت ثم رفعت وجهها الغارق بالدموع ونظرت إليه بعينين رأى فيهما تيهًا وحيرة لم يفهم لهما سببا..

- لقد كنت أكره رعد..

قالت هند بعد أن مسحت دموعها..

- وتمنيت له الموت عدة مرات.. لكن لما تحققت أمنيتي شعرت أنني مشاركة في إثم قتله..

وأخذت شهيقا لتتابع:

- لقد آذاني رعد كما آذى الكثير من الناس هو وعائلته.. إنهم مجرمون لا يتورعون عن أي نقيصة أو إثم..

ونظرت في عينيه مباشرة وهي تقول:

- لعلك لم تر ذلك.. أو رأيته وغضضت الطرف عنه طالما أنك بعيد عن الأذى كونك ابن عائلة الحكماء.. رغم كل ذلك الأذى إلا أنني لم أرد أن أصبح مجرمة مثلهم..

أصابته كلماتها في مقتل.. حتى هي تراه بهذه الصورة القاتمة رغم أنها لم تلق منه مكروها!

– لكني أصبحت مثلهم..

أخرجه صوتها من شروده مجددا وهي تقول بصوت خافت وقد بدأت تبكي مجددا:

– كراهيتي له منعتني من إسعافه كما أسعفت مريد

اعتدل هارون في جلسته وقال:

– رعد مات من فوره ولم يكن هناك من سبيل لإنقاذه

هزت هند رأسها ثم قالت وهي تمسح دموعها التي تسيل على وجهها:

– حتى مريد كان ميتا لا محالة.. عندما رأيت جرح عنقه علمت أنه لن ينجوا، ورغم ذلك حاولت رغم انعدام الأمل في إنقاذه

قال هارون محاولا تخفيف الأمر عليها:

– هند.. أنت معالجة ولا شك أنك تعلمين أكثر مني أن إصابة رعد قتلته في الحال، فليس هناك معنى لما تقولين.. لماذا تجلدين نفسك بهذا الشكل؟

– لأن مسؤوليتنا هي الحفاظ على الأرواح وليس سلبها كما تفعلون أنتم

اتسعت عيناه ذهولا وراح يحملق فيها وكأنه لا يصدق ما سمع ثم قال:

– عم تتحدثين؟

اعتدلت هند في جلستها ومسحت دموعها مجددا ثم قالت:

– أخبرك الحقيقة.. الفارق بيني وبينك يا هارون

انعقد حاجبيه وقال وقد ظهر الغضب في نبرته:

- لماذا تتحدثين أنت الأخرى بهذه الطريقة؟ ما الذي رأيته مني كي تنعتيني بتلك المساوئ؟

هزت رأسها وهي تقول:

- لست في حاجة لأن أرى منك شيئا.. فيكفي أنك من عائلة الحكماء

- مريد أيضا كان من عائلة الحكماء.. فما الذي دفعك للثقة به؟

- لقد تعاملت مع مريد بنفسي.. وسمعته الطيبة تترك شذاها أينما حل وارتحل..

وتابعت:

- للأسف فإن الفساد المتجذر فيكم جعل النماذج الحسنة عملة نادرة

نظر في عينيها مباشرة وهو يقول بضيق:

- إذن ما قلته عن ثقتك بي كان كذبا

نظرت له لوهلة ثم أشاحت بوجهها ولم ترد.. لقد وثقت به ولم تكن تكذب.. فخلال أيام أصبحت تعلم أنه مثل صديقه رغم بعض مضايقاته لها.. لكن معادن الناس لا تظهر إلا في الشدائد.. وهارون أثبت مرة بعد مرة أنه رجل.. فقد كان يخمد أي نيران للفتنة والشقاق هو ومريد.. وبعد

موت مريد تولى مهمة القيادة ولم يتنصل منها كما ظنت أنه قد يفعل خوفا من تعرضه لخطر كما حدث لصديقه..

تنهدت هند ثم قالت:

– ليس كذبا.. أنا أثق بك..

ونظرت إلى هارون ثم قالت:

– ويكفيني أنك دافعت عني أنت وغسان عدة مرات بينما لم يحرك الباقون ساكنا

بدت على وجهه ابتسامة ساخرة وقال:

– ولماذا لا تمنحين غسان ثقتك هو الآخر؟

نظرت إليه مليا ثم قالت:

– ألم أقل لك بالأمس أنني أنا وغسان كالزيت والماء؟!

نظر لها هارون بدوره ثم قال:

– دعيني إذن أوضح لك شيئا ما..

وأخذ نفسا عميقا ثم قال:

– رغم أن سمعة عائلتنا سيئة بسبب فساد كثير من أفرادها.. إلا أنني لم أسلب روح أحد كما ادعيتِ.. لن أنكر أني أكلت مالا حراما وسأكفر

عنه حال عودتنا.. لكني لم أظلم أحدا ولم أغمس يدي في دم أحد مهما كان السبب أو المقابل، وإنني لأفضل الموت على ذلك.. لن أنكر أيضا أنني كنت أرى أي شخص خارج عائلة الحكماء لا يستحق الاهتمام..

وسكت قليلا ثم قال:

- كما أنني لم أكن أثق في المعالجين على الإطلاق.. كنت أرى أنكم إما جاهلون، أو مخادعون..

حملقت فيه بدهشة بينما هو يتابع:

- لهذا لم أرد أن تأتي معنا في أول الرحلة؛ فقد كان كلام مريد عن أنك المعالجة الوحيدة وأننا في حاجة لك لم يقنعني.. لكن بعد ما رأيت منك من بسالة لمحاولة إنقاذ مريد رغم أنك تعلمين أن المحاولة غير مجدية كما قلتِ.. وجدت أنني أسأت في الحكم عليكم..

وسكت مرة أخرى ثم قال وهو يشير لكفه المضمد:

- كما أن هذا إثبات آخر لمهارتك.. وهذا أيضا..

كان قد أشار لرأسه وهو يقول:

- لقد زال الصداع..

كان الضوء القادم من اللهب يتراقص على وجهها، ولحسن حظها لم ير احمرار وجنتيها على إثر كلماته.. ورغم هذا فقد أشاحت بوجهها بعيدا ليخيم الصمت عليهما قبل أن يقطعه قائلا:

– ثقتي هذه تجعلني أؤمن تماما أنك لم تتعمدي إهمال رعد..

التفتت إليه ليقول:

– جميعنا أُصِبنا بصدمة مما حدث.. حتى أن غسان نفسه لم يصدق هذا.. لذا فلا تحملي نفسك فوق طاقتها

وعلى ذكر غسان، التفت هارون باحثا ببصره عنه ليجده جالسا في معزل عنهم فقال:

– أخشى أن يهاجمه الغول وهو بعيد عنا هكذا

ارتجفت هند لعبارته ثم قالت:

– وكأنه قد تجسد كما تخيلته بكل تفاصيله.. خاصة تلك القرون المرعبة

التفت هارون إليه فجأة وقال بدهشة:

– قرون!

أومأت هند برأسها ليقول هارون:

– لم يكن له أية قرون يا هند

نظرت له بدهشة هي الأخرى ثم قالت:

- لعلك لم ترها بسبب الظلام

هز رأسه نفيا وقال:

- كلا.. أنا واثق مما أقول..

وسكت قليلا لينتبه فجأة لشيء ما فسألها قائلا:

- هل يمكنك أن تصفي لي كيف كان شكله؟

تعجبت من كلامه لكنها قالت:

- كان طويلا وضخم الحجم.. له قرون طويلة وشعر كثيف على جسده وذيل طويل

نظر لها وعلى وجهه علامات الصدمة ثم قال:

- أتعلمين أنني لم أر ما تصفين!

قطبت جبينها دهشة ليتابع:

- لم يكن له تلك القرون التي تتحدثين عنها، ولا ذلك الذيل.. وكانت له حدبة كبيرة في ظهره..

راحت تنظر إليه والصدمة تغلف ملامحها هي الأخرى.. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ كيف يمكن أن يرى كل منهم شيئا مختلفا؟!

– مريد لم ير ما رأينا.. لماذا؟

انتبهت هند على كلمات هارون فقالت:

– ربما لأنه لم يكن يؤمن به

اتسعت عينا هارون ونظر إليها بدهشة ثم ضرب جبهته بكفه وقال:

– بالضبط هذا ما حدث.. كيف لم نفكر في هذا الأمر من قبل

خيم عليهما الصمت للحظات قبل أن يقول هارون:

– أنا وأنت رأيناه بصفات مختلفة.. وأكاد أجزم أن كل واحد من البقية رآه بشكل مختلف أيضا..

وفرك رأسه وهو يتابع:

– هناك حلقة مفقودة.. هناك شيء لا أدري ما هو.. إنه شيء واضح لكني لا أستطيع رؤيته وسط كل هذا الضباب

قالت هند محاولة التفسير:

– لعله يبدو في أعيننا حسب تخيل كل منا له

رفع هارون رأسه إليها وراح ينظر لها بشرود.. تتوالى الأفكار والاستنتاجات في رأسيهما.. لكنهما غير قادرين على الوصول لرؤية كاملة رغم ذلك..

- لكن ما أنا واثقة منه أننا جميعا رأيناه والسهام تخترق عنقه وجسده

أومأ برأسه بشرود ثم انتبه لما قالت فنظر إليها وقال:

- كيف فعلتِها؟

تحولت ملامحها إلى الاستنفار وكأنما ضغط على زر استفزازها.. فقالت:

- أنت أيضا؟!

رفع كفيه وقال:

- اهدئي.. أنا لا أتهمك بشيء.. إنه مجرد تساؤل..

واستطرد:

- لن أتعجب من أي شيء آخر.. أنت فتاة المفاجآت

احمر وجهها فخفضته ثم قالت:

- أبي علمني.. وقد كان ماهرا

رفع حاجبيه إعجابا وقال:

- يبدو أنك طالبة نجيبة لكي تكتسبي مهارته وتتفوقي عليه لتصيبي الأهداف بدقة في الظلام

رفعت رأسها إليه وقالت ببساطة:

- هذا لأنني كنت أتدرب ليلا

رفع حاجبيه دهشة وهو يردد:

- ليلا!

أومأت برأسها ثم قالت:

- لم نكن لنفعلها نهارا كي لا يرانا أحدهم ويشي بنا.. وأنت تعرف ما قد يحل بنا إن عرف أحد خاصة من العساسين

هز رأسه متفهما وسكت قليلا ثم قال:

- لم تدهشني مهارتك في التصويب بقدر ما أدهشتني شجاعتك..

احمر وجهها مرة أخرى بينما هو يتابع:

- لقد تصرفتِ بسرعة، حتى أنك كنت أسرع مني في التقاط القوس

أصابها الخجل فقالت محاولة التغلب عليه:

- لا تنس أنني عملت عامين في قسم الإسعاف.. هناك تعلمت سرعة التصرف في مواقف أسوأ من هذه بكثير

لم تكد تنهي جملتها حتى عاد غسان ليدخل إلى خيمته دون أن يلتفت إليهما.. فقامت بدورها وهي تقول:

- سأدخل إلى الخيمة لبعض الوقت

هز رأسه وقال وهو يتناول الكتاب الذي كان قد تركه قبل ساعات:

- وأنا سأتابع القراءة

استيقظوا صباحا ليقوموا بدفن رعد.. لكن دون دموع هذه المرة ودون حزن على فراق صديق عزيز.. وبعد انتهاء الدفن فاجأهم تمام بقراره..

- هل جننت؟! إلى أين ستذهب؟

سأله هارون باستنكار بعد ما أخبره بما كان يفكر فيه منذ الأمس.. فقال تمام:

- سأعود لألحق بفجر وسراج.. يبدو أنهما كانا على حق؛ فهذا المكان لم يعد آمنا

قال هارون بعصبية:

- نحن لم نأت إلى هنا لنتفرق.. لقد جئنا لمهمة وعلينا التعاون لإتمامها

هز تمام رأسه وعلى وجهه علامات الأسف ثم قال:

- نحن نتفرق بالفعل.. موت مريد أولا ثم رعد من بعده.. كم مرة سنفقد أشخاصا ونصر على إتمام مهمة مبهمة؟

وتابع وهو يشير لغسان:

- إن أردت المجيء معي يا غسان فسيكون أفضل للجميع كي نرحل مباشرة بالقارب الذي جئنا على متنه، فسراج وفجر لا يجيدان التجديف ولعلهما ينتظران عودتنا

نظر غسان إليه مليا بينما اتجهت أنظار هند وهارون إليه..

– أظن أنني سأذهب معك

– حتى أنت يا غسان؟!

قالتها هند مبهوتة بما تسمع، فقال:

– أجل حتى أنا.. لم أنل من هذه الرحلة إلا قتل ذلك الفتى، وترك أمي وأخويّ وقد أصابهما الجزع لرحيلي المفاجئ والخوف من فقدي للأبد

قال هارون محاولا إثناءه عن رأيه:

– سيشعران بالفخر عندما تعود إليهم وقد أحضرت أباك معك وأنقذت المدينة من ذلك البلاء

ارتسمت على وجه غسان ابتسامة هازئة وقال:

– وإن لم أعد؟ سيفقدان عائلهما الوحيد ومن ثم يتسولون.. كما أنني لا أعتقد أن آباءنا لا زالوا على قيد الحياة؛ فنحن نسير منذ أيام ولم نر أية علامة قد تدلنا عليهم.. وحتى لو كانوا أحياء ففقدان أهلي لأبي خير من فقدانهم نحن الاثنان معا..

وتابع وهو يشير لهارون وهند:

– أنتما لا تعرفان شكل الحياة التي نعيشها.. إنها أسوأ من أسوأ تخيل قد يجول برأسيكما.. لكنكما لن تشعرا بذلك أبدا فكل منكما لديه ما يكفيه.. وإن

أردتما الحصول على ذلك المجد فهنيئا لكما.. أما أنا فلقمة عيشي هي كل ما يهمني..

وأنهى جملته ثم التفت إلى تمام وهو يقول:

- انتظرني حتى أحزم أغراضي لآتي معك

ظهر اليأس على وجه هند بينما دخل غسان إلى الخيمة لجمع أغراضه الشخصية..

- فكرا جيدا..

التفت هارون وهند إلى تمام الذي تابع:

- لا جدوى من الاستمرار، والأفضل أن تنضما لنا..

لم يجب أي منهما حتى خرج غسان وقد حمل حقيبته على ظهره، وكذلك فعل تمام ليقول أخيرا:

- أرجو أن تكونا على صواب، فأنا لا أريد لأحد منكما أن يتأذى.. وسأحاول إقناع عمي بإرسال قارب أو سفينة إنقاذ لكما لكي لا تعلقا في هذا المكان للأبد

وودعهما ورحل هو وغسان تاركَين هارون وهند خلفهما وقد خيم عليهما الصمت..

جلست هند دون أن تتكلم ثم وضعت لكل منهما طعاما وراحت تأكل في صمت.. انضم لها هارون ليأكل في صمت هو الآخر حتى قالت هند بصوت خافت وهي تعبث بإحدى التمرات في صحنها:

- هل يمكن أن يكونا على حق؟

التفت إليها هارون وقال بدهشة:

- هل أصابك اليأس بهذه السرعة؟

نظرت إليه وقالت:

- انظر حولك.. ما الذي وجدناه؟ غسان على حق فكل هذا الجهد والأرواح التي أُزهِقَت كان بلا فائدة

علت وجهه ملامح الغضب وهو يقول:

- ولأجل هذه الأرواح التي أزهقت يجب علينا أن نكمل ما بدأناه..

صمتت وتابعت العبث في صحنها فنهض هارون من مكانه وأزال خيمته، ثم دخل الخيمة التي كان يشغلها تمام ليرى إن كان قد ترك شيئا خلفه فوجد حقيبة رعد.. زفر بضيق ثم أخرجها من الخيمة لتقول هند:

- هل سنحمل الخيام الثلاث معنا؟!

هز رأسه وقال:

- سنحمل واحدة فقط وهي لك بالطبع

وبدأ بجمع أغراضه وثيابه التي بسطها لتجف ثم اتجه إلى الجدول.. غسل وجهه وملأ قربته هو وهند ثم عاد.. لكنه انتبه لشيء ما أثار انتباهه..

– هند!

انتبهت هند على صوت هارون الذي أسرع إليها وهو يقول:

– كم سهماً أخذت من كنانتي بالأمس؟

– اثنين

تفقد كنانته وراح يعد الأسهم الموجودة ثم قال:

– غريب!

اعتدلت في جلستها وقالت:

– ما الغريب؟

أخذ سهماً من كنانته وقام من مكانه ثم طلب منها أن تتبعه إلى الجدول.. وهناك أشار لسهم على الأرض وآخر مغروس في جذع شجرة ثم قال:

– لقد قلت بالأمس أنك واثقة من أن الجميع رأى السهمين يصيبان الغول.. ما تفسير هذا إذن؟

نظرت للسهمين بدهشة ثم قالت:

– ومن قال إنهما لك؟

أمسك بالسهم الملقى على الأرض وأشار لريشته قائلا:

– أنا أضع علامة على أسهمي..

ورفع السهم الذي أحضره معه وهو يقول:

– مثل هذا

نظرت إلى السهمين لتجدهما متطابقين فقالت:

– لعل أحدا ما استعمل سهامك دون علمك

هز رأسه وقال بإصرار:

– لقد أحضرت معي خمسة عشر سهما، والآن لا يوجد سوى ثلاثة عشر.. ما تفسيرك؟

أُرتِج عليها فتابع وهو يرفع السهم الذي وجده على الأرض:

– هذا السهم نظيف تماما.. أي أنه لم يصب أحدا.. فهل أنت واثقة من أنك أصبته؟

– بالطبع.. أحد السهمين أصاب عنقه والآخر أصاب كتفه.. أنت أيضا رأيته ولا أظن أننا نحن الاثنين كنا نتخيل؟

صمت قليلا وهو يفكر.. لقد رأى ذلك بالفعل كما رأته هي.. لكن لاحت أمامه فكرة كانت مستهجنة بالأمس القريب فقال:

– هل كان مريد على حق؟

التفتت إليه ليقول:

- هل حقا لا يوجد شيء اسمه غول؟ وإنما نحن رأيناه لإيماننا به فقط؟

سكت مجددا ثم قال:

- لقد قلتِ أنه ما من أحد قد رأى غولا من قبل، كما أننا لم نر الجاثوم أو أي شيء من تلك الكائنات التي تعيش في عقولنا منذ الصغر، ورغم هذا فقد تعرفنا عليها فور أن رأيناها.. لماذا؟ لأنها تشبه الشكل الذي رسمناه لها في مخيلتنا.. لهذا رأيت الغول بشكل مغاير لما رأيته أنت.. ولا بد أن الجاثوم كان مختلفا أيضا في عيني كل منا..

وقال كأنما تذكر شيئا:

- وعلى ذكر الجاثوم.. لماذا لم نفكر كيف دخل إلى خيمتكما؟ رغم أنني كنت أدور حول الخيام وقتها ومريد كان يجلس على الجانب الآخر حيث مدخل الخيمة.. بالتأكيد لم يخرج لكما من تحت الأرض، ولم يدخل من مدخل الخيمة.. إذن هو من نسج خيالنا..

واستطرد:

- لقد بدأت أميل لرأي مريد.. تلك الأشياء تجسد مخاوفنا وحسب ولا وجود لها.. وربما لهذا أيضا كانت تهرب من أمامنا عندما هاجمناها وأظهرنا عدم الخوف منها

ازدردت هند لعابها ثم قالت:

- لماذا إذن لم نرها في المدينة؟

هز رأسه بعد تفكير وقال:

- لا أدري

- هل يمكن أن يكون هذا المكان مسحورا لتتجسد فيه هذه المخاوف؟ لكن لماذا وما من أحد يعيش هنا؟!

لم يجبها سوى الصمت.. فأشار إليها هارون ليعودا كي يكملا جمع أغراضهما.. وهناك فتح حقيبة رعد ليفرغها من محتوياتها كي يرى ما الذي يمكنهما الاستفادة منه.. وبينما هو يخرج ما فيها اتسعت عيناه لما رأى..

- ما هذا؟!

تساءلت هند وهي ترى هارون يرفع ما يشبه قدما محنطة لحيوان ما.. كان يغطيها شعر داكن اللون وبها مخالب حادة.. فقالت بدهشة:

- لماذا يحمل معه مخلبا كهذا؟

وفجأة قفز الاستنتاج ذاته لرأسيهما..

- ذلك الحقير.. هو من قتل مريد!

بدا الفزع على وجه هند لكنها تذكرت شيئا فقالت:

– ألم تقل أنه كان نائما ليلة مقتل مريد؟

هز هارون رأسه وقال بغضب:

– لم أره.. مريد فقط هو من ألقى نظرة لداخل الخيمة وأخبرني أن الثلاثة نائمون..

واستطرد وهو يلوح بكفه:

– لعله وضع ما يوحي بأنه نائم بالفعل، أو أنه اتفق مع مريد على مقابلته سرا ومن ثم قتله.. واستغل الظلام ليعود إلى حيث كنا ولعله هو من أيقظ الاثنين الآخرين لكي لا يشك به أحد..

وسكت قليلا ليقول وكأنه يحدث نفسه:

– كما أنه استغل سواد ثيابه كي لا يظهر فيها دم مريد

– لكن لماذا قتله؟ ما مصلحته في ذلك؟

عض هارون على شفته السفلى ثم قال:

– لا أدري..

وضرب الأرض بقبضته وهو يقول بغضب:

– لو كنت حيا يا رعد لقتلتك بيدي جزاء لما اقترفته

كان جسده يهتز من الغضب.. لقد تمكن رعد من خداعهم بسهولة وأتقن دوره ببراعة بصفعه لهند والتظاهر بالغضب منها..

- اهدأ يا هارون..

انتبه لصوت هند التي قالت:

- لقد نال جزاءه وانتهى أمره..

وتابعت بسخرية:

- وكانت نهايته على يد أكثر شخص احتقره بسبب مكانته الاجتماعية المتدنية في نظره

مسح هارون وجهه بيده وهو يهز رأسه.. ثم واصل تفتيش حاجيات رعد ليجد علبة صغيرة بها مسحوق ما..

- إنه سم!

قالت هند بصدمة بعد أن فحصت المسحوق ثم تابعت:

- يبدو أنه كان ينوي قتلنا جميعا

نظر هارون إلى العلبة وهو يحترق غضبا، وراودته فكرة مجنونة بنبش قبر رعد والتمثيل بجثته انتقاما لصديقه ولنواياه المقيتة.. لكنه أخذ نفسا عميقا وألقى بحقيبة رعد بعيدا وهو يقول محاولا استعادة ثباته:

- سنضطر لأخذ طعام ذلك الحقير، وسنترك بقية أغراضه فلا حاجة لنا بها

هزت هند رأسها ثم قامت بجمع أشيائها بعد أن أزالت الضمادة نهائيا من على كف هارون وطهرت الجرح..

حزما حقيبتيهما وانطلقا.. كانا يمشيان صامتين.. يفكر كل منهما في كل ما حدث وفي ما يمكن أن يحدث.. لكن ازدحام عقليهما أعجزهما عن توقع أي شيء..

لكن اليأس أصاب هند في مقتل بعد دقائق من المشي عندما لاح من بعيد حزام جديد من أشجار البلوط..

توقفت عن المشي ووضعت كفها على رأسها وهي تقول:

- مرة أخرى!

توقف هارون بدوره وراح يحملق في الأشجار غير مصدق لما يرى.. أما هند فقد ارتمت على الأرض وغطت وجهها بكفيها وهي تحاول ابتلاع مرارة الصدمة..

- لا تيأسي

رفعت رأسها إليه ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وهي تقول:

- حقا؟ متى يحق لي أن أيأس إذن؟

تنهد هارون ثم قال:

- ما الذي كنت تتوقعين أن تجديه؟

نظرت له دون رد فقال:

- لم يتوقع أحدنا ما قد تنتهي إليه القرية

زفرت بضيق ليقول بلهجة لينة:

- لن أكرر كلامي عن أننا أتينا لمهمة وعلينا تحمل المسؤولية.. لكن..

وتابع وهو ينظر في عينيها مباشرة:

- لا تكوني كمن حفر نفقا للهروب ثم يئس قبل أن ينتهي من حفره، وعاد إلى حيث كان وقد كان بينه وبين طريق الخروج ذراعا

قالت بنبرة مستسلمة:

- ماذا سنفعل إذن؟

مد يده إليها وقال:

- برهني على ثقتك بي

نظرت ليده الممدودة لبعض الوقت ثم أمسكت بها في النهاية..

ساعدها على النهوض وهو يقول:

- إن لم نجد شيئا يدل على وجود آبائنا خلف حزام الأشجار، فأنا من سيطالب بالعودة من حيث أتينا

هزت رأسها بلا معنى ثم تابعت المشي صامتة بجواره حتى وصلا إلى الأشجار دون أن يتوقفا عن المشي.. وشيئا فشيئا بدأت الرؤية تتضح من خلف الأشجار.. رأت أن السلسلة الجبلية التي على يسارهم قد اتخذت منحنى حادا إلى جهة اليمين، فما كان منها إلا أن اتجهت ببصرها يمينا لتتسع عيناها وهي تشهق في دهشة..

- ما هذا؟!

قالها هارون مأخوذا بدوره؛ فقد تملكه اليأس هو الآخر وظن أنه لن يجد إلا قرية مهجورة كما في السابق..

هب نسيم قوي بعثر شعره البني الذي لمع تحت أشعة الشمس الدافئة، ونزع طرف عمامة هند من تحت ذقنها ليعبث بها الهواء يمينا ويسارا..

كانا يقفان على تلة مرتفعة وأسفل منهم سهل منبسط به مجموعات من الأشجار تفصل بينهم وبين قصر كبير مهيب.. قصر يمتد على مساحة واسعة.. ومن خلف القصر كان البحر.. تتكسر على أمواجه أشعة الشمس ليبدو وكأنه مغطى ببساط ذهبي لامع مبدؤه شاطئ الجزيرة ومنتهاه خط الأفق..

لم يصدق كل منهما عينيه حتى أن هند قالت وهي مأخوذة مما ترى:

- هل ترى ذلك كما أراه أم أنه وهم؟

هز رأسه وقال:

- بل أراه.. هذا ليس وهما.. ولا بد أن هذا هو ما أمضينا الأيام الماضية للوصول إليه..

والتفت إليها ثم قال:

- وكدنا نتراجع في لحظة يأس

التفتت إليه بدورها وهي تقول:

- هل يمكن أن يكون آباؤنا هنا؟

عاد ينظر للقصر وهو يقول:

- أظن هذا

- ما الذي ننتظره إذن؟

التفت إليها وقال بجدية:

- لا يمكننا الاقتراب في ضوء النهار.. ماذا لو كان هناك أحد غيرهم في ذلك القصر ورآنا؟

تساءلت بدهشة:

- ومن سيكون غيرهم في هذا المكان المهجور؟

هز رأسه وقال:

- لا أدري.. ربما أصحاب أشجار البرتقال، وربما غيرهم وربما لا يوجد أحد.. وفي كل الأحوال الحذر واجب..

وتابع وهو يجذبها للخلف:

- سنجلس هنا حتى الغروب، وبعده سنتحرك

أومأت برأسها موافقة ثم تراجعا قليلا ليختفيا خلف الأشجار.. جلسا بعد أن وضعا حقيبتيهما على الأرض ثم أخرجت هند بعض الطعام ليتقويا بعد مشي تلك المسافة.. وبعدها أخرجت الكتاب وشرعت في القراءة على الضوء الذي يتخلل أغصان الشجر ويصل إليهما..

- نسيت أن أخبركِ شيئا..

التفتت هند إلى هارون فقال:

- بالأمس وأنا أقرأ في الكتاب.. وجدت فقرات لم أسمع عنها في حياتي ولم أقرأها في كتاب قط.. فقرات عن حملات تمرد في فترات زمنية مختلفة تم إخمادها بكل قسوة ووحشية حتى تمكن الخوف والجبن من قلوب سكان المدينة وتوقفت تلك الحملات منذ مئة عام

رفعت حاجبيها دهشة وقالت:

- أنت أيضا؟ لقد ظننت أنني فقط من لا يعرفها بسبب نقص الكتب والمعلومات

هز رأسه ثم قال بسخرية:

- يبدو أنهم تعمدوا تجهيلنا لأغراض دنيئة في أنفسهم.. ولهذا كان هذا الجزء من الكتاب هو الأكبر لأنه الأهم

ساد الصمت للحظات قبل أن تقطعه هند قائلة:

- من الذي كتب هذا الجزء برأيك؟

فكر قليلا ثم قال:

- لا بد أنه والد تمام؛ فقد كان مولعا بالتاريخ ولديه مكتبة عظيمة في بيته لم أر مثلها عند أحد من الحكماء

- لماذا إذن كان تمام بتلك السطحية؟

رفع كتفيه وهو يقول:

- لا أدري.. ربما حاول تقويمه لكنه لم يفلح بسبب نوعية أصدقاء ابنه؛ فأصدقاء تمام معظمهم من أبناء العسس والمحاربين

هزت رأسها وبدأت بقراءة الجزء الذي يليه والذي كان بخط يد أبيها..

اقترب منها هارون بينما هند تقرأ بصوت مسموع.. ومع كل حرف بدأت أعينهما تتسع شيئا فشيئا.. ومع كل حرف كانت الحقائق تتعرى أمامهم وتنكشف..

كانت بداية هذا الجزء عن بعض طرق العلاج والعقاقير التي منعت السلطات تداولها بين العامة، واختارت لهذا بعض المعالجين من أصحاب الضمائر الميتة ليكونوا ضمن حاشيتهم ولا يأتمرون إلا بأمرهم.. ثم أرسلتهم إلى المملكة الغربية ليتعلموا على أيدي علمائها فنون الطب التي لم تصل بعد لأهل مدينتهم، وبعدها لا يتم معالجة أحد بتلك التقنيات إلا بأمر مكتوب من الحاكم نفسه.. ولا يكون العلاج إلا للصفوة..

قلبت هند الصفحة بيدين مرتجفتين لتجد فقرة جديدة تتحدث عن الوشوم المطبوعة في جلودهم، فكان مما قرأت بصوتها المضطرب:

– وتشدد السلطات على منع أية امرأة من الولادة خارج وحدات التمريض؛ لكي يتم فحص المواليد واستبدال الأصحاء بذوي العلل والعاهات لصالح العائلات العليا كما يسمون أنفسهم.. عندها يتم وشم المولود بوشمه الأولي كتوثيق لتبعيته لمن يريدون..

وعليه فإن رباط الدم الذي أوهمونا أنه يربط بين أفراد كل عائلة ما هو إلا أكذوبة كبرى، ولأجله اخترعوا تلك الوشوم كي يمنعوا الآباء الأصليين من استعادة أبنائهم إن تسربت إليهم حقيقة الأمر..

توقفت هند عن القراءة لتلتقط أنفاسها المتلاحقة وهي تنظر إلي هارون.. ثم تابعت القراءة بلهفة في الصفحة التي تليها لتجد أنها تابعة للموضوع ذاته.. عندها عرفت ما استغلق عليها فهمه من قبل.. عرفت لماذا لا تكون الأمراض والعلل إلا في عائلة الصيادين.. فبحكم أنهم في قاع الهرم الاجتماعي حسب التقسيم الجائر من السلطات، كان الأطفال الأصحاء لعائلة الصيادين هم من يتم وضعهم مكان المرضى للعائلات الأخرى أو حتى مكان الأطفال التي تموت قبل وأثناء الولادة أو بعدها مباشرة..

وعرفت أيضا لماذا يتم تعيين مشرفي قسم الولادة بخطاب رسمي من ديوان الوزراء.. فلا بد أن اختيارهم يتم بعناية كي يضمنوا ولاءهم وعدم بوحهم بتلك الأسرار لأي أحد.. وهم يقومون بفحص والدي المولود من العائلات العليا حتى إذا وجدوا فيهما مرضا أو علة قد تنتقل بالوراثة قاموا بتبديل المواليد..

أنهيا قراءة ذلك الجزء وهما متلاحقي الأنفاس لتقول هند برهبة:

- من الممكن إذن ألا تكون أمي هي أمي الحقيقية وأختي كذلك!

لم يرد عليها هارون إلا بالصمت فقد كان عقله مشغولا بشيء آخر بدأ في فهمه الآن فقط.. وعندما انتقلا إلى قراءة الجزء الذي كتبه والد هارون تأكدت شكوكه؛ فنظام الزواج الذي يتم حسب ترتيب أقره رؤساء العائلات تحت

إشراف ديوان الوزراء، لم يكن إلا لانتقاء الأفضل من حيث الحالة الصحية البدنية والعقلية لتقليل احتمالات التشوهات والإعاقات فيما بعد.. كما أنه تم لمنع اختلاط دم المتبنَّين بدم الأبناء الأصليين في عائلة المحاربين بالتحديد!

وآخر سبب هو لمنع زواج الإخوة من بعضهم.. وقد وضعوا هذا السبب في ذيل القائمة وكأن حفظ الأعراض والأنساب ليس أولوية لديهم!

ولضمان ذلك فإن كل المواليد دُوِّنَت أسماؤهم وأنسابهم في سجلات يتم حفظها في مكان سري يتغير كل فترة..

- يا للحقارة.. حتى بعد أن سلبوهم نسبهم الحقيقي يعاملونهم بذات التعالي

قالتها هند بتقزز ثم واصلت القراءة في الجزء الذي يليه.. كان الكلام في بضع صفحات كسابقيه.. وما إن بدأت بالقراءة حتى اقشعر جسديهما من هول ما هو مخطوط على الورق..

مواد كاملة سُطِّرَت في قسم القانون لإعطاء تراخيص للمعالجين التابعين للسلطات لإجراء تجاربهم الطبية على المساجين المحكوم عليهم بالإعدام أو بسنين طويلة لجرائم تافهة تم تلفيقها لهم ظلما..

تراخيص لتجريب العقاقير التي تأتي من المدن والممالك الأخرى على أولئك المساكين للتأكد من فاعليتها أو فسادها قبل عرضها للعامة أو للخاصة..

وتراخيص لإجهاض النساء اللائي اتُخِذن جوارٍ في قصر الحاكم، سواء بقين فيه أو أُهدِيَت إحداهن لمحارب أو وزير أو أحد من قادة العائلات العليا.. إن حملت إحداهن يتم إجهاضها حتى لا يتلوث نسب الصفوة بنسب جارية.. وللأسف فقد فقدت الكثيرات حياتهن في تلك العمليات..

توقفت هند عن القراءة وقد شعرت بالغثيان.. هل يمكن أن يكون هناك بشر بهذا التوحش؟! لأي حجارة تحولت قلوبهم؟

– عندما قرأتِ الجزء السابق تعجبت لماذا لم يخبرك أبوك بتلك المعلومات.. أما الآن فقد عرفت سبب تكتمهم عليها..

نظرت هند إليه بعينين ملؤهما الفزع فقال:

– لو أنهم أخبرونا بها من قبل لربما قمنا بتصرف طائش.. لكنهم تصرفوا بحكمة.. وعلموا متى يسمحون لنا بالاطلاع على هذه المعلومات

مسحت هند وجهها بكفيها ثم أخذت نفسا عميقا علّ ذلك الثقل الجاثم على صدرها أن يتبدد.. وقامت بإعطاء هارون الكتاب وهي تقول بصوت خفيض:

– تابع أنت القراءة

أخذ الكتاب منها وأنهى ذلك الجزء بمزيد من الحقائق المروعة عن مهنة الناقض الذي يعمل في مكتب الإعدامات حيث أن المتهم مدان حتى لو ثبتت براءته.. كما يقول الصفوة دوما!

انتهى من القراءة ثم بدأ بالجزء السادس من الكتاب ثم السابع ثم الذي يليه والذي يليه حتى بقي آخر جزء منه..

وقد كان به ما لم يتوقعاه في أقصى تخيلاتهم..

القبو

"مجموعة الشهاب"

هكذا كان أول سطر في آخر جزء من الكتاب..

- شهاب!

نطقا به في نفس واحد وقد استرعى الاسم انتباههما ثم قال هارون:

- هل هذا له علاقة بذلك الصياد؟

قطبت هند جبينها ثم قالت وقد انتبهت لشيء ما:

- هو من أعطاني الكتاب ولم يخبرني عن ماهيته عندما سألته..

وتابعت في حيرة:

- لكن لماذا أنا بالذات؟

ساد الصمت للحظات قبل أن يقول هارون:

- دعينا نقرأ أولا ثم نفكر في الأسئلة فيما بعد

هزت رأسها وبدأ هارون بالقراءة لتأتيها إجابة سؤالها الأخير.. فمجموعة الشهاب لم تكن إلا رابطة للمتمردين، أنشأها والدها منذ عامين

مع آباء رفقاء رحلتهم.. ووضعوا أهدافا وخططا للتخلص من طوق الظلم الذي يضيق خناقه عليهم يوما بعد يوم..

تمكنوا من ضم بعض المخلصين إليهم، وازدادت أعدادهم تدريجيا.. فأسند المؤسسون مهام لكل عضو، كجمع المعلومات في كل مؤسسة يعملون فيها.. ورغم علمهم بالفساد المتجذر في المدينة إلا أنهم لم يتخيلوا أن يكون بهذه البشاعة..

لكن بعد مدة مات أحد أعضاء المجموعة متأثرا بغارة من غارات الجزيرة التي تصيبهم من حين لآخر.. ولم يكن هذا ليثير شكوكهم إلا عندما مات عضو آخر بنفس الطريقة.. ما دعاهم للشك هو أن أولئك الاثنين كانا ممن أسنِدَت إليهم مهمة البحث عن ملفات وسجلات قديمة تخص مواليد كل عائلة قبل التزوير فيها..

عندها بدؤوا بالبحث في اتجاه آخر..

بدأ والد هند بالتفتيش في السجلات القديمة لوحدة التمريض والخاصة بتقارير قتلى الغارات.. وذلك بمساعدة والد مريد الذي يعمل في قسم الوثائق الخاص بالوحدة..

كان يعلم مسبقا أن علامات موت أولئك المصابين لم تكن تمت لأي سبب يعرفونه بصلة، وأن جميع القتلى وجدت جثثهم في هيئات متشابهة من حيث

التصلب التام للجثة وعلامات الذعر الواضحة على الوجه.. وقد رأى هذا بنفسه عدة مرات أثناء عمله، وهو ما وجده أيضا في تقارير الوفاة الخاصة بهم بعد أن ظن أنه سيجد أسبابا أخرى..

لكن ما انتبه إليه أن الوفيات لم تحدث إلا ليلا، وعندما تكون الضحية في مكان ما وحدها.. فلم يسبق أن رأى أحدهم شخصا يصاب أمام عينيه..

وكانت هذه الملاحظة بداية بحث جديد تم الاستعانة فيها بوالد هارون.. بحث عن أسماء أولئك الموتى في سجلات قسم الجنائيات ممن تمت تبرئتهم في قضايا مختلفة.. لكن لم يتم العثور على ما يفيد.. إلا أنه أثناء البحث لاحظ والد هارون شيئا غريبا.. فالضحايا كانوا من كل العائلات عدا عائلتين اثنتين.. المحاربين والعسس!

وقادتهم هذه الملاحظة بدورها لبحث آخر كان بذرة فكرة القدوم لهذا الجزيرة.. فتساءلوا عن أول من زرع فكرة الغارات القادمة من الجزيرة؟ من الذي رآها أول مرة؟ لماذا شددت السلطات على معاقبة من يتجاوز الحد المسموح للصيد والسباحة؟ ولماذا تحذر دوما من مجرد التفكير في الاقتراب من الجزيرة؟

وكانت الإجابات صادمة لهند وهارون على حد سواء..

فأول من وصف الغارات كانت نشرة رسمية أصدرها ديوان الوزراء نقلا عن شهادة أحد أفراد عائلة المحاربين الذي قال أنه رأى ليلا ما يشبه

الشهاب القادم من جهة الجزيرة باتجاه مدينتهم.. ومع كل غارة إن وُجد شاهد فهو دائما من المحاربين أو العسس!

لهذا قرر مؤسسوا مجموعة الشهاب الذهاب للجزيرة لفك عقد تلك الألغاز..

وبهذا انتهت آخر ورقة من الكتاب ليتوقف معها هارون عن القراءة..

ثمانية أجزاء كاملة قرآها معا لم تشغل أكثر من خمس وعشرين ورقة مختلفة الأحجام والخطوط والمحتوى..

خمس وعشرون ورقة بها ما تشيب له الرؤوس لحكايات عن كل عائلة هي أسوأ مما قبلها، قام بكتابتها مؤسسو المجموعة.. ليُختَمَ الكتاب بجرعة مكثفة من المعلومات الصادمة..

أغلق هارون الكتاب لكنه لم يتمكن من إغلاق أبواب جهنم التي فُتِحت عبر تلك الكلمات المُسطَّرة في صفحاته..

حاول كلاهما استيعاب كل ذلك.. لكن علامات الصدمة المحفورة على وجهيهما وشت بحيرة أعجزت عقليهما بعد أن بدأت الأسئلة بالتزاحم فيهما..

- من هو شهاب؟

كان هذا أول سؤال تبادر لذهن هند وأفصحت عنه..

- هل له علاقة باسم المجموعة أم هو رمز للشهاب القادم من الجزيرة؟

نظر إليها هارون ثم قال:

- لا وجود لتلك الشهب المزعومة؛ فمن الذي رآها؟ لا أحد.. من هو آخر واحد مات في الغارات من العساسين؟ لا أحد.. لم يمت منهم أحد!

وبجملته الأخيرة أثار في عقلها تساؤلا جديدا؛ فأمسكت بالكتاب بيدين مرتجفتين وقامت بعد أقسامه ثم قالت:

- ألم تلاحظ أن والد كل شخص فينا كتب جزءا من هذا الكتاب إلا والد رعد؟!

قطب هارون جبينه دهشة فتابعت وهي تقلب الصفحات بحرص:

- بخلاف الجزء الأول منه.. جزء التاريخ كتبه والد تمام كما قلتَ أنت من قبل، وهذا جزء أبي وهذا لأبيك يليه ما كتبه البقية.. كتبوا ما خفي عنا كلٌّ في تخصصه وبهذا تكون أقسام الكتاب تسعة وليست عشرة..

ونظرت إليه وهي تواصل:

- أليس غريبا ألا يكتب شيئا هو الآخر رغم أنه عضو في المجموعة؟

ساد الصمت للحظات قبل أن يقطعه هارون قائلا:

- لعل الجزء الخاص به قد فُقِد.. أو..

وسكت عن الكلام لينظر إليها بتوجس..

– أو لعله..

ازدرد لعابه ثم قال وقلبه قد اضطربت نبضاته:

– أو لعله خانهم

بادلته هند النظرات المتوجسة ثم قالت:

– كيف لم ينتبهوا لذلك إذن قبل أن يأتوا إلى هنا؟ كيف لم ينتبهوا لعدد أجزاء الكتاب؟

شرد هارون قليلا ثم قال:

– بل قولي لي.. كيف عاد والد رعد وحده إلى المدينة؟

قطبت جبينها ثم قالت ببداهة:

– عاد بالقارب الذي أتوا به إلى هنا

نظر إليها وهو يقول:

– ألم يقل غسان من قبل أنه لن يعطينا قارب والده الآخر لأنهم يتكسبون منه؟ هذا يعني أن قاربهم الأول قد فُقِد.. ومن المستحيل أن يكون والد رعد قد عاد للمدينة سباحة؛ فالمسافة بعيدة جدا

نظرت إليه هند بدهشة ثم قالت:

– كيف عاد إذن؟

وجه بصره تلقاء مكان القصر خلف الأشجار التي تحجبه عنهما وهو يشير برأسه إلى هناك..

- لو عاد بسفينة أو قارب من هنا لتعرف الصيادون عليه فورا

قالتها هند ليجيبها:

- هذا صحيح.. كما أنه كان سيعود حيا أو ميتا داخل القارب نفسه وليس على رمال الشاطئ

شهقت هند ثم قالت بخوف:

- هل تعني أن أحدا قتله؟

صمت هارون قليلا قبل أن يقول:

- ربما

ساد الصمت مجددا حتى قطعته هند هذه المرة وهي تقول:

- لكن الكتاب مقسم بالفعل لعشرة أقسام.. تسعة كتبهم آباؤنا وواحد به كلام لا فائدة منه

حك هارون رأسه قبل أن يقول:

- ربما نعرف هذا من ذلك الصياد عندما نعود.. أو من آبائنا عندما نجدهم

هزت رأسها ثم صمتت لتقول بعد مدة:

- لا أظن أنهم لا زالوا أحياء..

نظر إليها هارون بينما هي تتابع:

- لقد وصلنا إلى نهاية الجزيرة ولم نجد لهم أثرا.. ولو أن والد رعد كان جاسوسا فعلا فهذا يعني أنه أجهز على المجموعة قبل أن يعود.. تماما كما كان ابنه يخطط.. أو أنه استدرجهم لمكان ما لقتلهم..

ويممت وجهها شطر القصر الكائن خلف الأشجار وهي تقول:

- فليس منطقيا أن يقوم وحده بقتل تسعة أفراد دون أن ينتبه أحد منهم

ساد الصمت عليهما مجددا فاستلقى هارون على الأرض عاقدا ذراعيه خلف رأسه وهو ينظر لأوراق الأشجار فوقه والتي كان حفيفها يبعث على السكينة، لولا أنهما الآن في موقف عصيب تحفزت بسببه أعصابهما وتوترت..

أما هند فقد أرجعت ذراعيها للوراء ثم استندت على كفيها ورفعت رأسها بدورها لتنظر إلى أوراق الأشجار..

كانا في وقت الظهيرة أي أنهما سيظلان هنا لساعات قبل أن تغرب الشمس، فاعتدلت في جلستها وفتحت حقيبتها لتخرج صندوقها الخشبي بعدما قررت إزجاء الوقت بصنع بعض الخلطات عوضا عن التي قاربت على النفاد..

وجدت نفسها في حاجة لإشعال النار لكن أشعة الشمس حجبتها كثافة أوراق الأشجار إلا من بعض الخيوط التي تظهر كل حين على استحياء.. فقررت إشعالها بالعود والخشب.. نهضت من مكانها وجمعت ما تحتاجه للمهمة ثم عادت بينما هارون يتابعها في صمت.. لكن مهمة إشعال النار لم تكن بتلك السهولة التي تتخيلها..

حاولت مرة بعد مرة لكنها لم تفلح، لتفاجأ بهارون يلتقط العود من يديها وهو يقول:

- هذا يكفي.. ستدمين كفيك دون جدوى..

قلبت كفيها لتجدهما قد احمرتا من أثر الاحتكاك..

- يبدو أنك لا تجيدين إشعال النار إلا بطريقة واحدة..

وتابع بسخرية مازحة:

- كيف كنت تشعلينها في بيتكم ليلا؟!

كان ينظر لها بمكر ففهمت مقصده.. انزوت ابتسامة على شفتيها وقالت:

- لم أجرب ليلا إلا القداحة، ولا أدري كيف نسيت إحضارها معي

كان قد أشعل النار بالفعل وراح يذكيها بإضافة بعض الأغصان وأوراق الشجر الجافة.. فقالت هند:

- هل لديك إخوة أو أخوات يا هارون؟

نظر إليها وقد تفاجأ بالسؤال لكنه أجابها قائلا:

– أجل.. أخ واحد.. وأنتِ؟

– لدي أخت واحدة أيضا..

وتابعت وقد شرد بصرها:

– ترى ماذا يفعلان الآن؟

أطلق هارون تنهيدة حارة قبل أن يقول:

– لا تفكري فيهم كثيرا الآن كي لا يقتلك الشعور بالذنب.. لقد كدت أتراجع عدة مرات من كثرة التفكير..

وسكت قليلا ثم قال:

– كم عمرك؟ لا بد أنك تحت العشرين

رفعت حاجبيها دهشة وقالت:

– كيف عرفت؟

– هز رأسه وهو يقول ببساطة:

– لست متزوجة حتى الآن إذن أنت لم تبلغي سن الزواج بعد..

وأردف مازحا:

– أو أنك جاوزته وعزفت عن الزواج بالكلية لعدم رغبتك في زوج المستقبل

ابتسمت لكلامه ثم وضعت وعاء على النار وهي تقول:

– لقد أتممت عامي الثامن عشر قبل أشهر.. وعلى كل حال فأنا عازفة عن الزواج اعتراضا على ذلك القانون الجائر

– وهل تعرفينه؟ ذلك الذي يفترض بك الزواج به

أومأت برأسها ثم قالت وهي تسكب بعض الماء في الوعاء:

– أجل.. إنه أحد زملائي في الوحدة.. وقد كان من أحد الأسباب التي شجعتني على ترك قسم الجراحة

– ولم يعترض؟

رفعت أحد حاجبيها استنكارا وهي تقول:

– بأي حق؟

قال هارون بعفوية:

– لو كنت مكانه لاعترضت ومنعتك بالقوة

وانتبه لما قال ليجد هند تحملق فيه بذهول وقد اصطبغت وجنتاها فجأة باللون الأحمر.. فخفضت رأسها وراحت تعبث بمحتويات الصندوق في انتظار غليان الماء.. أما هارون فقد لزم الصمت كي لا يزل لسانه بشيء آخر.. ولم يقطع صمتهما إلا صوت القوارير الزجاجية التي تحركها هند للبحث من بينها عما تريد لصنع دوائها..

استلقى هارون على الأرض مجددا لكن عقله كان منشغلا بشيء آخر هذه المرة.. فألقى نظرة عليها وهي تعمل في صمت ليجد أن وجنتيها لم تزالا متوردتين إثر كلماته..

تنهد وهو يعاود النظر للأعلى محاولا صرف تفكيره لشيء آخر.. كما تفعل هي!

بعد أن انتهت هند من صنع الأدوية تركتها لتبرد قليلا ثم أمسكت بالكتاب مرة أخرى تقلب صفحاته في شرود..

- ترى هل ذلك القصر هو مصدر تلك الغارات؟

قطع سؤالها حبل صمتهما الطويل فانتبه هارون من شروده ثم قال بعد أن أدار رأسه إليها:

- قلت لك أنه لا يوجد غارات.. إنها أكذوبة خدعونا بها كي لا نفكر في السبب الحقيقي لمقتل أولئك المصابين

عقدت حاجبيها وقالت:

- لكن طبقا لما ورد في الكتاب فإن أبي لم يعرف سبب موتهم ولم يعرفه أحد المعالجين.. فلو أنهم قُتلوا كما تظن، فكيف إذًا لم يجدوا أي أثر لخنق أو حقن أو حتى علامات تسمم من عقار أو نبات سام؟

اعتدل جالسا في مواجهتها ثم قال:

- ربما هذا صحيح وربما تم التلاعب بالسجلات.. أو أن هناك طريقة أخرى لا تعرفونها تم قتل أولئك الأشخاص بها..

صمتت وهي تفكر ثم أدارت رأسها باتجاه القصر فقال:

- لا يمكننا فعل شيء الآن سوى الانتظار..

هزت رأسها باستسلام لكنها راحت تفرك كفيها في توتر.. فعمدت إلى صندوقها مرة أخرى لتخرج علبة مملوءة بأزهار مجففة بنفسجية اللون.. فتحتها وراحت تستنشق عبيرها وهي مغمضة العينين..

- ما هذا؟

تساءل هارون بفضول فأدارت رأسها إليه وهي تقول:

- أزهار الخزامى.. سأصنع كوبا ليساعدني على الهدوء.. هل أصنع لك واحدا؟

أومأ برأسه فقامت بملء الوعاء بالماء مجددا بعدما قامت بغسله.. وبينما هي تنتظر غليان الماء أمسك هارون بالعلبة وقربها من أنفه..

رفع حاجبيه دهشة عندما اشتم تلك الرائحة الأخاذة.. لقد اعتاد على روائح العود وأنواع البخور المختلفة، لكن هذه الرائحة لم يجد لها مثيلا.. كانت تأخذه لعوالم أخرى أكثر لطفا وهدوءا..

راح يتأمل الأعواد الجافة والتي تحمل أزهارها بشكل منتظم ويتأمل لونها المبهج.. فأثارت في نفسه مشاعر شتى لا يدري كيف يصفها..

- هل وقعت في غرامها؟

انتبه من شروده على دعابة هند فابتسم وهو يقول:

- تبدو وكأنها رائحة من الجنة

ضحكت لكلماته ثم قالت:

- ألم ترها من قبل؟

هز رأسه نفيا وقال:

- نعم لم أرها.. ولا أدري كيف لم تقع عيناي عليها قبلا!

- إنها المفضلة لدي..

وتابعت بعد أن أخذت العلبة من يده لتضع بعض الأزهار في الماء الذي بدأ في الغليان:

- أنا أعتبرها رائحة الحب

كان هذا هو التوصيف الذي يبحث عنه.. رائحة الحب..

تابعها بعينيه وهي تحضّر كوبين وعلبة مملوءة بالعسل.. هذه الأزهار تشبهها.. تأسر القلب في الحال.. أدهشه ذلك.. فهل يمكن لحب أن يتولد في أيام؟! إنه الجنون بعينه..

أشاح بوجهه عنها وهو يحاول طرد ذلك الخاطر عندما أتاه صوتها كي تناوله الكوب الخاص به.. فالتفت إليها ليأخذه بينما هي تقول:

- إنه مفيد ويساعد على الاسترخاء..

واستطردت وهي تضع في كوبها ملعقة من العسل كما وضعت له:

- يصنع المزارعون منه زيتا ونشتريه نحن منهم لأغراض علاجية

ورشفت من كوبها رغم حرارة محتواه فقال هارون:

- يبدو أنكم لا تتركون شيئا إلا واستفدتم منه

لوحت بكفها وهي تقول:

- نحاول ذلك قدر المستطاع

هز رأسه ورشف من كوبه هو الآخر ليبصقه في الحال وينظر إليها شزرا..

- هل تتعمدين مفاجأتي كل مرة؟

أضحكها مظهره الغاضب فقالت:

- إنه لاذع قليلا لكني وضعت لك بعض العسل.. فلم التذمر؟

- لاذع؟!

قالها باستنكار ثم تابع:

- إنه مر..

وانتبه لشيء ما فقال والحنق لا يزال ملازما له:

- كيف تشربينه دون شكوى؟!

لوت شفتيها وقالت:

- لقد اعتدت عليه..

وتابعت قبل أن ترشف مرة أخرى من كوبها:

- اشرب.. فبعده ستشعر بالراحة

نظر إليها وقد أيقن أنها تشبه الخزامى تماما.. ساحرة.. لكنها صعبة المِراس.. ولأنه رجل لا يستسلم فقد شرب الكوب كله ثم سلمه إليها قائلا:

- سأنتقم

ضحكت وهي تهز رأسها.. ثم أنهت كوبها وتفحصت العلب التي تركتها تبرد ومن ثم أغلقتها ووضعتها داخل الصندوق.. أما هارون فقد استلقى مجددا وقد تبدل مزاجه للمرة الثالثة في أقل من ساعة.. والسبب تلك العنيدة..

كان النهار قد انتصف وصار الجو باردا بعض الشيء خاصة مع وجودهم في الظل.. فاقتربت هند من النار لتدفئ كفيها وعندها قالت:

- كيف هو جرحك؟

رفع كفه أمامها وهو مغمض العينين دون أن يتكلم ثم أعاده لمكانه فابتسمت ومن ثم أمسكت بالكتاب مجددا.. قلبته بين يديها وهي تفكر في السبب الذي جعلهم يكتبونه في هذه الأوراق القديمة.. ولما لم تصل لشيء تراجعت لتستند إلى إحدى الأشجار.. أعادت رأسها للوراء ثم أغمضت عينيها.. وغرقت مرة أخرى في التفكير حتى شعرت بيد تهزها من كتفها وشخصا يناديها..

انتفضت في مكانها وهي تفتح عينيها في فزع، وسارعت بدفع تلك اليد عنها حتى سمعت صوته..

- اهدئي.. هذا أنا..

كان يجلس على ركبتيه أمامها فنظرت إليه بعينين زائغتين قبل أن تغمضهما وتمسح وجهها بكفيها وهي تتنفس الصُعَداء..

- يبدو أنك غفوتِ

أومأت برأسها وهي تعتدل في جلستها لتشعر أن عنقها قد تصلب، فراحت تحرك رأسها يمينا ويسارا ثم قالت وهي تنظر حولها:

- لقد غابت الشمس

نهض من مكانه وهو يقول:

- أجل.. يجب أن نستعد..

أصابتها رجفة إثر كلماته فلم تحرك ساكنا بينما هو يخرج بعض الطعام من حقيبته..

- لنأكل شيئا قبل ذهابنا

لم يجبه إلا الصمت.. التفت إليها ليجدها لم تزل في مكانها فقال:

- خائفة؟

نظرت إليه مليا ثم قالت:

- أجل..

واستطردت:

- ورغم هذا فلدي رغبة في معرفة ما بداخل ذلك القصر

هو أيضا يشعر ببعض الخوف، لكنه لم يبده كي لا يزيد من خوفها هي.. فتشاغل بوضع الطعام في صحنها وقدمه لها.. فاقتربت منه لتأخذه وتأكل.. ومن حين لآخر تقرب كفيها إلى النار لتشعر بالدفء؛ فقد ازدادت برودة الجو لتزيد من ارتجافها الذي سببه الخوف..

لم تكن لديها شهية للطعام.. فاكتفت ببضع تمرات وأعادت الباقي.. ثم أشعلت فتيل المصباح الذي تبقى معهما ليقول هارون معترضا:

– أطفئيه

نظرت إليه بدهشة وهي تتساءل عن السبب فقال:

– لم نذهب في ضوء النهار لكي لا نُرى.. ومن غير المنطقي أن نعلن عن أنفسنا بهذا الوضوح الآن

أطفأت المصباح وهي تقول بتذمر:

– كيف سنرى طريقنا إذن والقمر شبه مختفٍ؟

– نحن مضطران لهذا

زفرت بضيق ثم حزمت حقيبتها ووضعتها على ظهرها قبل أن يخمد هارون النار بوضع التراب عليها.. ثم يعتدل واقفا ويشير إليها للتحرك.. تبعته في صمت ليتلمسا طريقهما حتى خرجا من نطاق الأشجار.. فوقفا ينظران إلى القصر والذي بدا كوحش غافٍ في الظلام ومن ورائه البحر قد استحال إلى بساط أسود بعث بالرعب في نفسها..

بدأ هارون بالسير هبوطا بحذر؛ فقد كان الطريق منحدرا بشدة في بدايته، حتى أن هند كادت تتعثر عدة مرات.. لكنهما هبطا بسلام وراحا يتقدمان في ذلك السهل.. كان الهدوء يعم المكان.. هدوء مخيف لا يقطعه سوى صوت أنفاسهما اللاهثة بسبب الحركة والانفعال معا..

اقتربا أكثر وأكثر حتى اختفت من أمامهما الأشجار توقفا فجأة وهما ينظران لما أمامها برعب..

ارتعش جسد هند بقوة فأمسكت بذراع هارون لتتشبث به..

- ما هذا؟!

همست بها بصوت التقطه بصعوبة.. خاصة وأن عقله قد شل عن العمل لمّا رأى تلك الغيلان التي تحيط بالقصر والتي بدا أنها تقوم على حراسته..

- كيف لم نرها ونحن بالأعلى؟

تساءلت ليقول هامسا بدوره وقد بدأ يفطن لما يجري:

- لأنها لا تظهر إلا في الظلام..

التفتت إليه بعينين مملوءتين بالذعر بينما هو يتابع:

- إنها ليست حقيقية..

والتفت إليها بدوره قائلا:

- هل نسيت ما توصلنا إليه في الصباح؟ لا يوجد شيء اسمه غيلان

أشارت بسبابة مرتجفة لما أمامها وهي تقول:

- لكنك تراها أيضا

- أجل.. ففي قلبي لا زال هناك مثقال ذرة من إيمان بها.. إنها عقيدة زُرِعت في عقولنا منذ الصغر ومن الصعب التخلص منها بسهولة، لكنه ليس مستحيلا..

واستطرد وهو يخلع عنه كنانته:

- ستتغلب عليها.. خذي هذا..

مد يده بكنانته وقوسه إليها لتترك ذراعه وتمسك بهما وهي تنظر إليهما بدهشة فقال:

- لقد واجهنا الجاثوم معا حتى هرب من أمامنا.. وأظهرتِ جسارة في مواجهتك للغول دون أن تتراجعي أو يصيبك الخوف..

وتابع وهو ينظر إليها:

- واجهيهم ولن يتمكنوا من إيذائك

ازدردت لعابها بصعوبة ثم نظرت أمامها.. كل مخاوفها القديمة التي آمنت بها كانت متجسدة أمام عينيها.. فحكايا الغول والنَّسناس(*) والرخ والعنقاء وغيرها كثير كانت عقيدة راسخة بالفعل كما قال هارون..

حكايا لم تكن تُروَى إلا ليلا.. من الجدات وبين أفراد كل عائلة.. يؤمن بها الكبير والصغير إيمانا كاملا.. وها هي الآن أمامها وجها لوجه وعليها أن تكفر بها..

تحرك هارون باتجاهها فاستوقفته قائلة برعب:

- إلى أين؟

التفت إليها وهو يقول:

- سأتقدمك.. وسترين أنهم لن يتمكنوا منا

ازدردت لعابها بصعوبة.. لكنها حاولت أن تسيطر على خوفها.. فأخذت نفسا عميقا وأغمضت عينيها..

- هذا ليس حقيقيا.. كل هذه أوهام

تمتمت بها ثم فتحت عينيها لتجدهم لا زالوا موجودين.. حاولت استجماع شجاعتها المبعثرة ورفعت قوسها ثم صوبت سهما لأحدهم.. أطلقت السهم لتسمع زئيرا مفزعا انتفضت على إثره هي وهارون والذي توقف قليلا، لكنه لم يلبث أن عاود التقدم فنفضت هند الخوف عنها في الحال وأطلقت سهما آخر ليصيب ذات الكائن ويصدر زئيرا أقوى..

تقدمت لتتقلص المسافة بينها وبين هارون ثم صوبت سهما ثالثا وقد تحول خوفها إلى تحدٍ دفعها للتخلص من كل تلك الخرافات.. لكن لدهشتها لم يصب السهم الثالث هدفه لأن ذلك الكائن تلاشى في الهواء!

- أرأيتِ؟

قالها هارون مشجعا فتقدمت أكثر حتى جاورته وهي تصوب السهم الرابع للكائن التالي.. لكن صوت نعيق هادر أتى من فوقهما فرفعت السهم في الحال لتصيب ذلك الطائر الضخم فتلاشى بدوره..

- كان ذلك قريبا

قالتها هند وهي تلهث من الانفعال.. فأخذ هارون القوس من يدها وهو يقول:

- لم تعودي في حاجة إليه.. لقد تغلبت على خوفك بالفعل

ناولته هند كنانة السهام أيضا وهي تقول بتعجب وهما يتقدمان باتجاه سور القصر:

- لماذا نراهم حتى الآن؟ لماذا لم يرحلوا؟

- سيرحلون عندما نؤمن أنهم غير موجودين.. تماما كما فعل مريد

اعتصر الحزن قلبه مع انتهاء جملته.. مريد لم يعِش ليرى ثمرة الرحلة.. لم ير أنهم فهموا ما كان يحاك وراء الجدران لتسميم عقولهم جميعا.. ولم ير أنهم قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من كشف ما بقي من حقيقة.. لكن عزاءه أنه مات في سبيل قضية عادلة وهدف سامٍ.. مريد مات لكن قضيته لم تمت..

انتبه من شروده القصير على أصوات تلك الكائنات وهي تزوم وكأنها تتوعدهما بالويل.. ورغم هذا فقد كانوا يتحاشون الاقتراب منه أو من هند، اللذان وصلا إلى بوابة القصر ليجداها موصدة كما توقعا..

- لا بد أن هناك مدخلا خلفيا وهو ما سنبحث عنه

قالها هارون وبدأ يمشي بمحاذاة السور المعدني الضخم فتحركت هند خلفه تماما.. فرغم تغلبها على خوفها إلا أنها لم تكن تشعر بالأمان إلا بجواره.. وقد تسرب إلى نفسها أنها ما واجهت تلك الكائنات قبل لحظات إلا بسبب وجوده بالقرب منها فاستمدت شجاعتها منه..

استمر بحثهما حتى وجدا بالفعل فتحة في جزء من السور من الجهة الخلفية للقصر.. كانت الفتحة مغطاة ببعض الأغصان الجافة كتلك المنتشرة حول السور كله.. وقد وجدا صعوبة في العثور عليها بسبب الظلام الدامس..

قام هارون بإزاحة تلك الأغصان بحذر ثم مد يده ليتحسس تلك الفتحة وهو يقول:

- أظن أنها تتسع لك بسهولة..

واستطرد:

- ستدخلين أنت أولا وسأدخل من بعدك

وافقته وخلعت حقيبتها ثم تحركت بحذر شديد من خلال الفتحة التي تم صنعها عن طريق إزالة أحد الأعمدة الحديدية من السور.. لكن بقايا

العمود كانت مرفوعة للأعلى ومدببة بعض الشيء مما جعل المرور من خلالها لا يخلو من خطر..

تجاوزت هند السور فمرر لها هارون حقيبتها وحقيبته، ثم حشر جسده العريض في الفتحة بصعوبة، وعندما صار في الجانب الآخر منها كان قد نال بعض الخدوش والجروح..

- هل أنت بخير؟

سألته هند فقال:

- بخير..

ووضع حقيبته على ظهره وهو يتابع:

- سنبحث عن المدخل الخلفي للقصر.. لا بد أنه قريب

وبدءا بالتحرك مجددا مقترِبَين من القصر حتى لمسا جداره، فواصلا التحرك الحذِر وهما يتحسسان الجدار إلى أن وجدا الطريق يميل للأسفل قليلا ثم وجدا بابا خشبيا قام هارون بدفعه رويدا رويدا وتقدم للداخل وهند من بعده..

وفي هذا السكون القاتل لم يكن هناك من صوت سوى صوت لهاثهما بسبب الانفعال والخوف الذي ضاعفته الظلمة التامة.. ورغم هذا فقد عرفا أنهما يسيران في نفق يميل للأسفل كلما تقدما..

كانت هند خلف هارون تماما وقد تشبثت إحدى كفيها بحقيبته والأخرى بذراعه لتعتصره بقوة آلمته خاصة مع أصابعها الدقيقة التي انغرست في ذراعه كالمسامير.. لكنه لم يصدر أي ردة فعل فأي صوت قد يكشف وجودهما إن كان هناك أحد في القصر..

بدأ الطريق ينحني جهة اليسار ليمشي معه الاثنان حتى شهقت هند وهي ترى ضوءا في آخر النفق..

- انظر!

همست بها هند في انفعال لينعقد حاجباه.. هناك إذن من يعيش في هذا المكان.. أو لأجل الدقة يتردد عليه من حين لآخر..

وبرز تساؤل في رأسه.. هل يمكن أن يكون آباؤهم هم من يقيمون هنا؟

هز رأسه وواصلا المشي حتى اقتربا من مصدر الضوء الذي كان مصباحا زيتيا كبيرا موضوعا على طاولة خشبية بجوارها باب خشبي موصد بقفل..

تبادل الاثنان النظرات المترقبة، ثم قالت هند هامسة:

- كيف سندخل؟

شرد قليلا قبل أن يقول:

- المسامير الخاصة بعمود الخيمة

وخلع حقيبته ووضعها أرضا ثم جلس على ركبتيه وهو يفرغها من بعض محتوياتها حتى عثر على المسامير.. لكن هند لم تفهم شيئا حتى وجدته يعتدل واقفا ويولج الطرف المدبب من المسمار في القفل ثم يحركه في عدة اتجاهات.. ولم يمض الكثير من الوقت حتى سمعا صوتا خافتا يصدر عن القفل تلته ابتسامة على وجه هارون..

فوجئت هند أنه فتح القفل وأزاله من مكانه ليرتفع حاجباها دهشة..

- كيف فعلتها؟

رد عليها بابتسامة زهو ثم طلب منها أن تعطيه المصباح الذي تحمله، فأشعله من المصباح الكبير.. وبعده دفع الباب الخشبي بحذر ودخل أولا ثم دخلت هي وراءه..

- أغلقي الباب

همس بها فأطاعته في الحال ثم التفتت لترى الحجرة المتسعة على ضوء المصباح.. بدا أنها مهجورة منذ سنوات؛ فخيوط العنكبوت منتشرة هنا وهناك، وقطع الأثاث المتناثرة قد تغطت كليا بالتراب.. لكنهما أبصرا بابا في أحد أركانها فاتجها إليه ليجدا قفلا آخر.. وبنفس الطريقة عبث هارون بالقفل لينفتح بعد عدة محاولات حتى ظن أنه لن يُفتَح..

دخلا للغرفة التالية ثم أغلقا الباب ليجدا أنهما في ما يشبه المكتبة.. فغر هارون فاه وهو ينظر لكل تلك الأدراج والأرفف التي تحتل النصف الأسفل لجدارين كاملين في حجرة تبلغ نصف مساحة القسم الذي يعمل به في ديوان الحكمة!

- أهي مكتبة قديمة لصاحب القصر؟

تساءلت هند فهز هارون رأسه وقال:

- لا أظن هذا..

واقترب من أحد المكاتب الموضوعة في الحجرة ليمسح سطحه بسبابته ثم يقربها لعينيه ويقول:

- كما أنها ليست قديمة.. الحجرة مرتبة ونظيفة وكأنما هناك من يأتي إلى هنا باستمرار

سرت في جسد هند رجفة.. هذه الكتب لا بد أنها ذات أهمية كبرى، وإلا فلماذا وضعها أصحابها في هذا المكان وأوصدوا عليها بابا وقفلا رغم عدم وجود أحد في الجزيرة؟!

كان هارون يبحث بعينيه عن مصباح ليجد واحدا بالفعل على أحد المكاتب فقام بإشعاله ليتبدد بعضٌ من ظلام الحجرة ويرى المكان بشكل أفضل.. فوجد بابا آخر في نهاية الحجرة..

- لا بد أن هذا الباب يفضي إلى داخل القصر..

قالها وهو يضع حقيبته على الأرض ويتابع:

- سنخرج منه لكن بعد أن نفتش هذا المكان

هزت رأسها وهي تخلع حقيبتها بدورها، فأشار إليها لتبدأ بالأرفف أقصى يمين الحجرة وبدأ هو بالأرفف التي تجاورها..

لم يكن أي منهما يعلم أنه على وشك الدخول إلى عالم أسود.. الجانب القاتم من الحقيقة التي عرفا شيئا يسيرا منها في ذلك الكتاب الذي تركه آباؤهم..

- إنها مُعَنْوَنَة

كانت هند قد رفعت مصباحها للأعلى لترى أُطُرًا مستطيلة كُتِب في كل منها اسم ما يحتويه الرف من سجلات ووثائق.. فقال هارون وقد لاحظ الشيء ذاته:

- ماذا يقول أول عنوان؟

رفعت المصباح لمسافة أكبر لكنها لم تتمكن من الرؤية جيدا لقصر قامتها؛ فقامت بجر الكرسي من خلف المكتب المجاور لها ووقفت عليه لتقرأ:

- قوانين سكان المدينة

رد هارون وقد جذب سجلا من أحد الأرفف العلوية:

- لدينا نسخ من هذه القوانين في الديوان

جذبت هند سجلا بدورها وتصفحته سريعا وهي تقول:

- ماذا وجدت أنت؟

- هذه الأرفف مخصصة لتاريخ المدينة

تابعت تصفحها للسجل ثم أعادته لمكانه ولم تفهم منه شيئا.. وقبل أن تفتح واحدا آخر استوقفها تساؤل هارون..

- ما هذا؟ هل سمعتِ من قبل عن "صُلح سترود ـ بَهرام وإعادة الترسيم"؟

قطبت هند جبينها وهي تجيب بالنفي، ثم اقتربت منه لترى المكتوب بينما راح يمر بعينيه بسرعة على السطور لتتسع عيناه دهشة وذهولا مما يقرأ.. فجلس على طرف المكتب الخشبي وهو يقلب الصفحات الواحدة بعد الأخرى وعيناه تلتهمان الكلمات التهاما..

ولما وجدته هند مستغرقا في القراءة تابعت تفتيش السجلات الموجودة في الرف.. ولم تجد في عناوين السجلات أو فهارس بعضها ما يستحق الاهتمام.. فنزلت من على الكرسي لتنتقل للأرفف المجاورة والتي يقرأ هارون واحدا من سجلاتها عندما قال فجأة:

– هذا الكلام لم ندرسه ولا نعرف عنه شيئا..

التفتت إليه وهو يواصل:

– حتى التاريخ الذي عرفه آباؤنا وسطر بعضَه والدُ تمام في الكتاب، ليس إلا قطرة في هذا البحر المظلم..

اقتربت منه ليقول شارحا وهو يشير للصفحات التي بين يديه:

– ستروود وبهرام هما قائدي المحاربين في المملكتين ما وراء البحر.. غزت مملكتاهما مدينتنا قبل مئتين وخمسين عاما وبدأتا بالتهام الأجزاء الشمالية والغربية منها.. وقتها رفع محاربو مدينتنا راية التسليم لما وجدوا أن قوتهم لن تتمكن من صد تلك القوة الكاسحة.. وقرروا قبول التفاوض مع الغزاة.. وكانت شروط ذانكِ الرجلين أن يسلم المحاربون حاكم المدينة لهما مقابل وقف الحرب، وألا يتم تنصيب أي حاكم آخر على المدينة فيما بعد إلا باستشارتهما أولا!

أنهى جملته بينما هي تحملق فيه بعينين ذاهلتين.. فأخذ نفسا عميقا وتابع:

– وأيضا رفضوا إعادة مناجم الماس التي تقع غرب المدينة؛ فقد أعادوا ترسيم حدود المكان لتكون تلك المناجم تحت سيطرتهم.. لكنهم وافقوا على منحنا نسبة ضئيلة من إنتاج المناجم خاصة وأن غالبية العاملين فيها من مدينتنا باستثناء مشرفين ومهندسين من المملكتين!

ساد الصمت الثقيل بينهما للحظات قبل أن تقطعه هند قائلة بصوت مرتعش:

- هذا يعني أن الحاكم هو شخصية شرفية لا أكثر.. حاكم لأجل المظهر العام للمدينة

ازدرد هارون لعابه ثم قال:

- يجب أن يعلم أهل مدينتنا بكل هذا الغش والتدليس.. لقد تم غسل عقولنا لعشرات السنين حتى ضاعت الحقيقة بين الناس

وفجأة مزق الصفحة التي تحوي نص الصلح لتصيح فيه هند:

- ماذا تفعل؟!

- يجب أن يعرف الناس هذا الأمر

حاولت منعه لكنه أبعد الملف عن متناول يدها بعد أن مزق الورقة وطواها كيفما اتفق ثم وضعها في جيبه وأعاد الملف إلى مكانه.. سحب واحدا آخر تصفحه سريعا ولم يجد فيه ما يفيد فأعاده هو الآخر..

- هل تنوي قراءة كل الملفات هنا؟!

تساءلت هند في دهشة ليقول:

- بالطبع لا.. وإن كنت أريد ذلك بالفعل

كانت أرفف سجلات التاريخ تثير فضولهما معا.. لكن ما باليد حيلة.. فراحا يقرءان عناوين الملفات حتى أخرج هارون واحدا كتب عليه "حقبة التأسيس".. تصفح بعضه لتتأكد لديه المعلومات التي عرفها صباحا.. رباط الدم الذي يجمع أفراد كل عائلة هو شيء لا وجود له.. فقد تم وضع هذا النظام بعد ذلك الصلح المشبوه لإحكام السيطرة على سكان المدينة، ولضمان أن يتمتع أفراد حاشية الحاكم ومعاونيه بكل الامتيازات..

وقام بتمزيق بضع صفحات أخرى من ذلك الملف ووضعها في جيبه كسابقتها، لينتقل بعد ذلك إلى قسم سجلات المواليد التي تم تسجيلها منذ ذلك الصلح تمهيدا لنظرية التقسيم التي يعيشون فيها حتى الآن.. ومر على تواريخها ليضع يده على السجل الخاص بسنة ميلاده هو.. ازدرد لعابه ثم فتحه وراح يبحث عن اسمه ودقات قلبه تتصاعد مع كل صفحة حتى وجدها..

أخذ نفسا عميقا وحرك عينيه على السطور ليجد أنه من عائلة..

- الحكماء..

قالها وتنفس الصعداء لتلتفت إليه هند بتساؤل..

- كنت خائفا أن يكون أبواي ليسا هما الحقيقيان، لكني ابنهما

اقتربت منه وقالت بعد تردد:

- هل يمكنك البحث عني أنا أيضا؟

أومأ برأسه ثم سألها عن سنة ميلادها ليبحث عن الملف.. ولما وجده قدمه إليها فمدت يدها لتأخذه.. لكنها عدلت عن ذلك في آخر لحظة وهي تقول بصوت خفيض:

– ابحث أنت

تفهم شعورها فقام بالبحث نيابة عنها بعد أن أعطته اسمها كاملا.. وبينما هو يقلب الصفحات كان التوتر يأكلها حتى رأت ابتسامته وهو يقول:

– لا تقلقي.. أنت من المعالجين

تنفست الصعداء بدورها وهو يغلق ذلك الملف ويعيده إلى مكانه ثم ينتقل إلى القسم التالي ليقف أمامه مشدوها وهو يطالع اللافتة المكتوب عليها "قسم الجنائيات".. رفع حاجبيه دهشة قبل أن يقطبهما وقد توجس مما سيقرؤه.. فمد يده لأحد الملفات والذي ما لبث أن قرأ عنوانه حتى اقشعر بدنه..

"مكتب الإعدامات".. كان ذلك العنوان مكتوبا بخط الطُغْرَاء على عكس الملفات السابقة والمكتوبة عناوينها بالخط الديواني.. وهذا بالذات ما جعله يرتجف؛ فخط الطغراء لا يُستخدم إلا من قبل الحاكم وديوان الوزراء.. أي أن هذا الملف له خصوصية وأهمية عما سبق..

كانت هند قد توقفت عن البحث في الملفات الأخرى وانضمت إليه لقراءة ما بيده، بينما هو يقلب الصفحات وقد عقد حاجبيه متعجبا؛ فقد كان

ذلك الملف يحتوي على قضايا الإعدامات التي مرت على ديوان الحكمة منذ مئتي عام حتى الآن وكلها تم الحكم فيها بالإدانة!

أعاد الملف إلى مكانه واختطف الذي يليه ليجده كسابقه.. جرائم مثبتة على المتهمين من كل العائلات عدا المحاربين والعسس والحكماء، وقد تم تنفيذ أحكام الإعدام في جميعها بلا استثناء!

أعاد ذلك الملف بدوره ليخرج آخر الملفات حسب الترتيب الزمني ليجد ما جعله يتسمر في مكانه؛ فتاريخ آخر قضية تم الحكم فيها، كان موعده بعد أربعة أشهر من الآن! وأحكام الإعدام جاهزة ومثبتة ضد المتهمين..

ازدرد هارون لعابه بصعوبة وهو يغلق الملف وقد راوده هاجس مرعب.. هل يمكن أن تكون القضايا الخاصة بالمكتب الذي يعمل فيه كتلك التي في الملفات؟!

– هارون.. ماذا هناك؟

التفت هارون إلى هند التي كانت تنظر له بعينين متسائلتين بعد أن لاحظت تسارع أنفاسه.. فبطبيعة الحال لم تفهم ما قرأت بعضه أثناء تقليبه للصفحات..

ظل ينظر إليها بصمت ولم يجبها فقد كان عقله في واد آخر.. وفي الحال عاد إلى الرفوف ليبحث عن القضايا الخاصة بمكتبه، وبدأ بأقدم ملف ليجد

ما توقعه.. القضايا الخاصة بالاختلاس والسرقات والجرائم الأخرى دون القتل، كان الحكم فيها كلها بإدانة المتهمين.. لكنه لاحظ أن بعض الأسماء محاطة بدائرة وأمامها الحكم بالبراءة.. ولما دقق فيها وجد أن كل العلامات قد وضعت على أسماء من ينتمون للعائلات الثلاث العليا.. وقد تأكد له هذا عندما فتح آخر ملف حسب الترتيب الزمني..

- لا أصدق! هذا فجور!

من جديد عادت نظرات التساؤل تطل من عيني هند بينما هارون يتابع وهو يشير لأحد الأسماء:

- انظري إلى هذا..

نظرت إلى حيث يشير فقال:

- هذا الرجل كان مدانا بعدم سداد قرض أخذه من أحد التجار.. لكن دفاعه قدم صك السداد، والذي كان كافيا لأكتب تقريري أنه بريء.. أنا أتذكر هذا الرجل جيدا فقد كانت أمي لا تشتري أقمشة ثيابها إلا من دكانه

قالت هند بعدم فهم:

- ما المشكلة إذن؟

- المشكلة أن المكتوب في هذا الملف هو أن الرجل مدان وعوقب بالسجن لخمس سنوات..

وضرب جبهته بكفه وهو يقول:

– كيف لم أنتبه لذلك؟ ففي ذلك الوقت اختفى الرجل وحلت ابنته محله في الدكان كما قالت أمي.. ولم تكن تعلم هي الأخرى ما حل به لأن ابنته كانت تجيب سؤال الناس عن أبيها بأنه مسافر، حتى أغلقت الدكان نهائيا بعد عدة أشهر

ساد الصمت بينهما حتى قالت هند بعد تردد:

– أتعني أنهم تجاهلوا الحكم الذي قمت أنت بكتابته ونفذوا ما يريدون؟

– أجل.. فهو من عائلة ذات رتبة أقل ولا يستحق البراءة كما يعتقدون

قلب الصفحات ليصل لآخر الأحكام ليجدها هي الأخرى تنتهي بعد أربعة أشهر من الآن.. أصابه الاشمئزاز مما قرأ وعرف.. فأولئك القوم لم يتركوا خطيئة إلا وارتكبوها..

زفر بضيق وكاد يغلق الملف لكن اسما استوقفه، فراح يدقق النظر في المكتوب لتتسع عيناه فزعا..

– هذه قضية تخص أحد المزارعين وقد كنت أعمل عليها قبل مجيئنا إلى هنا..

صاح هارون بالجملة وكأنما أصابه مس من جنون، حتى أن هند أصابها الخوف من أن يكون أحدهم قد سمع صوت صياحه..

– لم أبُتّ فيها بعد.. لقد حفظتها بين أوراقي ولم أقدمها لأي مسؤول، ورغم هذا فقد تم الحكم فيها مسبقا بإدانة المتهم..

نظرت له هند بخوف فقال:

– ذلك الرجل كان بريئا.. أدلة إدانته كانت واهية ولا قيمة لها

أنهى صياحه بتلك الجملة وعاد ينظر للملف بعينين زائغتين.. ثم قام بتمزيق تلك الصفحة هي الأخرى وهو يتابع:

– لقد اخترعوا وظيفة الناقض لتكون غطاء قانونيا لجرائمهم

ووضع الورقة في جيبه بينما هند تقول:

– يجب أن نخرج من هنا.. لقد أصبت بالغثيان من وجودنا في هذا المستنقع

أومأ برأسه وقال:

– سنفعل..

وتابع وهو ينظر لبقية الأرفف:

– فلو بقينا هنا لن نخرج إلا وقد أصبنا بالجنون

لكن قبل أن يتحركا من الحجرة ألقيا نظرة سريعة على بقية الأرفف ليجدا أن بها أقساما متعددة للحسابات ورحلات الصيد التجاري وأقسام

المحاصيل وأنواع العقاقير وهَلُمَّ جرًا إلى آخر الرفوف على الجدار المقابل.. وفي النهاية قررا المغادرة رغم رغبتهما الملحة في قراءتها كلها..

أطفأ هارون مصباح الحجرة وحمل حقيبته وكذلك فعلت هند، ثم تقدما إلى الباب المغلق ليفتحه بنفس الطريقة التي فتح بها سابقَيه.. وبعد محاولات انفتح القفل فأشار هارون إليها أن تطفئ المصباح الذي تحمله ليسود الظلام التام..

وبهدوء دفع هارون الباب وتقدم ببطء ومن خلفه هند بعد أن أغلقت الباب خلفها، لتصطدم قدمه بدرجات تصعد للأعلى..

كاهن القصر

تحركا بحذر شديد على الدرجات الحجرية الصاعدة في مسار حلزوني ليعثرا في نهايتها على باب آخر.. واحتارا في أمرهما.. ففتحهما لهذا الباب مجازفة خطرة إن كان هناك من يعيش في القصر.. لكن لم يكن أمامهما إلا المُضيّ قُدُما فلا مجال للتراجع بعد كل ذلك.. وللمرة الرابعة يقوم هارون بفتَح القفل بذات الطريقة، ثم يدفع الباب بهدوء وحذر شديدَين..

لم يقابلهما إلا الظلام فتنفسا الصعداء واطمأنا أنه لا أحد في هذا الطابق على الأقل..

- كيف سنرى معالم المكان؟ وكيف سنتحرك؟

همست بها هند ليرد عليها هارون بهمس آخر:

- سنتحسس طريقنا لنصل إلى الدرج المؤدي للطابق العلوي

- وماذا عن الغرف في هذا الطابق؟ ألن نتفقدها؟

- كلا..

وبدأ هارون بالتحرك فعليا وهو يتابع:

- إن كانت هناك غرف بالفعل فلا يوجد أحد فيها؛ فأنا لا أرى أية علامة على وجود ضوء قادم من أسفل أي باب

لمست كفه جدارا، فراح يتحسسه وهو يتقدم حتى اصطدمت قدمه بدرج آخر لم يتردد في اعتلائه.. درجة تلو الأخرى ارتقياها اعتمادا على إحساس أقدامهما وحسب..

يتحركان في ظلام وسكون القاتل كاد يحطم أعصابهما؛ فلو أن فأرا ركض بين أقداهما لماتا رعبا في الحال.. لكن لحسن حظهما لم يقابلا ذلك الفأر.. بل قابلا شيئا آخر..

لقد افترضا وتمنيا ألّا يجدا أحدا في هذا القصر على الأقل في الوقت الحالي.. لكنهما تمنيا أيضا أن يقابلا أحدا له علاقة بالقبو وما فيه.. ولدهشتهما فقد تحققت أمنيتهما الثانية عندما لمحا خيطا رفيعا من الضوء يظهر من تحت أحد الأبواب..

توقفا في مكانهما وقد تسارعت دقات قلبيهما انفعالا لتهمس هند في أذن هارون قائلة:

– ماذا سنفعل؟

لم يدر هارون حقا ما هو التصرف الصائب.. أهو التقدم واقتحام الغرفة أم التراجع والاكتفاء بما عرفا حتى الآن؟ وكأنما قرأت هند أفكاره فقد همست مرة أخرى:

– لا تقل أننا سنتراجع الآن!

أخذ نفسا عميقا ثم رد هامسا بدوره:

- كلا.. لن نتراجع فلعل أحدا من آبائنا هناك

ومع كلماته كان يربت على كفها المتشبثة بكتفه.. يعلم أنها خائفة وصوت أنفاسها المتلاحقة ينبئه بذلك فأراد بث الطمأنينة في قلبها..

تحركا حتى اقتربا من الباب ووقفا خلفه ينصتان لعلهما يسمعان شيئا إن كان أحد بالداخل.. وبعد وقت ليس بالقصير سمعا بالفعل صوت شخص ما بدا وكأنه يتحدث لشخص آخر.. فشحذا سمعهما جيدا ليصل إليهما بعض من الحديث الدائر بالداخل..

كان حديثا من طرف واحد بينما الآخر ينصت خوفا! استنتجا ذلك لأن الحديث كان غاضبا قريبا للصياح ولهجته معنّفة.. هذان إذن رئيس ومرؤوس.. ويبدو أن ذلك المرؤوس قد نسي شيئا ما نال بسببه ذلك التقريع..

صيحة أخرى من ذلك الغاضب انفتح بعدها باب الغرفة فجأة ليتوقف قلباهما عن الخفقان لثوانٍ..

لكنهما تماسكا خاصة عندما أغلق الرجل الباب على عجل وتحرك مهرولا بعيدا عنهما دون أن يراهما رغم حمله لمصباح صغير.. لكن هارون لم يكن ليترك فرصة كتلك تفلت من بين يديه؛ فقد انقض على الرجل من الخلف

مكممها فمه بيد ومنتزعا المصباح بيد.. ومن خلفه هند أسرعت بأخذ المصباح منه ليتمكن هو من شل حركة الرجل بشكل أفضل..

لكن الرجل كان يئن ويصارع هارون في ذعر مما جعل ذلك الأخير يخرج خنجره وهو في غمده ويسدد له عدة ضربات بقاعدة الخنجر على مؤخر رأسه حتى فقد وعيه..

وضعه هارون على الأرض وأعاد خنجره لجيبه وهو يتراجع خطوة ويلهث ناظرا للجسد الممدد أمامه.. ثم التفت إلى هند التي كانت تحمل المصباح وتبادلا النظرات القلقة.. وفهمت هند مقصده على الفور فجثت على ركبتيها أمام الرجل وأمسكت بكفه بيدها المرتعشة لتجد أن نبضه منتظم.. فاعتدلت واقفة وهي تهمس:

- إنه بخير

هز هارون رأسه ثم قال هامسا:

- سندخل الآن فابقي خلفي

أومأت برأسها موافقة بينما هي تنظر لعينيه على ضوء المصباح الذي تحمله.. بدا لها أنها لم تره منذ دهر.. لم يستمر لقاء عينيهما إلا لثوان معدودة إلا أنه أمدها بسكينة تعجبت لها وتبعته على إثرها وهي تستشعر حمايته لها..

تقدم من الباب ثم طرقه ليصل إلى آذانهما صوت الغاضب من الداخل يصيح أن "ادخل أيها الغبي".. لكن الغبي كان ممددا على الأرض فاقدا لوعيه.. ومن فعل به ذلك يمسك بمقبض الباب ليفتحه ويدخل..

ضيقا أعينهما بعض الشيء بسبب الإضاءة القوية بالداخل، والتي لم يرها أيٌّ منهما من خارج القصر لوجود تلك الأستار الثقيلة على نوافذ الغرفة..

كان الغاضب يرتدي عباءة رمادية طويلة مثلهما لكنها كانت فاخرة المظهر، وعلى رأسه عمامة من قماش رمادي متداخل مع قماش أسود لم يسبق لأي منهما أن رآها من قبل.. وكان يوليهما ظهره وهو يفتح علبة خشبية صغيرة، بينما على يمينه مبخرة كبيرة موضوعة على منضدة رخامية مستديرة..

- غريب أنك أحضرت ما طلبته منك بهذه السرعة

قالها الرجل ليشعر هارون أنه سمع هذا الصوت من قبل.. وتأكد حدسه عندما التفت الرجل إليهما..

- قابيل موسى!

صاح بها هارون بدهشة بينما سقطت العلبة الخشبية من يد قابيل من أثر المفاجأة.. هذا العساس الخمسيني الذي كان يظهر في ديوان الحكمة من حين لآخر ليلقي عليهم بيانا صادرا عن ديوان الوزراء، أو لإعطائهم محاضرة عن مجهودات ديوان الحكمة في حفظ السلام في المدينة وإرساء قواعد العدل..

وكان هارون يتعجب من كذبه الوقح وترديده لما أُملِي إليه بل والتجويد فيه؛ فأطلق عليه لقب "البوق"، خاصة وأنه كان يقوم بذات الفعل في بقية الدواوين..

– من أنتما؟ وكيف دخلتما إلى القصر؟

انتبه هارون من شروده على صوت قابيل الذي تمتم وقد فهم ما يحدث:

– أفلتما من رعد إذن..

وصاح فجأة بصوت عالٍ:

– صفوان..

قاطعه هارون وهو يتقدم نحوه:

– لا ترهق نفسك.. صفوان في إغفاءة قصيرة ولن يجيبك الآن

تراجع الرجل للوراء خطوة قبل أن تمتد يده إلى عصا موضوعة على الكرسي المجاور له، لكن هارون انقض عليه سريعا مانعا إياه من الوصول إلى مبتغاه ثم صاح بهند قائلا:

– أخمدي تلك المبخرة في الحال

صرخ قابيل وهو يحاول الفكاك من ذراعي هارون القويين بينما هرعت هند لتنفذ ما قاله.. فأمسكت بإبريق فضي مملوء بالماء وجدته على الأرض مجاورا لكوب بلوري، ثم أفرغته كله فوق المبخرة..

- ستندمين أيتها الحمقاء

صاح قابيل بصوت مختنق لكن هارون الجاثم فوقه تجاهله وقال موجها كلامه لهند:

- اكسري هذه العصا أيضا

وأشار إلى العصا التي أبعدها عن يد قابيل في اللحظة الأخيرة ليصرخ الأخير قائلا:

- كلا.. اتركي العصا

لكنها كسرتها إلى نصفين ثم ألقت بها جانبا وقالت:

- أنت أعزل تماما الآن أيها الدجال

لم يتوقف قابيل عن محاولاته للخلاص من هارون، لكن فارق القوتين بين رجل شارف الستين من العمر وبين شاب قوي البنيان كان في صالح هارون بالطبع، والذي قرر استغلال قوته في انتزاع إجابات الأسئلة التي ملأت عقله منذ أتى للجزيرة..

- إذن فقد كانت الأوامر أن يتخلص منا رعد واحدا تلو الآخر..

قالها هارون بغضب ثم تابع:

- لكن رعد قتلته حماقته.. كان من الأجدر بكم أن تختاروا شخصا أفضل من ذلك المتهور..

حملق فيه قابيل بدهشة ليقول هارون:

- وطالما أنك على علم بالمهمة التي جئنا لأجلها أخبرني إذن أين هم آباؤنا، ومن الذي كلف رعد بقتلنا ولماذا.. وما سبب وجودك هنا؟

هز قابيل رأسه ساخرا وعلى وجهه ابتسامة صفراء وهو يقول:

- وهل تظنني بهذه السذاجة كي أجيبك على أي سؤال؟

مد هارون يده في جيبه ليخرج خنجره ويشهره أمام عيني الرجل التي تحولت نظرات السخرية في عينيه إلى نظرات فزع حقيقي.. ثم قال:

- هذا سيجعلك تجيب..

وقام بوضع طرف الخنجر أسفل ذَقَن الرجل قائلا:

- تكلم

هز قابيل رأسه مجددا وقال بصوت خرج مرتعشا رغما عنه:

- لا شيء لدي لأقوله لك

بدأ هارون بغرز الخنجر في لحم الرجل حتى ظهرت قطرة دم صغيرة ليصرخ ألما بينما هارون يقول بصوت مخيف:

- أنا لا أمزح.. سأذبحك كالشياه إن لم تخبرني بما تعرف

ودفع الخنجر أكثر ليصيح الرجل قائلا بألم:

- حسنا سأتكلم لكن توقف أرجوك

لم يلق هارون بالا لرجائه وأعاد أسئلته ليقول قابيل وهو يلهث:

- لا أعرف أين هم.. أما رعد فلعل أحد أعمامه من كلفه بذلك ليثأر لموت هزيم

ترك هارون الخنجر من يده ثم لكم قابيل في وجهه ليدمي شفتيه فصرخ الأخير بألم..

- لا تكذب!

صاح فيه هارون بغضب بينما بدأت الدماء تغرق وجه الرجل فقال ظنا منه أن إجابته ستنجيه من قيد هارون:

- آباؤكم ليسوا هنا فقد قتلهم هزيم بالسم وألقى بهم في مكان بعيد..

وجه له هارون لكمة أخرى أفرغ فيها بعضا من غلّه فكسر أنفه.. صرخ الرجل مجددا وقد تبخرت شجاعته حتى تلاشت بينما هارون يسأله:

- ومن كلف رعد بقتلنا ومن قبله أباه؟

- إنه رئيس العساسين

- وكيف عرف ذلك المأفون أننا آتون إلى هنا؟

قال قابيل وقد بدأت الدموع تطفر من عينيه:

- رعد وأبوه هما من أخبراه في كل مرة.. فرئيس العساسين ابن عم هزيم

في الحال قفز إلى ذهن هند جملة رعد التي توعدها بها مستغلا قرابته لرئيس العسس.. كما تذكرت زوجة ذلك الرجل عندما حضرت عرس ابنة شاهر قبل أسبوعين تقريبا.. فنظرت لقابيل باشمئزاز ثم قالت:

– وماذا الذي تفعله أنت في هذا المكان المقفر؟

أدار قابيل رأسه إليها ولم يجب، فأمسك هارون بخنجره ووضعه أسفل ذقنه مرة أخرى وهو يقول:

– ألم تسمع ما قالت؟

كان المذاق الصدئ للدم قد تسلل إلى شفتي قابيل مما أصابه بالغثيان، وقد زاد من شعوره ثقل جسد هارون الذي لم يتزحزح من فوقه قيد أنملة.. لكن شعور الألم طغى على كل شيء عندما عاد هارون لغرز طرف خنجره في لحمه، فتأوه وقال وهو على وشك البكاء:

– أنا مكلف بحماية المدينة

ضغط هارون خنجره أكثر وهو يصيح فيه بغضب:

– ألم أقل لك ألا تكذب؟

صاح الرجل بصوت باكٍ:

– أقسم لك أنني لا أكذب

قطب هارون حاجبيه وهو يقول:

- فسر ما قلته إذن

أومأ قابيل برأسه وقال:

- هذه الجزيرة هي مصدر الأوهام التي تُبَث في عقول السكان لإحكام السيطرة عليهم وتسييرهم في مسار يريده الحاكم لضمان استقرار المدينة.. فكل الأساطير التي يؤمن بها الناس مصدرها من هنا.. كما أنهم..

وتوقف عن الكلام وهو يحاول إخفاء أكبر قدر من المعلومات، لكن هند هذه المرة هي من جعلته يتكلم، فقد قامت من مكانها متجهة إلى المبخرة لتنتقي جمرة لا تزال ساخنة بماسك معدني وجدته بجوارها.. ثم عادت إلى الرجل ومزقت كمه لتكشف ذراعه وتضغط بالجمرة عليه فصرخ بقوة وهي تقول ببرود:

- إياك أن تخفي شيئا

ورفعت الجمرة بينما الرجل يلهث وقد تصبب عرقا وسالت الدموع من عينيه..

- إنهم يحفظون وثائق مهمة في هذا المكان لكنني لا أعرف موقعها بالضبط..

نظر له هارون بشك فصاح الرجل مستبقا أي فعل له:

– أقسم أنني لا أعرف مكانها ولا أعرف محتواها.. فقد سمعت بالأمر مصادفة..

وأخذ شهيقا ليكمل:

– وسمعت أيضا أنهم يقيمون تجارات ممنوعة خلف الجبال المطلة على هذا القصر لكني لا أعرف ما هي أيضا.. ولديهم بستان كبير به عدة محاصيل ذات جودة عالية يبيعونها لبعض الخاصة ويصدرون بعضها للمملكة الغربية

الآن فهما سر وجود أشجار البرتقال تلك وعرفا لمن تؤول ملكيتها.. ورغم اتضاح بعض الأمور لهما إلا أن كل جملة كان قابيل يتفوه بها كانت تثير مزيدا من الأسئلة في عقليهما فقال هارون:

– قلتَ أن هذه الجزيرة هي مصدر الأوهام والأساطير.. كيف ذلك؟ وكيف فعل ذلك الحاكم لاستقرار المدينة؟

تردد الرجل قليلا فعادت هند لتضع الجمرة في موضع آخر من ذراعه ليصرخ مجددا ثم يقول باكيا:

– أنا من يصنعها.. وأنا من يطلقها هنا عن طريق السحر.. آتي إلى هنا في كل شهر بعد تمام البدر بعشرة أيام لأقوم بهذا الأمر.. وكل كائن أقوم بتجسيده يتغذى على خوف الناس منه، بعد أن يزرعه كهنة الديوان في عقولهم ويقنعوهم بوجوده

- كهنة الديوان!

قالها هارون وهند في وقت واحد وراحا ينظران لبعضهما في دهشة، بينما شعر الرجل أنه ارتكب خطئا سيدفع ثمنه ألما إن لم يفسره هو الآخر فأسرع يقول:

- إنهم مثلي.. متخصصون في السحر من كل عائلة ومركزهم ديوان الوزراء.. هم من يضعون خطط التعليم لكل عائلة.. وهم من يذيعون القرارات للعامة..

قاطعته هند قائلة بحنق:

- وهم من أوهمونا بتلك الغارات أليس كذلك؟

نظر لها قابيل بعينين زائغتين ثم قال:

- بلى

عاد هارون يدفع الخنجر في ذقنه وهو يقول:

- إذن ما حقيقة وفاة ضحايا تلك الغارات المزعومة؟ ولماذا تتطابق أعراض وفاتهم؟

ابتلع قابيل ريقه المختلط بالدم ثم قال:

- لقد ماتوا بالسم

- سم؟!

قالتها هند بدهشة وقد قطبت جبينها فقال قابيل مفسرا:

- أجل.. إنه سم مطور تم استيراده من المملكة الشمالية.. وقد صُنع في الأصل لإعدام مجرميهم

سأله هارون وقد اعترته الدهشة:

- ولماذا قتلوا أولئك الأشخاص بالذات؟ هل من سبب خفي أم أنهم فعلوا ذلك خَبْطَ عشواء؟

هز قابيل رأسه وهو يقول:

- لا أدري

لم يزجره هارون هذه المرة ليدفعه لقول الحقيقة فقد بدا أن الرجل يتكلم بالصدق بعد كل تلك العذابات التي هبطت على رأسه من حيث لا يدري.. لكنه سأله سؤالا أخيرا:

- ولماذا لا نرى تلك الكائنات في المدينة؟

قال الرجل متألما:

- لأنها تعتبر المادة الخام للأوهام.. ولو أطلقت في المدينة لعمت الفوضى

قال هارون بغضب:

- كل هذا يعني أنك هنا لحماية الحاكم كي يسيطر على المدينة جيدا وليس لحماية المدينة كما زعمت..

ثم انتقل للخطوة التالية قائلا:

- هذا الكلام ستعيده مرة أخرى أمام الجميع عندما نعود للمدينة لكي يعرفوا الحقيقة التي أخفيتموها عنهم

قال قابيل بفزع:

- كلا.. لا يمكنني ذلك.. لا يمكنني

ابتسم هارون هازئا وقال:

- بالطبع لا يمكنك فأنت ماهر فقط في تغييب العقول وليس في تنويرها..

ووسط حديثهما لاحظت هند حركة عيني قابيل لشيء ما خلفها، لكنه لم يلبث أن عاد بالنظر إلى هارون الذي قام من فوقه وهو يجذبه من ثيابه ليقف على قدميه ثم قال:

- الآن ستخرجنا من هنا كما تخرج أنت دوما

التفتت هند في الحال لتجد صفوان في مدخل الغرفة بعد أن أفاق من إغمائه.. كلن يقف فاغرا فاه وهو يرى سيده في تلك الحال المزرية.. وفي

الحال صرخ فيهما أن يتركا قابيل وشأنه فخرج صوته مرتجفا كجسده.. ورغم خوفه إلا أنه انقض على هند يدفعها بقوة حتى كادت تسقط على الأرض.. فالتفت هارون بغتة وتشتت تفكيره لثوان لينتهز قابيل هذه الفرصة ويتملص من قبضته لتنقلب الكفة لصالحه..

حدث كل شيء بسرعة.. فقد هرول قابيل إلى أحد أركان الغرفة وضغط على حجر بارز في الجدار لينفتح باب في الجدار المقابل ثم صاح في صفوان ليتخلص من هند.. فهو يعلم أن مقاومته لهارون لن تكون في صالحه على الإطلاق، ولهذا فعليه إلهاؤه بالفتاة كي يتمكن من التخلص منهما معا.. وكما توقع فقد أسرع هارون إلى هند التي دفعها صفوان في تلك الفتحة.. لكنها أمسكت بذراع الأخير لكيلا تسقط فسحبته معها للأسفل ليسمع هارون صوت صياحها المتألم، فلم يتردد وقفز خلفهما..

انتهز قابيل الفرصة ورفع يده عن الحجر ليغلق الباب.. التقط أنفاسه بصعوبة بسبب الانفعال والغضب؛ فقد ظن أن صفوان سيتخلص من هند لكنه سقط معها بسبب حماقته..

اتجه إلى المبخرة التي كانت مشتعلة قبل اقتحام هند وهارون للمكان وأطلق سبة فقد أفسدا التعاويذ السحرية الذي كان يحضرها بعد أن فهما وظيفة المبخرة.. فأدار رأسه باحثا عن عصاه التي كسرتها هند لنصفين ليطلق زفرة غاضبة حارقة؛ إذ كيف له أن يكمل ما بدأه بدون العصا؟ لقد كانت محقة تماما عندما أخبرته أنه صار أعزلا..

وفي غمرة تفكيره لمح انعكاس صورته في المرآة المعلقة على الحائط لتتسع عيناه فزعا من هول المنظر.. لم يتعرف هوية صاحب الانعكاس في البداية؛ فالدماء تغرق وجهه وصدره، كما أن كمه الأيمن ممزق تماما وعلى ذراعه آثار حروق من تلك الجمرة..

تمنى لو أنها أمامه الآن ليذيقها من العذاب الذي سامته إياه أضعافا والذي بدأ يتسرب ألمه إليه بعد أن طغت مشاعر الانفعال عليه قبل قليل.. تحسس أنفه المكسور بألم شديد ثم حرك كفه إلى أسفل ذقنه يتحسس الجرح الآخر.. راح يتوعد هارون ويسبه سبابا مقذعا وهو يفكر فيما حدث لهما..

هل تمكن منهما صفوان؟ لا يظن ذلك فصفوان أجبن وأضعف من أن يفعل شيئا لشخص بقوة هارون.. لكن عزاءه أنه حتى لو قتل هارون خادمَه المطيع فإنه لن يستطيع مغادرة الجزيرة..

اتسعت عيناه مرة أخرى وقد أصابته الفكرة بالقلق.. ليس قلقا على صفوان فلديه بعض يقين أن هارون لن يقتله.. ماذا إذن لو أنه أجبره على إخراجهما من الجزيرة وإعادتهما للمدينة؟ هل سيستسلم صفوان لعذاباتهما التي لن يترددا في استعمالها كما فعلا معه ويعود بهما إلى المدينة، أم أنه سيتحمل لأجل سيده؟

وأصابته فكرة أخرى بالقلق.. فهل يمكن أن يعترف صفوان تحت عذابهما أنه قتل اثنين من رفقائهما من المزارعين؟ هذان الأحمقان اللذان تجاوزا بستان

البرتقال إلى الجانب الآخر من الجبل وراحا يلوحان لهما لما رآيا قاربهما يبحر في الماء، وقد ظنا أنهما عابران ويمكنهما إنقاذهما..

ولأول مرة يشعر قابيل بالخوف من صفوان.. ذلك الرجل ضعيف البنية والشخصية مما أهله ليكون خادما مخلصا ومطيعا له.. خاف من أن ينقلب صفوان عليه لسوء معاملته له على الدوام.. خاف من أن يتحول إلى الفريق الآخر ويعيد الشابين إلى المدينة ثم يعترف لديوان العسس بما يفعله؟

ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجهه وهو يذكر نفسه أنه ما جاء إلى هنا إلا بأمر من رئيس العساسين.. إذن ففي كل الأحوال ستتم إدانة الشابين..

تنهد في راحة لم تلبث أن فارقته وقد راوده هاجس آخر.. هل يمكن أن يتغلبا على صفوان ويعودا إليه هو ليقتاداه إلى المدينة؟ ازدرد لعابه بصعوبة وقد بدأت نبضات قلبه تضطرب.. لكنه حاول تهدئة نفسه بأن ذلك السرداب الذي سقطا فيه ليس له إلا مخرج واحد يقع خارج القصر ويبعد عنه بكثير..

انتبه فجأة لأمر تعجب من أنه لم يفكر به من قبل.. كيف مرا من خلال حراس القصر؟ إنه محاط بعشرات وربما مئات المخاوف والأساطيرة المُجَسَّدة والتي تكفي لقتلهما رعبا فكيف فعلاها؟

اضطرب قلبه من جديد وقد قرر أن عليه وضع الاحتمال الضعيف لنجاتهما في الاعتبار.. فبدأ بالتحرك خارجا من الغرفة حاملا أحد المصابيح

ليرى طريقه.. لم يكن يعلم ماذا سيفعل بالتحديد، لكنه فكر في الاختباء في غرفة أخرى حتى لا يجداه إن عادا للبحث عنه..

لم تسقط هند من ارتفاع شاهق كما ظن هارون عندما رآها تختفي في ذلك الظلام، وإنما تدحرجت على درج لم تره بطبيعة الحال حتى سقطت على الأرض في نهاية الدرج وهي تتأوه في ألم.. خاصة بعد أن سقط صفوان عليها وآلمها بدوره رغم ضآلة جسده..

ورغم آلامها إلا أنها هبت من مكانها وأمسكت بصفوان قبل أن يهرب.. فلا بد أنه يعرف مخارج ومداخل القصر حتى ولو كان في الظلام كما هو الحال معهما الآن..

ولم تمض ثوان حتى سقط هارون بالقرب منهما ليصيح باسمها فتطمئنه أنها بخير ومن ثم تسلمه صفوان الذي حاول التملص منها دون جدوى؛ فالسقطة آلمت جسده الضعيف وقوة هند كانت أكبر من قوته..

وقوة هارون كانت أضعافا مضاعفة.. فتسلم صفوان وراح يهزه بعنف وهو يقول بغضب:

- أردت قتلها أيها الحقير ولأجل ذلك الخائن القذر!

بدا الرعب على وجه صفوان ليراه هارون في صوته المرتعش:

- سيدي ليس خائنا

كاد هارون أن يلكمه في وجهه لكنه تمالك نفسه.. فذلك الأحمق هو عبد ذليل لسيده الذي يكاد هارون يقسم أنه لن يهتم لأمره ولن يجهد نفسه للبحث عنه..

قام بدفعه أمامه وهو لا يزال يمسك بذراعه بقوة قائلا:

- أخرجنا من هنا أولا.. وبعدها سنرى ما العقاب المناسب لك

ازداد ارتجاف صفوان لكنه أطاع هارون دون نقاش.. فلم يكن يعرف كيف يمكنه الإفلات منهما والعودة لسيده..

مد هارون يده يتحسس الفراغ وهو يقول بلهجة مغايرة لما خاطب بها صفوان قبل لحظات:

- أعطني يدك يا هند

مدت هند يدها بدورها حتى لمست يده فتمسكت بها بقوة.. ليس لأنها تخشى السقوط أو التعثر في الظلام.. وإنما لإحساسها الذي يتزايد مرة بعد مرة أنه ما من أمان إلا معه..

تحرك الثلاثة في الظلام بخطوات حذرة بينما هارون يتوعد صفوان بالويل إن خدعهما.. لكن صفوان لم يكن بالجرأة أو الشجاعة التي تجعله يمكر بهما.. أو لعله لم يكن يملك تلك الصفات من الأساس.. فما هو إلا تابع ينفذ الأوامر دون مناقشة أو سؤال.. لكنه تابع غبي يلعق أحذية أسياده بعدما

يدوسون عليه بها، ويسبح بحمدهم عندما يلقون إليه بفتات موائدهم.. لا يهمه إلا أن يعيش في ظلهم فهم حُماة الحمى وبدونهم لا أمان ولا اطمئنان..

بعد سير طويل في نفق هابط ثم ارتقائهم لدرجات في نهايته، وجدوا أنفسهم وقد خرجوا من القصر بل وابتعدوا عنه بمسافة كبيرة هدمت خطط هارون في العودة لاقتياد قابيل إلى المدينة عنوة..

- هل سنعود إليه؟

قطعت هند حبل أفكاره وهي تنظر إلى القصر خلفهم في هذا الظلام ليقول:

- كلا.. لقد فكرت في ذلك أيضا لكني أرى أن نعود ونتركه يتخبط قليلا في حيرته.. فهو لا شيء دون خادمه..

وأنهى عبارته وهو يهز صفوان بعنف قبل أن يتابع موجها كلامه له:

- كيف تأتون إلى الجزيرة كل شهر؟

لم يرد صفوان في البداية فهزه هارون بعنف مجددا وهو يعيد سؤاله بغضب أرعبه.. فانكمش على نفسه وقال:

- عن طريق الميناء

- وأين هو؟

أشار صفوان إلى الشاطئ الغارق في الظلام ـ اللهم إلا من شعاع ضئيل للقمر المحتَضِر يظهر ويختفي حسب حركة السحب أمامه ـ ثم قال:

– هناك خلف هذه التبة الصخرية

– اذهب بنا إلى هناك إذن

تردد صفوان قليلا قبل أن يقول:

– لا يمكنني الذهاب وترك سيدي وحيدا

لم يتحمل هارون خنوعه المثير للتقزز فلكمه في وجهه ليصيح صفوان ألما بينما هارون يقول:

– فليذهب سيدك إلى الجحيم وهو الذي لم يهتم لأمرك قط.. ولم تر منه خيرا قط

أثارته كلمات هارون فانتبه إلى أنه لم يلق من قابيل إلا السوء دائما ولم يسمع منه كلمة شكر واحدة طوال عشر سنوات من التفاني في خدمته.. لكنه ما لبث أن نفض تلك الأفكار عن رأسه، فسيده لا بد وأنه فعل ذلك لمصلحته ولا شك!

وكاد هارون يلكمه مرة أخرى عندما صرح الأحمق بتبريره الأخير أمامه، لولا أن هند أوقفته وهي تقول:

– لا وقت لدينا للشجار يا هارون

زفر هارون بغضب ثم دفع صفوان مرة أخرى ليتقدمهما حتى وصلا إلى الميناء.. الذي لم يكن به إلا القارب الذي أتى على متنه قابيل وخادمه.. وفي الحال أجبره هارون على ركوب القارب ثم ساعد هند لتلحق به..

تقلصت أحشاؤها عندما استقرت في القارب وبدأ هارون بفك الحبل المربوط بعمود مغروس في الأرض، ثم راح يدفع القارب بكل قوته حتى استوى على الماء ليركب فيه ويأمر صفوان بالتحرك وهو يهدده:

- سأغرقك في هذه المياه إن بدرت منك أي نية للخيانة

ارتجف صفوان وهو يومئ برأسه طاعة، بينما ارتجف جسد هند وهي تتخيل صفوان وهو يغرق في الماء..

بدأ القارب بالتحرك لتبدأ نبضات قلبها بالاضطراب وأنفاسها بالتسارع.. فأغمضت عينيها وهي تنكمش على نفسها وتأخذ نفسا عميقا علها تهدأ.. لكن بعد أن ابتعدوا بقدر لا بأس به عن الجزيرة ولم يعد هناك سوى صوت موج البحر والمجدافين المتحركين فيه، عادت أنفاسها للتسارع مجددا.. ومع كل ضربة للمجداف في الماء كان قلبها يضطرب.. وكاد يتوقف عندما سمعت ما كانت تخشاه بالفعل..

فتحت عينيها فاتسعتا بهلع وصرخت برعب لينتفض هارون وقد ظن أنها ستسقط في الماء.. لكنها كانت تجلس في مؤخرة القارب وهي تنظر لشيء

ما وعلامات الفزع مرتسمة على وجهها.. لم يرها بسبب الظلام لكنه شعر بها في صوتها عندما سألها عما هنالك لتصيح بهلع:

- سيقتلنا!

تعجب مما تقول فاقترب منها وهو يسألها بدهشة:

- من تقصدين؟

نظرت له في ذهول ثم أشارت للموج المرتفع بشكل مخلب عظيم خلفه وقالت:

- إنه أبو البحر(*)! ألا تراه؟

قطب جبينه والتفت للوراء لكنه لم يجد شيئا، فعاد إليها وهو يقول بدهشة:

- لا يوجد شيء يا هند

ازداد اتساع عينيها وقد أفزعها أنه لا يرى ما تراه.. كما يبدو أن صفوان لم يره هو الآخر! ولانفعالها لم تنتبه لما فهمه هارون.. فها هو في نفس موقف مريد عندما كان يكذب ما يرونه.. وعليه أن يهدئ من روع هند التي لا يكف جسدها عن الارتجاف بسبب أسطورة وهمية متجسدة..

- ماترينه ليس حقيقيا يا هند.. مثله مثل الغول الذي هاجمتِه وتغلبت عليه..

انتبهت هند لكلماته وهو يتابع:

– ما تتخيلينه لا يمكنه إيذاؤك على الإطلاق لأنه خيال.. وهم لا وجود له

أرادت تصديقه فهي تعلم أنه على حق.. لكن كيف لها أن تنتزع رعبا سكنها منذ الطفولة؟ لم تقرب البحر منذ سنوات لكثرة ما كانت جدتها وأمها يقصان عليها عنه وعن أهواله.. حتى أنها من شدة خوفها كانت تتخيل أن تلك الكائنات قد تترك البحر وتهاجمها تحت غطاء فراشها..

لكنها كبرت ولم تعد تتذكر تلك الحكايا إلا عندما كانت كلمة البحر تتردد أمامها.. والآن صحت مخاوفها القديمة وتجسدت لها في أبشع صورها.. تجسدت لها وحدها..

أغمضت عينيها بقوة تحاول السيطرة على خوفها وطرد تلك الأفكار عنها.. لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة.. ففضلت البقاء مغمضة العينين حتى تهدأ ثم قالت لهارون:

– سأكون بخير

أومأ برأسه بعد أن نظر لها مطولا ثم عاد لمجلسه بجوار صفوان الذي لم يتوقف عن التجديف.. صاح فيه بحنق كي يجدف بسرعة أكبر ليطيعه الرجل بعد أن انتفض رعبا لصيحته..

كان البحر هادئا بلا أمواج مما جعل رحلتهما سهلة وآمنة إلى حد كبير.. لكنها كانت أطول بطبيعة الحال.. وانقضت ثلاث ساعات تبادل خلالها هارون وصفوان الأماكن مرتين ليملي الأخير على هارون الاتجاهات عندما كان يحين دوره في التجديف.. وكيف لا يكون صفوان بارعا في قراءة النجوم وهو من عائلة الصيادين؟

زفر هارون بضجر.. فرغم أن الصيادين هم أكثر فئة قابلة للتمرد بسبب الضغوط الممارسة عليهم، إلا أن منهم من لا يمانع أن يكون عبدا تحت أقدام من هم أعلى منه.. بل إنه يكاد يقسم أنهم لو أتتهم فرصة للتمرد لما استغلها إلا قليل منهم، ولفضل أكثرهم حياة الكفاف وما هو أدنى منها..

- وصلنا!

قالها هارون وقد ظهرت السعادة في نبرته جلية وواضحة فهبت هند من مكانها الذي لزمته لثلاث ساعات متواصلة.. لكنها لم تر إلا أضواء خافتة قادمة من بعيد فتسارعت دقات قلبها.. ستعود لبيتها أخيرا بعد أن أمضت أسبوعا كاملا بعيدا عنه.. سبعة أيام مرت عليها وكأنها سبعة عقود رأت فيها ما لم تكن تتخيل أن تراه طوال حياتها.. لكنها ستعود لأمها بما سيزيد حزنها بعد أن ظنت أنها ستدخل السرور على بيتهما الصغير بعودتها بأبيها..

تنهدت ثم اقتربت من هارون وجلست بجواره وعيناها معلقتان بتلك الأضواء ثم قالت:

– ما الذي سنفعله فور وصولنا؟ وكيف سنثبت لهم صحة ما عرفنا؟

ربت هارون على جيبه وهو يقول:

– لا تنسي هذه الأوراق..

واقترب من أذنها ليقول بصوت هامس كي لا يسمعه صفوان:

– ويجب أن نصل لبقية أفراد مجموعة الشهاب.. هم من سيساعدوننا

ارتعش جسدها عندما سمعت همسه.. وعاد الاضطراب لقلبها وقد خيل إليها أنه لأجل هارون هذه المرة وليس لفرحها بالعودة.. لكنها لم تلبث أن هزت رأسها طاردة عنه تلك الفكرة المجنونة وراحت تشغل نفسها بالتفكير في أي شيء آخر..

مجموعة الشهاب.. هل لها علاقة بذلك الصياد؟ سؤال طرحه هارون من قبل وها هو يطوف بعقلها مجددا.. لكنها لم ولن تعرف له جوابا حتى تلتقيه..

اقتربت الأضواء رويدا رويدا واستعد هارون ليحكم قبضته على صفوان كي لا يهرب.. وبسبب الظلام لم يدرك أن القارب سيرسو في مكان آخر غير الميناء الذي أبحروا منه أول مرة..

يبدو أن هارون قد استخف بعقل وقدرات صفوان ظنا منه أن تهديده له سيجعله يطيعه في الحال.. ولم يعلم أنه سيقودهما إلى التهلكة إلا عندما انتبه لحقيقة المكان الذي رسوا فيه لتوهم..

- ما هذا المكان؟

تساءلت هند بصوت مسموع وهي ترى بضعة بيوت متشابهة قد اصطفَّت على ساحل البحر.. وقد كانت هذه البيوت لا تمت لأكواخ الصيادين بصلة..

التفتت إلى هارون لترى على أضواء المشاعل المتناثرة هنا وهناك علامات التعجب مرسومة على وجهه..

- يبدو أنه ميناء آخر

قالها هارون ثم انقض على صفوان.. لكن ذلك الأخير أفلت منه في آخر لحظة وقفز من القارب ثم ركض إلى أحد البيوت وهو يصيح بصوت مذعور:

- المجرمون هنا.. إنهم هنا يا سيدي

اتسعت عينا هارون وهو يرى بعض الرجال المسوّدين وقد خرجوا إليهما وقد أصابتهم الدهشة بدورهم..

- عساسون! أهو ميناء خاص بهم؟!

تساءلت هند مرة أخرى لكن همسا بينما أحد العساسين يقترب من القارب.. وتلقائيا مد هارون ذراعه يدفع هند خلفه لحمايتها فأتاه صوت الرجل ساخرا:

- هل تظن أنك ستحميها أيها الأحمق؟

تحفز هارون لكن بقية الرجال اقتربوا منهما لإحكام الحصار حول القارب.. ولما حاول هارون المقاومة كان جزاؤه لكمة من أحدهم في بطنه جعلته يتأوه بألم شديد، ثم اقتادوه هو وهند إلى أحد البيوت تحت بصر صفوان الذي تراجع في خوف عندما حدجته هند بنظرات غاضبة..

لقد خدعهما مستغلا علمه بمواقع النجوم ليقودهما إلى الميناء الذي يبحر منه مع سيده كل شهر.. ثم سلمهما بكل سهولة لمن لا يرقبون في أحد إلًّا ولا ذمة..

قام الرجل بإلقاء كل من الشابين في زنزانتين مختلفتين في واحد من تلك البيوت، وقد فهما أنه مركز احتجاز محاط بموقع حراسة..

وفي زنزانة هند كانت تجلس في الظلام ترتجف خوفا.. يصل إلى سمعها صوت صرخات هارون من وقت لآخر فيزداد ارتجافها.. إنهم يضربونه بقسوة إزجاءً لوقتهم وهم ينتظرون حضور قائدهم..

نهضت من مجلسها وراحت تدور في الحجرة وهي تفرك كفيها بلا توقف وقد توترت أعصابها لأقصى حد.. وبعد دقائق انتفضت عندما فتح أحدهم باب زنزانتها فجأة ليظهر ثلاثة رجال لم تر وجوههم بسبب ضعف الإضاءة القادمة من الخارج.. توجست شرا فتراجعت قليلا وهي تستعد للمقاومة.. تعلم أنها لن تتغلب عليهم لكنها ستقاوم للرمق الأخير..

اقترب أحدهم حاملا مصباحا في يده ليقربه من وجهها فرأى نظرات المقت والكراهية تطل من عينيها.. ولما اقترب أكثر تحفزت لقتاله فانفجر ضاحكا ثم قال:

- لا تتظاهري بالشجاعة فهي لن تلازمك طويلا..

وقبل أن تتمكن من اتخاذ أي ردة فعل انقض الرجل عليها مقيدا يديها خلف ظهرها ثم أدارها ليلصقها بالجدار البارد وقال بصوت كالفحيح وهو يلتصق بها من الخلف:

- ما أريده سآخذه غصبا أو بإرادتك.. لذا فمن الأفضل أن تستسلمي وتستمتعي بهذه اللحظات

سبّته بلفظ قبيح فضحك وهي تقاوم باستماتة للخلاص من قبضته التي تكبلها بقسوة.. لكنه دفعها أكثر إلى الجدار وقال وهو ينتزع عمامتها من على رأسها:

- من العبث أن تقاوميني أيتها الحسناء.. استسلمي ولا تثيري المشكلات

وألقى بها على الأرض على وجهها ثم جثم عليها ليربط كفيها بقماش عمامتها بعد أن مزقه لنصفين.. فراحت تصرخ وهي تقاومه بكل ما أوتيت من قوة حتى سمعت صوتا خشنا يأمر من يقيدها بالتوقف..

لم تستطع رؤية القادم فقد كان وجهها ملتصقا بالأرض.. لكنها رأت ظله يقترب وهو يقول:

- هذه الثمرة الناضجة لا يجب أن تُقطَف إلا في قصر الحاكم..

شعرت بالغثيان من جملته بينما هو يتابع:

- لذا فلا يمسّنّها أحدكم بسوء حتى تصل إلى هناك..

ترك الرجل كفيها واعتدل واقفا لتعتدل بدورها وهي تحاول تخليص يديها من ذلك القيد.. أما صاحب الصوت الخشن فقد اقترب منها وجثا أمامها وهو يقول بلهجة آمرة:

- عودوا لمواقع حراستكم

أطاعه الرجال الثلاثة على الفور، بينما آخرهم يشعر بالضيق من قائده الذي حرمه من التلذذ بالفتاة..

تحرك القائد ليجلس خلف هند ويقوم بفك قيدها وهو يقول هامسا:

- لا تخافي!

تحرر معصمي هند أخيرا فراحت تفركهما بألم وقد أصابتها الدهشة.. ثم راحت تنظر للرجل الذي عاد لمجال بصرها وهو يقول رافعا المصباح أمامها:

- سأخرجك من هنا

- هل تسخر مني؟

قالتها هند بغضب وكراهية فقال الرجل بجدية وهو يهز رأسه:

- كلا.. ستخرجين وتذهبين لمكان آمن..

وبدلا من أن تطمئن لكلامه أصابها القلق؛ فانعدام الثقة به وبكل عائلته مترسخ فيها منذ أن بدأت تعي العالم حولها..

- كيف تريد مني أن أصدقك؟

قالتها باستنكار لم يستغربه لكنه تابع بذات الجدية:

- إن كنت صادقا ستنجين بحياتك وإن كنت كاذبا ففي كل الأحوال ستذهبين للقصر سواء اتبعتني أو لا

بدا كلامه منطقيا فلزمت الصمت.. إنها لا تملك ترف الاختيار على أية حال.. لكن فجأة سألته وقد عاد قلبها يضطرب:

- وهارون؟!

نظر إليها مليا ثم أومأ برأسه ببطء وهو يقول:

– وهارون أيضا

تنهدت في راحة فقال الرجل:

– اسمعيني جيدا.. لم يبق الكثير على منتصف الليل.. عنده تبدأ نوبة حراسة جديدة وفي تلك الأثناء سيقوم أحدهم بإخراجكما وإيصالكما إلى مكان آمن

وقام من مكانه وهو يتابع:

– لقد هربتما ولم يساعدكما أحد.. هل هذا مفهوم؟

أومأت برأسها ليخرج من الزنزانة ويغلق بابها خلفه..

لم تكن تصدق أنها نجت.. ورغم ذلك فلم تثق بكلام ذلك الرجل فما أدراها لعله كاذب وقد خلصها من يدي ذاك الحارس ليأخذها لنفسه وحسب.. ارتجفت وقد أحست بالضياع.. إنهم يرونها كالكرة يلقيها كل منهم للآخر غير مبالين بما تشعر به..

لم يمض الكثير من الوقت حتى وجدت باب الزنزانة يُفتح فتوجست واعتدلت واقفة وهي تعد نفسها لجولة أخرى من المقاومة.. لكن من فتح الباب أمرها بالخروج بصوت هامس فهرعت إليه لتجد هارون يقف خلفه..

لا تدري كيف وجدت نفسها تغوص بين ذراعيه.. تحتمي به من أي شيء ومن كل شيء وتطمئن قلبها المجنون أنها وجدت أمانها فلا داعي لاضطرابه..

تخللت أصابعه خصلات شعرها وهو يقول:

- هل أنت بخير؟ هل آذاك أحدهم؟

اللهفة الواضحة في نبرته جعلت جسدها يرتعش مرة أخرى.. ومرة أخرى حاولت نفض هذا الشعور فرفعت رأسها وهي تهزه نفيا ردا على سؤاله الأخير، فرأت عن قرب وجهه المدمَّى بسبب جروح لا زال بعضها ينزف..

- أسرعا قبل أن يرانا أحد

التفت الاثنان إلى الحارس الذي أخرجهما من زنزانتيهما ثم تبعاه فور أن تحرك..

كان يمشي بحذر خارجا من المبنى منتقيا الأماكن التي لا يصلها ضوء المشاعل، حتى أوصلهما إلى عربة يدوية محملة بالقش خلف مبنى الاحتجاز ثم قال هامسا وهو يلهث انفعالا:

- اركبا هذه العربة وقوما بتغطية نفسيكما جيدا وسيوصلكما سائقها إلى المكان المطلوب

ودون كلمة أخرى التفت عائدا لموقعه لكن هارون أوقفه قائلا:

– ما هو ذاك المكان؟

هز الرجل رأسه وقال:

– لا أدري.. ولا تسألا أي سؤال لأني لن أجيب عليه

وتركهما تتقاذفهما أمواج الحيرة.. لكنهما أسرعا بتنفيذ ما أمرهما به دون أن يتبادلا كلمة واحدة.. فركبا العربة التي لم يكن صاحبها قد عاد بعد.. ثم وضعا حزمة من القش فوق كل واحد منهما.. وبعد قليل سمعا صوت أقدام على الأرض الصلبة ثم رفع أحدهم ذراعي العربة ليجرها ويبتعد عن المكان..

تماسكا بسرعة كي لا يسقطا عندما رُفِعَت العربة قبل تحركها.. وطيلة الطريق كانا يحاولان الثبات مع حركتها على الأرض غير الممهدة، وهما يتمسكان بكومة القش التي تعلوهما كي لا تسقط ويقعا في ورطة.. واستمرت العربة بالسير قرابة نصف ساعة ثم توقفت بعد ذلك.. وسمعا صوت صاحبها وهو يحدث شخصا ما..

تسارعت دقات قلبيهما توترا لدرجة أنهما لم يتبينا أي حرف من الحديث الدائر على بعد بضع أقدام منهما.. وبعد توقف الحديث شعرا بالعربة ترفع وتتحرك مرة أخرى.. ثم توقفت بعد السير لمدة أطول من سابقتها حتى

أن هارون ظن أنهما خرجا من المدينة كلها.. ولم يتحركا حتى أزاح أحدهم كومتي القش من فوقهما فانتفضا في رعب..

- لا تخافا

قالها صاحب العربة وهو يشير لهما كي يترجلا منها.. لكنهما تسمرا في مكانهما عندما شاهدا آخر شخص يمكنهما توقعه!

المأوى

مد هارون يده وتناول الكوبين المقدَمين إليه ثم أعطى واحدا منهما لهند فاحتوته بين كفيها تلتمس منه الدفء.. وراحا يطالعان شهاب بعينين تموج بهما الأسئلة..

- أنهيا ما بيديكما سريعا فالعربة الأخرى على وشك الوصول

قالها شهاب وهو ينظر من النافذة فقال هارون بانفعال:

- نحن هنا منذ ساعة تقريبا، وحتى الآن لم نفهم شيئا.. من الذي قام بتهريبنا من السجن ولماذا؟ وإلى أين نحن ذاهبان؟ وما علاقتـ..

قاطعه شهاب بعد أن التفت إليه:

- لا تسأل..

وتابع وهو يعود لينظر من النافذة:

- ستعرفان كل شيء عندما تصلان إلى المأوى

- المأوى؟!

تساءل الاثنان في دهشة واستنكار قبل أن يتقدم شهاب نحوهما بخطوات سريعة وهو يقول:

- هيا.. لقد وصلت العربة

تركا ما بيديهما وقد توترا ثم قاما مع شهاب الذي دفعهما للخارج كوخه وهو يقول بكلمات سريعة:

- لم يصل خبر هروبكما بعد لحراس حدود المدينة.. ولن يصل قبل طلوع الفجر لذا فعليكما الرحيل فورا.. سيذهب بكم رفيقي إلى خان في القرية المجاورة.. وهناك عليكما تنفيذ ما سيأمركما به صاحب الخان

توقف هارون وقال:

- وما أدرانا أن ذلك الرجل لن يسلمنا للعسس؟ نحن لا نعرفه

دفعه شهاب بيده ليخرج من الكوخ وهو يقول:

- لو أنني لا أثق به لما جشمت نفسي عناء تهريبكما

وتابع وهو يشير لعربة يدوية كالتي أتيا فيها:

- اختبئا بين هذه الشباك ولا تصدرا أي صوت حتى تصلا بسلام

لم يجادل هارون مرة أخرى بل ركب العربة بعد أن ساعد هند لتصعد عليها.. فقام صاحب العربة بتغطيتهما بشباك الصيد جيدا وبعض الصناديق الخشبية ثم انطلق..

تمالكت هند نفسها بأعجوبة كي لا تتقيأ فرائحة السمك المنبعثة من الشباك والصناديق كانت بشعة بما يكفي.. وما هوّن الأمر عليها أن شعرت بكف هارون تمتد عبر الخيوط القوية لشباك الصيد لتضغط على كفها برفق..

إنه يطمئنها.. يخبرها بلا كلمات أنها بأمان معه وأن عليها ألا تخشى شيئا طالما أنه بجوارها.. وصلتها تلك الرسالة دون أن يتكلم، فتمسكت بكفه ترد عليه أنها مطمئنة لوجوده بقربها..

لم يسمعا صوتا سوى صوت حركة عجلات العربة الخشبية التي ظلت في طريقها دون أن يعلم هارون أو هند في أي اتجاه يسيرون.. ولا كيف سيتم تجاوز حرس المدينة..

لكن شهاب لم يسلمهما لأي أحد.. إنه رجل خبير بمخارج ومداخل المدينة.. يعلم نقاط قوة وضعف الحراسة في كل شبر من حدودها.. ويعلم أيضا مَنْ مِنَ الحراس يقبل السحت في رضا كي يخرجه من المدينة دون إزعاجه بالأسئلة..

ورغم أن الإنهاك بلغ منهما مبلغه إلا أنه لم يغمض لهما جفن طوال الرحلة.. فأعصابهما المشدودة جعلتهما متحفزَين كالقطط..

توقفت العربة وأنزلها الرجل ليسمعا صوت رجل آخر بدا أنه قد تفاجأ من قدوم صاحبه في هذا الوقت.. وبعد حديث قصير قام الرجل برفع الشباك عنهما وإزاحة الصناديق بعيدا وهو يقول:

- لقد خرجنا من المدينة..

نزلا من العربة وهما ينظران حولهما.. كان الظلام يلف المكان؛ فمع ضعف إضاءة القمر وقفت السحب حاجزا بينه وبينهما فلم يريا إلا ظل الرجلين.. لكنهما سمعا صوت حافر حصان يضرب الأرض في ملل فعرفا أنهما سيركبان عربة أخرى.. وهو ما أكده الرجل ثم أضاف قائلا:

- بعد أن تصلا للخان لا تتفوها بكلمة وأطيعا الأوامر دون نقاش

وتركهما في الحال ليذهب إلى حيث لا يدريان ثم سمعا صوت الرجل الآخر يأمرهما باتباعه ليركبا العربة الأخيرة في هذه الرحلة الليلية الغريبة.. فأطاعاه على الفور لتتحرك العربة، ويصل إلى أسماعهما صوت السوط وهو يضرب ظهر الحصان من حين لآخر..

كانت عربة خشبية مغطاة كالتي تحمل الناس داخل المدينة.. فقالت هند ساخرة:

- من الجيد أنهم عاملونا بآدمية بدلا من الجلوس تحت شباك الصيد كالأسماك الميتة

ضحك هارون بخفوت ثم قال:

- كان ذلك مهما لسلامتنا

عقدت هند ذراعيها أمام صدرها وقالت بحنق:

- وكأنك تعلم شيئا عما يحدث! أي سلامة تلك التي تتكلم عنها؟ حتى الآن نحن لا نعلم إن كانوا ينقذوننا بالفعل أم يسوقوننا للذبح

قدر هارون انفعالها فقام من مقعده المواجه لها ليجاورها وهو يقول:

- في كل الأحوال لا خيار أمامنا.. كما أنني أثق بعض الشيء بشهاب كما وثقت به في بداية الرحلة

لزمت الصمت.. فقد كان رأسها يزدحم بالأسئلة والاستفهامات الغاضبة ولم ترد شجارا..

- ماذا فعلوا بك في الزنزانة؟

سؤال مفاجئ طرحه هارون عليها لترتجف خوفا على أثره ثم تقول:

- لا شيء..

وازدردت لعابها ثم قصت عليه باختصار ما حدث معها ليشعر بالدماء تغلي في رأسه، ويقسم أنه لو عرف ذلك الحارس فسيمزقه شر ممزق..

فرغم آلامه بعد حفل التعذيب بالضرب والركلات الذي ناله فور دخوله لزنزانته.. إلا أن حواسه كلها تنبهت عندما سمع صوت صراخها.. وفي لحظة اختفى شعوره بالألم ليحل محله الخوف والعجز والظنون تتلاعب برأسه وتصور له أبشع التصورات..

ولم يصدق أنها بخير إلا عندما وجدها بين ذراعيه وقد دفعت برأسها في صدره وكأنها تريد الاحتماء به.. لم تكن تبكي ولعل هذا ما طمأنه بعض الشيء فقد كانت ثابتة.. عرف هذا من نظراتها عندما رفعت عينيها إليه فاطمأن تماما..

- كيف عرف هذا الرجل أننا قادمون؟!

انتزعه من شروده صوت هند وهي تغير دفة الحديث عما تحدثت به قبل قليل.. تعجب لهذا الأمر الذي لم ينتبه له إلا الآن.. فقرر أن يطرق الزجاج الفاصل بينه وبين السائق لكن ذلك الأخير لم يلتفت إليه.. فزفر بحنق ثم قال:

- لا شيء يثير غيظي إلا صمت هؤلاء القوم.. فبعضهم لا يعلم والآخر يعلم ولا يريد إخبارنا بشيء

وساد الصمت الطويل عليهما حتى ظن كل منهما أن رفيقه قد نام.. لكن أنى للنوم أن يزورهما وهما في هذه الحال؟!

توقفت العربة أخيرا ليتحفز الاثنان بينما نزل السائق ليفتح لهما الباب قائلا بحزم:

- اتبعاني

نزلا من العربة ليجدا خانا كبيرا أمامهما وعلى يمينهما كان البحر..

تحرك الرجل فتحركا معه إلى خلف الخان ليفتح بابه الخلفي ويدخل وهما من بعده.. فأخذ مصباحا زيتيا معلقا بجوار الباب ثم صعد درجات خشبية أصدر بعضها صريرا خافتا حتى وصل للطابق الثالث والأخير.. وفي آخر الممر الضيق قام بفتح باب غرفة وهو يقول هامسا:

- ابقيا في هذه الغرفة ولا تصدرا أي صوت..

وتابع وهو ينظر حوله بحذر:

- أغلقا المزلاج من الداخل حتى يأتي صالح صاحب الخان.. وعندما يفصح عن هويته افتحا الباب له ثم أطيعاه فيما سيقول

دخل الاثنان للغرفة بعد أن أخذ هارون المصباح من يد الرجل قبل أن يرحل سريعا دون أن يتمكن هارون من سؤاله عن أي شيء.. زفر بضيق لكنه أغلق الباب بهدوء رغم ذلك ثم أوصده بالمزلاج..

كانت غرفة صغيرة بها فراش وبعض الأثاث القديم.. وفي مواجهة الباب توجد نافذة صغيرة موصدة، لم يجرؤ أحدهما على فتحها كي لا يعلم أحد بوجودهما..

جلست هند على طرف الفراش الذي علته الأتربة وهي تقول:

- تُرى إلى متى سنبقى هنا؟

هز هارون رأسه وقال:

- لا أدري..

ثم جلس بجوارها ووضع المصباح على الأرض وهو يتابع:

- لكني أشعر ببعض الراحة لأننا خرجنا من المدينة

التفتت إليه لتلاحظ الجروح على وجهه فرفعت المصباح وقربته منه وهي تقول:

- هذه الجروح تحتاج لتطهير..

وزفرت بضيق ثم قالت:

- حقيبتي بكل ما فيها نسيتها بعد أن سقطت في ذلك السرداب بسبب ذلك الحقير

قال هارون مواسيا:

- لا بأس.. المهم أنها لا تحتاج لتقطيب

وكأنها ذكرتها كلماته بيده فأمسكت بها ورفعتها أمام عينيها لتتفحصها وهي تقول:

- من الجيد أن جرحك لم يصب بسوء

- إنه ليس أكثر أهمية منك..

حملقت فيه وقد اندفعت الدماء إلى وجنتيها فأشاحت بوجهها بينما هو يقول:

- كنت سأجن لو أصابك مكروه

خفق قلبها باضطراب حتى ظنت أنه يكاد يسمع صوته.. لقد كادت تجن بدورها عندما سمعت صوت صرخاته المتألمة من جرّاء الوحشية التي عامله بها حراس ذلك السجن.. وللحظة أصابها الرعب من أن تفقده..

عادت تنظر إليه تريد قول أي شيء.. لكن الكلمات ذابت على شفتيها عندما مد يده ليعيد بعض خصلات شعرها الأسود الفاحم خلف أذنها..

تراجعت للوراء قليلا وأطرقت.. وكادت تنهض من مكانها لولا أنه سبقها منقذا إياها من حرجها.. فاتجه إلى النافذة ووقف أمامها يحاول النظر عبر خصاص النافذة ليشغل تفكيره بأي شيء آخر سوى صاحبة الخصلات السوداء..

أطلق تنهيدة حارة ثم وضع كفيه في جيبي معطفه لتصطدم يمناه بالورق الذي مزقه من تلك الملفات.. أخرج الورق ليتأكد أنه لم يضع منه شيء.. وبينما هو يقرأ الورقة الأخيرة سمع صوت المطر وقد بدأ ينهمر بعد أن ثَقُلَت السحب بالماء..

- إنها تمطر

قالها وهو يقترب برأسه من النافذة التي بدأت قطرات الماء تصطدم بزجاجها فتحدث صوتا محببا.. ثم التفت إلى هند ليفاجأ بأنها نامت..

كانت ساقاها لا زالتا على الأرض وبدا أنها اتكأت على جانبها فسقطت في النوم في الحال.. اقترب منها هارون ورفع قدميها على الفراش بهدوء ثم خلع معطفه وغطاها به، ليجلس بعدها على الأرض بجوار الفراش وقد أسند رأسه للجدار ليسقط في النوم هو الآخر..

طرقات قوية على باب الغرفة أفزعت الاثنين من نومهما الذي لم يستمر إلا لأربع ساعات وحسب.. فقفز هارون على قدميه واقترب من الباب وهو يسأل بحذر عمن هناك..

- أنا صالح.. افتحا الباب..

هدأت أنفاسه المتسارعة فزعا وهو يفتح المزلاج ليدخل صالح إلى الغرفة ويغلق الباب خلفه ثم يتفحص الاثنين بعينين ثاقبتين..

- أنتما من طرف شهاب الصياد أليس كذلك؟

أومأ الاثنان برأسيهما فقال صالح:

- بعد قليل ستغادران مع أحد عمال الخان إلى المأوى

سأله هارون وقد بدأ يشعر بالحنق لكل تلك الألغاز:

– ما هو هذا المأوى الذي تتحدثون عنه؟

قال صالح بلهجة استفزته:

– لا تسأل..

والتفت ليفتح الباب قائلا:

– سأحضر لكما طعاما وثيابا جديدة

وخرج وقد ازداد حنق هارون.. فرغم أن كل ما حدث كان في سبيل إنقاذهما إلا أنه لم يفهم مَن وراء ذلك ولماذا!

بعد قليل طرق صالح الباب وقد أحضر لهما بعض الطعام وخرج مرة أخرى دون كلمة.. كان طعاما متواضعا لكن بالنسبة لهما كانت هذه وليمة شهية.. فبدءا بالأكل في نهم حتى الامتلاء..

– لم آكل هذا الكم من الطعام منذ أيام..

قالها هارون وقد أرجع ذراعيه للخلف ليستند عليهما وهو يتابع:

– لقد أصبت بالتخمة..

نظرت له هند بدهشة ثم ضحكت.. فقال هارون باستنكار:

– ما المضحك في الأمر؟

- لو سمعك أحدهم لظن أنك أكلت جملا وليس إفطارا بسيطا

ابتسم هارون ثم تمدد على الأرض وشرد قليلا حتى سمع صوت هند تقول:

- لم تخبرني كيف فتحت تلك الأقفال؟

اعتدل هارون جالسا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة، ثم أخبرها بمغامراته مع مريد وهم صغار وكيف أنهم تعلموا تلك الطريقة من أحد رفقائهم ممن يكبرونهم سنا..

وأنهى حواره وقد بدا الأسى على وجهه لذكر مريد.. لكنه لم يلبث أن سمع الطرقات مرة أخرى فنهض وفتح الباب ليجد صالح يمد يده إليه ببعض الثياب ويقول:

- بعد أن تنتهيا من الطعام البسا هذه الثياب واستعدا للتحرك

وخرج كما المرة السابقة..

مد هارون يده بالثياب لهند التي قالت وقد احمرت وجنتاها:

- أين سأبدل ثيابي؟!

ابتسم هارون بخبث وقال:

- سأغمض عيني

ازداد احمرار وجنتيها خجلا وحنقا فضحك بشدة ثم قال:

- لا بأس.. سنبدل المعاطف الخارجية فقط حتى نصل لذلك المأوى

زفرت بضيق وفعلت كما قال وهي مضطرة.. إنها في حاجة ماسة للاستحمام؛ فرائحة السمك لا زالت عالقة بثيابها تسبب لها الغثيان من وقت لآخر..

- ما هذا؟!

أخرجها صوت هارون من شرودها فالتفتت إليه لتجده يمسك بعمامتين بلون بني.. تبادلت معه النظرات المتسائلة دون أن يجدا إجابة.. لكن قدوم صالح لاصطحابهما للخارج فسر لهما ما تعجبا منه..

- ستخرجان من هنا بلباس التجار كي لا ينتبه لكما أحد؛ فمعظم من يتوافدون على الخان هم من التجار أو الصيادين

أطاعاه بأن لفا العمامتين على رأسيهما ثم تبعاه نزولا إلى الطابق الأرضي حيث وجدا الكثير من التجار يجلسون هنا وهناك.. أصيبا بالقلق لكنهما خرجا من الخان دون أن يلتفت إليهما أحد فتنفسا الصعداء.. وفي الخارج كانت تقف العربات إما لتوصيل نزلاء الخان لمكان آخر أو لإنزال راكبين للمكان..

رغم ارتفاع الشمس إلا أن الجو كان باردا والسماء مغطاة بالسحب.. وكأنما مطر الفجر لم يفرغ حمولتها التي تركت آثارها في الرمال المبللة تحت أقدامهما.. فتركا بدورهما آثارا فيها وهما يتحركان خلف صالح حتى وصلا لواحدة من العربات التي أشار إليهما لركوبها ثم قال:

– سائق العربة يعرف الطريق جيدا.. وستصلان إلى هناك قبل الغروب على أقل تقدير

قال هارون بضجر:

– هل سنعرف ما يجري عندما نصل إلى هناك أم أنهم سيتكلمون بالألغاز كما هو الحال معكم؟

نظر له صالح مليا ثم قال:

– هناك ستعرف كل شيء

ولم يزِد.. بل أمر السائق بالانطلاق وعاد لعمله وكأن شيئا لم يكن.. فضرب الرجل ظهر جواده ليتحرك مبتعدا عن الخان وعن البحر والقرية وعن كل شيء.. وطالت بهما الرحلة دون التوقف ولو لمرة واحدة..

رحلة صامتة كالأرض الجرداء التي تتحرك عليها العربة.. لا يقطع صمتها إلا صوت عجلات العربة على الأرض الحجرية وصوت السوط من حين لآخر..

مرا بمحاذاة سلسلة جبال ذكرتهما بنظيرتها في تلك الجزيرة.. لكن بعدما تجاوزاها توقف السائق فجأة لينزل من مكانه ثم يفتح الباب وهو يقول بلهجة آمرة:

- انزلا!

نظر الاثنان لبعضهما البعض ثم نزل هارون وساعد هند من بعده بينما الرجل يقول:

- هل تريان هذا التل هناك؟

دقق هارون وهند النظر فلاحظا ارتفاع الأرض واختفاء ما وراءها فأومأ هارون برأسه ليقول الرجل:

- اذهبا إليه

تبادل الاثنان النظرات قبل أن يقول هارون بدهشة:

- هل هذا هو المأوى؟!

أومأ الرجل برأسه لتصيح فيه هند بعصبية:

- هل جننت؟ قطعت بنا كل هذه المسافة لتلقي بنا في العراء؟!

زفر الرجل بضيق ثم قال:

- عن أي عراء تتحدثين؟ إنه المأوى الذي تسألان عنه

نظرت له بشك فقال موضحا:

- عندما تصلان إلى هناك ستجدان غابة كبيرة خلف هذا التل.. اذهبا إليها وسلما هذه للحراس..

وناول هارون لفافة ورقية عليها ختم شمعي وهو يتابع:

- اتبعا تعليماتهم.. هم سيخبرونكما بما تريدان معرفته

وركب العربة قبل أن يقول هارون بدهشة:

- أي حراس تقصد وإلى أين ستذهب؟

أجابه الرجل ببساطة:

- سأعود

صاحت هند وقد ظهرت نبرة الخوف بصوتها:

- هل ستتركنا نذهب وحدنا؟ ماذا لو آذانا أولئك الحراس؟

هز الرجل رأسه وقال وهو يشير للفافة الورقية بيد هارون:

- لن يفعلوا طالما أنكما تحملان هذه الرسالة

وضرب ظهر جواده بالسوط لينطلق مبتعدا عنهما فصاحت هند بغضب:

- ما بال أولئك الناس؟

ربت هارون على كتفها وهو يقول:

- لا داعي للغضب.. ها قد اقتربنا من معرفة الحقيقة

نظرت له في يأس لكنه ابتسم لها فتذكرت تشجيعه لها وهما في الجزيرة كي يتجاوزا آخر حاجز للأشجار كهذا الحاجز الذي بدا لهما عندما ارتقيا التلة كما أخبرهما الرجل..

وعلى ضوء الشمس الغاربة تحركا متجاورين يحدوهما الأمل كي يصلا لغايتهما.. فهناك سيطرحان كل الأسئلة التي ترد بعقليهما وسيجدان إجابات لها جميعا كما وعدهما شهاب..

ولما اقتربا من الأشجار تسارعت دقات قلبيهما وقد هاجمهما هاجس مرعب.. ماذا لو كان كل ذلك خدعة؟! ماذا لو أنهما يسلمان نفسيهما بإرادتهما للعسس أو لأي كان؟ ورغم الخوف إلا أنهما استمرا في السير حتى وصلا للغابة ليفاجئا ببعض الرجال المسلحين يخرجون من خلف الأشجار..

تراجع الاثنان خوفا وقد وجدا الرجال يصوبون إليهما سهامهم وأحدهم يقول:

- من أنتما؟

أسرع هارون بإبراز اللفافة الورقية وهو يقول:

- لقد أتينا من عند شهاب الصياد

أمسك الرجل باللفافة وفضها بينما البقية لا زالوا يصوبون أسلحتهم إلى الشابين.. فأخذا يتأملان أولئك الرجال.. كانوا مسلحين تعلوا رؤوسهم عمامات سوداء تحيط بخوذة حديدية لمع سطحها تحت أشعة الشمس المائلة للحمرة..

قرأ الرجل ما كتب في اللفافة ثم أشار برأسه لزملائه فتراجعوا..

- امشيا في هذا الطريق ولا تحيدا يمينا أو يسارا.. عندها ستصلان لبغيتكما..

رغم رغبتهما في السؤال إلا أنهما لم يقولا شيئا، فمظهر الرجل كان شرسا كزملائه..

أعاد الرجل إليهما اللفافة وهو يتابع:

- سلما هذه الورقة لمن يطلبها منكما في الداخل

أومئا برأسيهما ثم تحركا بحذر وهما يتحاشيان النظر إلى الحراس المدججين بالسلاح.. فسارا بشكل مستقيم بين الأشجار حتى بدأت كثافتها تقل شيئا فشيئا ليفاجئا بما لم يخطر لهما ببال..

- انظر!

قالت هند في ذهول وقد اتسعت عينا هارون دهشة.. فأمامهما كان هناك سور حجري عظيم بدا أنه يحيط بمدينة ما خلفه..

- هل هذا هو المأوى؟!

تساءلت هند والذهول لم يفارقها.. فتقدم هارون وهي معه حتى وصلا إلى البوابة الوحيدة في السور والتي يحرسها رجلان كأولئك المتخفين بين الأشجار في مقدمة الغابة.. وفور أن اقتربا تحفز الرجلان وصوبا أسهمهما في وجهيهما فمد هارون يده باللفافة الورقية مجددا ليأخذها واحد منهما بينما الآخر لا زال في وضع التصويب..

قرأ الرجل ما كتب في اللفافة ثم أشار برأسه لزميله كما فعل زميلهما السابق.. فتراجع ثم فتح لهما البوابة بينما الأول يعيد إليهما اللفافة الورقية..

- أهلا بكما في المأوى

قالها أحد الرجلين فالتفتت إليه هند لترى وجها مبتسما ربما لأول مرة منذ عادت لمدينتها وبدأت تلك الرحلة.. فبادلت الرجل ابتسامة مترددة وعادت لتنظر أمامها بينما أغلق الرجل البوابة تاركا إياهما في ذهول وحيرة..

أنهى هارون تهذيب شاربه ولحيته وذلك بعد أن انتهى من الاستحمام.. ثم نظر للعمائم الثلاث أمامه واختار ذات اللون البنفسجي الداكن ليلفها على رأسه وينظر لنفسه في المرآة متأملا هيأته.. فبعد أن كانت ثيابه ملطخة

بالتراب والطين والدماء.. أعطوه ثيابا جديدة وعمائم ذات ألوان لم يعهدها في مدينته من قبل ليختار منها..

هندم ثيابه ثم تحرك من أمام المرآة ليبحث في جيوب عباءته المتسخة عن الأوراق الخاصة بالملفات.. وجدها كما هي فوضعها في جيبه وانتظر أن يبلغوه بموعد مقابلة القائد..

وفي الغرفة المجاورة كانت هند تنتظر أيضا بعد أن غمرت نفسها في حوض الاستحمام الرخامي تزيل عن جسدها إرهاق أيام وتستمتع بدفء المياه.. وبعد أن انتهت وجدت ثيابا جديدة وعمامات ثلاث اختارت من بينها ذات اللون البنفسجي الداكن هي الأخرى..

ولم يطل الوقت حتى سمعت طرقا خفيفا على الباب تبعه دخول امرأة في منتصف الخمسينيات تقريبا..

- هل انتهيت يا عزيزتي؟

أومأت هند برأسها وهي تنهض من على الكرسي المريح وتتبع المرأة لخارج الغرفة ثم إلى الدرج نزولا للطابق السفلي.. وتوقفت أمام إحدى الحجرات لتفتح بابها وتدفع هند للداخل بلطف وهي تقول:

- بعد أن تنتهيا من الطعام ستقابلان السيد يعقوب

وخرجت لتغلق الباب خلفها..

- أهلا بك

التفتت هند إلى هارون الذي كان جالسا على الأرض أمام مائدة عامرة بالطعام وقد بدأ بالأكل، فابتسمت واقتربت منه لتجلس في مواجهته وهي تقول وقد لاحظت لون عمامته:

- أنت أيضا؟

نظر إليها فوجدها تشير إلى رأسها فابتسم وقال:

- يبدو أن هناك قواسم مشتركة بيننا رغم اختلافاتنا..

وغمز لها بعينه فابتسمت ثم بدأت الأكل بينما هو يقول:

- تبدين مشرقة كأول مرة رأيتك فيها

نظرت له وقد احمر وجهها خجلا ثم حاولت شغل نفسها بالأكل.. فقال هارون مغيرا الحديث:

- ترى من هو السيد يعقوب؟

هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت:

- لعله صاحب هذا البيت..

وتابعت بعد أن شربت قليلا من الماء:

- أرجو أن تكون لديه إجابات شافية لما يدور في رؤوسنا

تنهد هارون ثم قال:

- لا أظن أن شهاب أوصلنا لمن لا يعرف شيئا بعد تلك الرحلة الخطرة

ارتجف جسدها عندما تذكرت الساعة التي قضياها في الزنزانة فتجهمت..

- ما بك؟

سألها هارون لما لاحظ عبوس وجهها، فهزت رأسها وقالت:

- لا شيء.. تذكرت ما حدث بالأمس وحسب..

ورفعت بصرها إليه وهي تقول وقد لاحظت أن هناك ضمادة على أحد جروح وجهه:

- يبدو أن أحدهم قد اعتنى بجروحك

أومأ برأسه وقال:

- أجل.. إنه أحد المعالجين الذين يعيشون هنا..

وتابع وهو يرمقها بنظرة خاصة:

- لكني لم أرد أحدا غيرك أن يعتني به..

احمر وجهها مرة أخرى وتوقفت عن الأكل فقال ولم يحد ببصره عنها:

- لأنك أمهر معالجة التقيتها

أطرقت وراحت تعبث بقطعة الخبز أمامها وقد تعالت دقات قلبها.. فكلماته رغم أنها بسيطة وعادية لكنها تنفذ إلى قلبها مباشرة فيضطرب.. وتترك في نفسها أثرا محببا تحاول التغلب عليه كل مرة كي لا تضعف..

أكملت طعامها في صمت وكذلك فعل هارون حتى سمعا طرقا على الباب تلاه دخول الرجل الذي اصطحب هارون إلى غرفته أول ما وصل.. طلب منهما أن يتبعاه للقاء السيد يعقوب والذي كان رجلا بسيطا على عكس ما تخيلا؛ فكل الصفات التي دارت بعقليهما كان يعقوب هو النقيض منها تماما.. فهو رجل قمحي البشرة بلحية وشارب كثيفين.. يلبس ثوبا بسيطا ويجلس على بساط مزركش وعلى رأسه عمامة بيضاء.. أمامه طاولة بأرجل قصيرة وضع عليها مصباحا زيتيا صغيرا وبعض الأوراق.. رفع عينيه إلى الزائرَين لترتسم على وجهه ابتسامة دافئة..

- أهلا بكما!

رحب بهما يعقوب بينما ظل الاثنان واقفَين في مكانهما فأشار إليهما وهو يقول:

- تعاليا واجلسا..

اقتربا ببطء ثم جلسا متجاورَين فقال الرجل ببشاشة:

- إذن فأنتما ابني عكرمة وعدنان..

أومأ الاثنان إيجابا فقال موجها كلامه لهارون:

– تشبه أباك كثيرا

رفع هارون حاجبيه دهشة وقال:

– هل كنت تعرف أبي؟!

ابتسم يعقوب وهو يقول:

– أعرف آباءكم جميعا، وقد كان عكرمة من أفضل أصدقائي..

وتنحنح ليبدأ الكلام في ما طلبهما لأجله فقال:

– هل تعرفان ما هذا المكان؟

هز هارون رأسه نفيا فقال يعقوب:

– ألا تعرف أنه بيت قائد المجموعة؟

اتسعت عينا هارون وقال متعجبا:

– ألم يكن..

قاطعه يعقوب بقوله:

– بلى.. عدنان هو المؤسس لكنه رفض القيادة.. فسلمها لقائد يثق به وهو صاحب بذرة فكرة تكون المجموعة.. السيد شهاب

– السيد شهاب!

قالها الاثنان بدهشة فقال يعقوب:

– أجل.. شهاب قائد المجموعة في المدينة، ولما بدأت المطاردات والنفي والسجن صرت أنا قائد المجموعة هنا بعد أن قمنا بإنشاء هذا المأوى ليكون حرزا للضعفاء والمظلومين خاصة من يصدر ضدهم أحكام بالسجن والإعدام.. فكنا نقوم بتهريبهم وإحضارهم إلى هنا خفية..

ولما رأى الحيرة والتساؤلات في أعينهما أخذ نفسا عميقا وقال:

– ماذا تعرفان عن مجموعة الشهاب؟

قال هارون:

– ليس كثيرا.. نعرف مؤسسيها وقليلا من المعلومات عنها

ثم أخبره عن الكتاب الذي أعطاه لهما شهاب وعن محتواه وتساؤلاتهما عنه فقال يعقوب:

– ذلك الكتاب كان كمذكرات أولية للمجموعة ولدي نسخة منه هنا..

وسكت قليلا ثم قال:

– أما الجزء الأول منه فأعتقد أن شهاب وضعه ليجعلكم تربطون بين الكتاب وبين عدد آبائكم، ومن ثم تعرفون أن هزيم لم يشارك فيه لتأخذوا حذركم من ابنه

عقب هارون على كلمات يعقوب بسرعة قائلا:

– لهذا أنا أسأل نفسي حتى الآن لماذا وافقوا على وجود ذلك العساس بينهم؟!

قال يعقوب بابتسامة مريرة:

– لقد قام شهاب بتحذير عدنان لكنه وثق بالرجل وطلب من شهاب ألّا يقلق.. لكنه أعطى كلمة لشهاب ألا يخبر هزيم عن هذا المأوى.. واكتفى به كمصدر للمعلومات من داخل الديوان..

وأخذ نفسا عميقا ثم قال:

– بعد ذلك ذهب آباؤكم لتلك الرحلة لإنقاذ المدينة من تلك الغارات المشؤومة ولاستكشاف المكان؛ فقد كانت لديهم شكوك كثيرة جعلتهم يتساءلون عن سر الهالة المقدسة التي أحاطت بأي شيء يتعلق ذكره بالجزيرة.. لكنهم لم يعودوا حتى الآن

قال هارون بمرارة:

– ولن يعودوا..فمن وثقوا به كان أول من خانهم

ابتلعت هند غصة مرة وهي تسمع جملته بينما قطب يعقوب حاجبيه في تساؤل.. لكن قبل أن يقول شيئا طرق أحدهم الباب ثم دخل بعد أن أذن له.. واتسعت أعين هند وهارون لمرأى القادم.. والذي لم يكن سوى..

– غسان! أنت حي؟!

صاح هارون بينما غسان يقترب منهم ثم يجلس على الأرض مجاورا ليعقوب الذي قال:

– لولاه لما كنتم هنا الآن..

التفت إليه الاثنان والدهشة تطل من أعينهما فأشار يعقوب لغسان ليبدأ بالكلام قائلا:

– بعد أن تركناكما عدنا إلى الشاطئ مسرعَين لنلحق بفجر وسراج لكننا لم نجد أيا منهما على عكس ما ظننا.. ولم نعرف أين ذهبا فقررنا الإبحار دونهما..

وبلل شفتيه ليواصل الحديث قائلا:

– ولما رسونا في الميناء رفض تمام أن يأتي معي لكوخ السيد شهاب وقال أنه سيطلب المساعدة ممن هو أقدر منه ورحل.. ولم أحاول إقناعه فقد كان هذا ما يفكر به من البداية.. فانطلقت إلى كوخ السيد شهاب أخبره بما جرى.. فأرسل في طلب أحدهم وأسر إليه بشيء ما ثم طلب شخصا آخر ليحضرني إلى هنا على وجه السرعة.. وبعد ذلك قابلت السيد يعقوب وأخبرته بكل شيء

ساد الصمت عليهم بينما يحاول هارون وهند استيعاب ما سمعاه للتو.. لكن هند تذكرت شيئا فقالت:

– هل كان البحر هائجا كما كان عندما ذهبنا؟

أومأ برأسه وقال:

– أجل لكن ليس بالحدة ذاتها، كما أن نفحة الهواء البارد التي اصطدمت بوجهي ونحن ذاهبون في البداية عندما تجاوزنا الحد المسموح للإبحار تكررت مرة أخرى لأفاجأ بعدها أن البحر رائق تماما

قال هارون بحنق:

– إنه من عمل قابيل ولا شك.. هذا هو الخط الأول لحراسة المكان.. تعويذة تفصل بين الجزيرة والمدينة من جهة الميناء الرسمي لتثير البحر وتفسد أية محاولة لاجتيازه

بدا التساؤل في عيني يعقوب وغسان، فأخذ هارون نفسا عميقا وراح هو وهند يقصان عليهما ما جرى منذ تركهما غسان وتمام حتى خدعهما صفوان ليسود الصمت مجددا.. فقد فهم يعقوب الآن لماذا تم منع العامة من استخدام الميناء الغربي.. ولماذا كان كل ذلك الترهيب من الاقتراب من الجزيرة بل ووضع حد للصيد لا يجوز تجاوزه وإلا تعرض المخالف لأقسى العقوبات..

فهم لماذا نُسِجَت كل تلك الأساطير بعد أن تم تزييف تاريخ المدينة.. وسر الغارات التي أرعبت السكان لعشرات السنوات دون أن يتطرق لتفكيرهم ولو للحظة أنها خرافة بدورها.. والتي تأكد الآن أنها كانت غطاء لقتل من يشكون بانتسابه للمجموعة ثم ادعاء أنه كان ضحية للغارات..

ورغم علمه بتفشي الجهل في السكان إلا أنه لم يتخيل أن عملية التجهيل تلك كانت تتم منذ سنين طويلة وبتلك الأساليب القذرة..

أخذ يعقوب نفسا ثم قال قاطعا حبل الصمت:

– لعل هذا هو ما جعل العساسين يقتلون هزيم

– قتله؟!

قالها الثلاثة في نفس واحد ليقول يعقوب:

– أجل.. فقارب والد غسان الذي ذهبوا به إلى الجزيرة عاد هو به إلى الميناء الغربي الذي لم يعد يستخدمه إلا العسس والمحاربون، وهو المكان ذاته الذي رسوتم به وتم احتجازكم فيه.. فقد جعلوه مركز احتجاز خارج نطاق القانون ليفعلوا فيه ما يحلو لهم

قال هارون متسائلا:

– ولماذا لم يذهبوا بقارب السيد شهاب كما فعلنا؟ وكيف عرفتم عن ذلك الميناء؟ بل كيف عرفتم أن العسس هم من قتلوا هزيم؟ ولماذا؟

– أما القارب فقد عرض عليهم شهاب بالفعل أن يذهبوا به فقد خصصه للمهام الخاصة والطارئة..

والتفت إلى غسان قائلا:

– لكن والدك يا غسان فضل أن يذهبوا بقاربه وترك قارب الطوارئ

شعر غسان بالحرج بسبب ظنونه السابقة.. لكن يعقوب قال قاطعا أفكاره:

– وكيف.. عرفناها كما عرفنا أنكم أتيتم لذلك الميناء بالأمس.. وأما لماذا..

قاطعته هند فجأة وهي تقول بضيق:

– معنى هذا أن لديكم عيونا بين العساسين.. لماذا أنكرتم على أبي ثقته بهزيم إذن؟

ارتسمت ابتسامة على وجه يعقوب وقال:

– ملاحظة جيدة وسأخبرك بالسبب.. فبعد أن ساورت الشكوك شهاب حول هزيم وقد كان أول العسس انضماما للمجموعة، طلبنا من بعض المسؤولين في المجموعة ممن هم مقربون من العساسين أنهم إذا وجدوا من يرونه صالحا منهم فليتحروا عنه لإثبات أو نفي ذلك.. ومن يثبت صلاحه نخبره عن أمر المجموعة لينضم إلينا، فرغم كل شيء نحن في حاجة إلى

قوتهم ونفوذهم لمساعدتنا، لكن ذلك بعد أن يمر باختبارات جديدة، وبهذا نضمن عدم وجود جواسيس بيننا، ويبدو أن تلك الاختبارات تؤتي أُكُلَها حتى الآن؛ فأمر المأوى لا يزال سرا..

صمتت هند ليتابع يعقوب:

– أما لماذا قتلوه لم نكن نعرف تحديدا لماذا، لكن كان لدينا تخمينات بأنه ربما عرف شيئا ما وهددهم بإفشائه.. وما قلتماه قبل قليل يفسر ذلك.. ولعلهم أيضا أرادوا محو أي أثر يدل على تسببهم في مقتل التسعة وجعل الأمر يبدو غامضا ومبهما إذا ما بحث أحدهم في الأمر

ساد الصمت من جديد قبل أن تقول هند:

– يجب أن نعود إذن ونخبر الجميع بما عرفنا

وأشارت إلى الأوراق التي وضعها هارون على الطاولة مذ بدأ الحديث، فقال يعقوب بهدوء:

– وبعد أن نخبرهم؟

نظرت له هند بحيرة فقال:

– اسمعيني يا ابنتي.. أي معلومة ستلقى على مسامع الناس سيتم تغييرها وتزييفها وقلبها من قبل أولئك الكهنة.. إنهم يقومون بغسل عقول العامة

منذ زمن بعيد، ولن تفلح محاولة فردية في إبطال سمومهم التي ينفثونها بشكل دائم في عقول الناس

بدا اليأس والحزن في عيني هند ثم قالت:

– وهل سنقف مكتوفي الأيدي؟ ما فائدة مخاطرتنا إذن؟ ليتنا لم نخض تلك المغامرة التي كادت تقضي علينا طالما أن كل ذلك بلا فائدة

هز يعقوب رأسه وقال:

– من قال أنه بلا طائل؟ لقد قمتم في أسبوع بما لم تستطع مجموعتنا القيام به منذ إنشائها قبل عامين.. فالآن لدينا رؤية أوضح بكثير عن ذي قبل، وفهمنا أبعاد الخطر وأدوات اللعبة.. لقد قمتم بإعطائنا مفاتيح الكثير من الألغاز

لم تخفت نبرة اليأس في صوت هند وهي تقول:

– ألا يمكننا حتى العودة دون أن نتحدث عن أي شيء؟

قال يعقوب بجدية:

– عودتكم تعني موتكم.. فلولا عودة غسان لما أرسل شهاب إلى أفراد مجموعتنا في الميناء الغربي لانتظار عودتكم في أي وقت.. ولكنتم في عداد المفقودين..

كادت هند أن تقول شيئا لكنه استطرد:

- ولن يكون موتكم تضحية وشهادة.. بل ستكون حماقة لأنهم لن يتورعوا عن تشويه سمعتكم قبل وبعد موتكم، وبهذا لن يلتفت الناس للحق الذي جئتوهم به مهما حدث

- ما الحل إذن؟

تساءل هارون وقد بدأ اليأس بالتسلل إليه بدوره فقال يعقوب:

- الحل هو ما بدأناه قبل عامين.. لكن بفضلكم تغيرت أدوات وقواعد اللعبة..

وسكت قليلا ثم قال:

- إن معركة الوعي وتحديد الهوية لهي أشد وطيسا من معركة بالمجانيق.. وقد لمستم هذا بأنفسكم عندما واجهتم مخاوفكم بشجاعة ورغم ذلك ظل إيمانكم بها كما هو.. تغيير القناعات ليس بالأمر السهل فما بالكم بتغيير عقيدة راسخة في القلوب والعقول؟! وهذا لن يتم في أيام أو شهور.. بل ربما أعوام.. وقد لا نرى ثمرته بأعيننا وإنما بأعين من سيأتون بعدنا.. أعلم أن حماسة الشباب تدعوكم للمجازفة.. لكن الحكمة تقتضي غير ذلك..

بدا الإحباط على وجوه الشباب الثلاثة فابتسم يعقوب قائلا:

- هل من أسئلة أخرى؟

لم يقل أحدهم شيئا فقام يعقوب من مكانه وهو يقول:

- هذا جيد.. انتهى وقت الكلام فلدينا عمل كثير.. اليوم سنترككم لترتاحوا ثم في الغد سنرى ما إن كنتم تودون الاستمرار في مهنكم الأصلية أم تريدون التغيير

نهض الثلاثة من أماكنهم بينما هارون يقول:

- وأين سنبيت؟

رد يعقوب وهو يفتح الباب:

- هذه الليلة ستبيتون هنا في بيتي وبعدها ستنتقلون إلى بيوتكم التي أعدّها آباؤكم من قبل

- أهي ملك لهم؟

تساءل غسان ليقول يعقوب بعد أن خرجوا جميعا من الغرفة وأغلق الباب خلفهم:

- أجل.. لقد قام كل منهم ببناء بيت له؛ حتى إذا ما تفاقمت الأمور جاؤوا للعيش في المأوى بعيدا عن بطش الحاكم

ساد الصمت عليهم فقام يعقوب بمناداة خادمه الذي أرشد هند وهارون إلى غرفتيهما في الطابق العلوي، أما يعقوب فقد أوصل غسان إلى غرفته في الطابق الأرضي مراعاة لإصابته..

- أراكِ غدا

كان هذا أول ما تفوه به هارون بعد أن تركهما الخادم أمام غرفتيهما؛ فقد بلغ اليأس منه حدا جعل التفكير والكلام ثقلا لا يريد بذل مجهود لأجله.. وكذا الحال مع هند التي أومأت برأسها وهي تحييه ثم تدخل إلى غرفتها لتتسع عيناها لمرأى من يجلس على فراشها!

- أمي!

صاحت بها هند ثم أسرعت لتلقي نفسها بين ذراعي أمها بعد غياب دام أسبوعا.. بل سبعة أشهر أو سبعة أعوام..

لم تعد تدري فقد تساوت كل الاحتمالات والقاسم المشترك بينها هو الاشتياق..

ضمة قوية دافئة وكلمات شوق ودموع فرح للقاء لم يكن بالحسبان.. وحروف مبعثرة لا تكون عبارة محددة لكنها تدور حول معنى واحد..

- افتقدتك كثيرا!

قالتها أمها بصوت مختنق بالدموع ثم رفعت وجه ابنتها إليها لترى ملامحها التي تحفظها عن ظهر قلب وطبعت قبلة على جبهتها بينما ابنتها الصغرى تقول:

- خفت ألا أراك مرة أخرى

التفتت هند إلى أختها واحتضنتها بقوة ثم جذبتها لتجلس بجوارها على الفراش وهي تقول:

- أنا أيضا خفت ألا أراكما مجددا

ومسحت دموعها التي أغرقت وجهها بينما أمها تقول:

- كنت أشعر أنك ستذهبين..

التفتت إليها هند فتابعت وهي تجلس بجوارها وتحيط كتفيها بذراعها:

- لقد فكرت في هذا الأمر بعد ما جاء خبر وفاة العساس دون عودة البقية؛ وصرت أنتظر اليوم الذي تخبرينني فيه أنك تريدين الذهاب لإكمال مهمة والدك والبحث عنه.. لكنك فاجأتني باختفاء ورسالة ثم عودتك وحيدة

كانت لهجتها معاتبة فاحتضنتها هند وهي تقول:

- لم أقصد أن أسبب لك الضيق..

وازدردت لعابها وهي مترددة في إخبار والدتها عما حل بأبيها.. لكنها انتبهت لشيء ما فرفعت رأسها وهي تقول بدهشة:

- مهمة والدي؟ هل كنت تعرفين من البداية؟

- أجل

أنت من المجموعة إذن؟!

أومأت أمها برأسها وعلى شفتيها ابتسامة فعادت هند تلقي برأسها على صدر أمها وقد قررت أنها سترجئ الحديث عن أبيها للغد لكيلا تنغص فرحة أمها.. وعلى الجانب الآخر من الجدار في غرفة هارون كان حوار مشابه يدور بينه وبين أمه.. حوار طمأنهما فقد زال السبب الذي رغبا لأجله في العودة للمدينة معرضين نفسيهما للخطر..

ولأول مرة منذ أسبوع كامل ينام الاثنان ملء أجفانهما..

بعد بضعة أيام خرجت هند من وحدة التمريض الوحيدة في المأوى لتجد هارون خارجا بدوره فتلاقت أعينهما بشكل عفوي لتحمر وجنتا هند خجلا ويبطئ هو من سيره لتلحق به..

- كيف كان أول يوم عمل؟

بادرها بالسؤال فقالت محاولة التغلب على خجلها الذي صار يسببه لها كلما تكلما:

- لا بأس.. وأنت؟

هز رأسه قائلا:

- لم أعتد بعد على الأعمال الإدارية

قالت بحذر وهي تحاول أن يبدو صوتها طبيعيا:

- أتريد العودة لوظيفة الناقض؟

لم تكن تسخر منه وهو يعلم ذلك، فقال ببساطة:

- كلا.. لطالما كرهت عملي وأردت الانتقال لأي قسم آخر، وكذلك كانت رغبة والدي

ساد بينهما الصمت بعض الوقت حتى قالت هند:

- أتعرف؟ أنا في صراع نفسي منذ أن عدنا..

انتبه هارون إليها فقالت:

- بعض ممن أعمل معهم ليسوا بمعالجين أصليين.. فمنهم من كانوا من العسس ومنهم من كانوا من الحكماء أو حتى المحاربين..

وتابعت وهي تتحاشى النظر إليه:

- جميعهم كنت أكن لهم الكراهية فهكذا نشأنا.. وهم أيضا يكرهوننا.. وفجأة وجدت نفسي أمام أولئك الناس أعمل معهم جنبا إلى جنب ويجب علي التبسم في وجوههم التي تبادلني الابتسام دون أن تكن لي كرها أو حقدا..

وصمتت قليلا قبل أن تقول:

- بعضهم سألني عن عائلتي الأصلية في السابق وآخرون لم يفعلوا، لكن ما يجمعهم أنهم ينتمون الآن إلى شيء أكبر.. أكبر من ذلك الوشم الذي يشير لانتماءاتهم القديمة ويجمع أفراد كل عائلة تحت مسمى رباط الدم والذي يعلمون أنه كذب.. كل هذا يربكني؛ فأنا لا أكف عن التفكير في كل شخص أقابله لأتعامل معه على أساس أصله..

ووضعت كفها على جبينها وهي تقول:

- هذا الصراع أصابني بالتوتر ولا أدري إلى متى سيستمر

وسكتت لتطلق تنهيدة حارة فقال هارون:

- لم لا ننهي هذا الصراع إذن؟

رفعت رأسها إليه وهي تتساءل:

- كيف؟

قال هارون بجدية:

- لنتزوج!

خاتمة

وقفت هند تطالع البدر الذي يتوسط السماء لكن في مكان آخر هذه المرة.. وبمشاعر مختلفة وذكريات لا تكفيها مجلدات لكتابتها.. وبعد تجربة صقلتها حد التشبع وقد زادت على أعوامها الثمانية عشر أعواما أخرى لا تدري عددها..

– عرس أحد تعرفينه؟

التفتت هند على صوت هارون الذي وقف بجوارها في حديقة بيته، فابتسمت بمرارة وهي تقول:

– زهرة.. صديقتي المقربة..

شعر بالأسف لأجلها وزاد من شعوره تنهيدة ثقيلة أطلقتها هند وهي تحاول منع غصة ستفقدها تماسكها..

– متى سيتوقف هذا الزواج الجبري؟ إلى متى سيظل الناس أسرى ذلك النظام الجائر؟

رغما عنها تكلمت لتعبر عما يحرق قلبها.. ولا تدري هل يؤلمها زواج صديقتها القهري أم لأنها ليست بجوارها لمواساتها في تلك الزيجة الفاشلة قبل أن تبدأ..

- سيتغير..

قال هارون بنبرة هادئة ثم تابع:

- عندما نتزوج

ارتبكت كما يحدث لها كلما أتى على ذكر هذا الأمر.. فمنذ عرض عليها الزواج وهما عائدين من عملهما وهي تفكر في الأمر..

من العجيب أن واحدا ممن كانت تمقتهم في تلك الرحلة صار الآن قريبا منها.. لا تدري متى انطلقت الشرارة لكنها أحست بها يوم أن زُجَّ بهما في ذلك السجن غير القانوني.. وكأن روحها كانت تنسحب منها تدريجيا حتى رأته خارج الزنزانة وتوقف كل شيء عند تلك اللحظة..

فعناقهما ترجم مشاعرها بوضوح.. تلك المشاعر التي نضجت في أيام ولا تدري كيف حدثت هذه المعجزة..

مريد كانت تثق به وتحترمه، ولعله الوحيد الذي لم تكنّ له أي حقد أو كراهية.. ووفاته جعلتها تتيقن أن هارون ليس هو من يجب عليها الحذر منه.. بل عليها أن تصطف معه لمواجهة الخطر المحدق بهم جميعا..

تنهدت في حيرة فقال هارون وقد أحس بتخبط مشاعرها:

– لقد طلبت مني مهلة للتفكير.. وها قد اكتمل أسبوعان دون أن تعطيني ردا شافيا

ظلت على صمتها لتثير بداخله مخاوف أرقته في الأيام الماضية.. لقد كان يخشى أن ترفض طلبه بعد كل تلك المدة، فلو أنها رفضته فور أن عرض عليها الزواج لحاول معها مرة أخرى وأخرى حتى يقنعها.. أما أن تظل على صمتها كل تلك المدة فقد ألهبت مشاعره وخوفه في أن يفقدها..

– عند اتخاذ أي قرار فأنا أفكر بعقلي وبشكل عملي بحت..

انتبه هارون من شروده على صوتها فنظر إليها بينما هي تقول:

– لهذا لم أكن أستغرق وقتا طويلا في التفكير؛ فالمعطيات واضحة وتؤدي للنتائج بكل سهولة.. أما هذه المرة فالقرار لقلبي وليس لعقلي

راح يحملق فيها وقد اتسعت عيناه دهشة.. إن هذا اعتراف ضمني منها أنها تبادله ذات المشاعر فخفق قلبه فرحا..

- ما الذي يمنعك من الموافقة إذن؟

قالها وأنفاسه تتلاحق انفعالا.. فرفعت عينين خجلتين إليه وقالت:

- إنه الصراع الذي أخبرتك عنه قبلا

احتوى وجهها بين كفيه واقترب منها وهو يقول بصوت أقرب للهمس:

- وأنا أخبرتك قبلا أننا سننهيه إن تزوجنا

شعرت بدفء أنفاسه على وجنتيها فتراجعت فجأة لينتبه من سكرته المؤقتة، وراح ينظر إليها يكاد يستجديها أن تتكلم..

- ماذا تفعلان هنا؟

انتفض الاثنان على صوت أخي هارون الذي ظهر لهما من العدم ليثير غيظ أخيه الذي قال:

- ماذا تريد؟

قال الفتى وهو يبتسم بمكر:

- والدة هند تسألكما ألم تشعرا بالبرد؟

نظر له هارون بنفاد صبر فقال كاتما ضحكة:

- كما أن أمي تريدكما في الداخل فطعام العشاء قد تم إعداده

أشار له هارون بيده ليصرفه وهو يقول بحنق:

- قل لها أننا قادمان

عاد الفتى من حيث جاء.. وفور اختفائه عن الأنظار سمع هارون صوت هند وهي تقول:

- أنا موافقة!

ضحك وزغاريد وضرب على الدفوف وغناء هم مفردات شيء واحد.. عُرس!

والعروس المرتبكة تجلس وسط النسوة اللاتي لا تعرف معظمهن، لكن فرحهم بها كان حقيقيا..

وبدلا من انتظار اكتمال بدر الشهر التالي كما كانت قوانين مدينتهم.. أقيم العرس بعد ثلاثة أيام وحسب من نطقها بكلمتها السحرية.. "موافقة"..

أما هارون في الطابق السفلي من البيت فقد كان يتعجل انتهاء العرس وكأنه عاشق لعروسه منذ سنوات وينتظر جمعهما في بيت واحد.. لكن منذ متى كان للعشق قوانين؟

توالت التهاني للعروس وامتلأت سلة الخوص المزينة بالهدايا من كل المدعوات.. واقشعر بدن هند عندما خفتت أصوات الغناء شيئا فشيئا إيذانا بانتهاء العرس.. ليدخل هارون بعدها إلى الغرفة..

دقات قلبها المتسارعة هدأت قليلا عندما أمسك بيدها ليحتويها في راحته، ثم خرج معها من الغرفة ومن بيت والدتها إلى بيته هو تشيعهما أصوات الزغاريد والدعوات بحياة هانئة..

والحياة الهانئة ليست زوجا وحسب.. وإنما زوج ونضال وإيمان بالحرية والعمل لتحقيقها..

ومن هنا تبدأ الحكاية.

تمت بحمد الله

نوفمبر ٢٠١٧